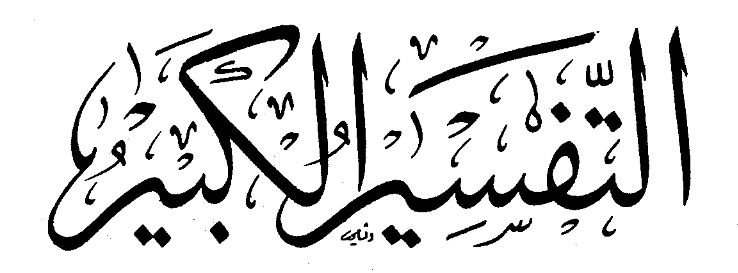


التفسير الكبير

للإمام العلامة تقي الدين

ابن تيمية

ولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨هـ

رحمه الله تعالى

الجزء الثاني

تحقيق وتعليق

الدكتور

عبد الرحمن عميرة

عضو اللجنة العلمية الدائمة

بجامعة الأزهر

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان


التفسير الكبير



فصل
« في أسباب ضلال المتكلمين » . وأتباعهم .

وهؤلاء كان من أعظم أسباب ضلالهم مشاركتهم للفلاسفة وتلقيهم عنهم ، فإن أولئك القوم من أبعد الناس عن الاستدلال بما جاء به الرسول ، فإن الرسول بعث بالبينات والهدى : يبين الأدلة العقلية ويخبر الناس بالغيب الذي لا يمكنهم معرفته بعقولهم [1] ، وهؤلاء المتفلسفة يقولون : إنه لم يفد الناس علما بخبره ولا بدلالته ، وإنما خاطب خطاباً جمهورياً ليصلح به العامة فيعتقدوا في الرب والمعاد اعتقاداً ينفعهم وإن كان كذباً وباطلا ، وحقيقة كلامهم أن الأنبياء تكذب فيما تخبر به ، لكن كذباً للمصلحة ، فامتنع أن يطلبوا من خبرهم علماً ، وإذا لم تكن أخبارهم مطابقة للمخبر فكيف يثبتون أدلة عقلية على ثبوت ما أخبروا به .

---

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده ، ٦ : ٥٢ حدثنا يحيى عن اسماعيل ، ثنا قيس قال : لما أقبلت عائشة بلغت مياه بني عامر ليلاً نبحت الكلاب قالت : أي ماء هذا . . ؟ قالوا : ماء الحوأب . قالت : ما أظنني إلا أني راجعة . فقال بعض من كان معها بل تقدمين فيراك المسلمون فيصلح الله عز وجل ذات بينهم . قالت : إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لها ذات يوم كيف باحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب » .

وذكر ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب ٢ : ٥٨١ ـ في ترجمة سراقة بن مالك بن جُعشم . وروى سفيان بن عيينة عن أبي موسى ، عن الحسن أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لسراقة بن مالك : كيف بك اذا لبست سواري كسرى ؟

قال : فلما أتى عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سُراقة بن مالك فالبسه إياهما » .

والمتكلمون - الذين يقولون : إنهم لا يخبرون إلا بصدق ، ولكن يسلكون في العقليات غير طريقهم - مبتدعون مع إقرارهم بأن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية ، فكيف بهؤلاء الملاحدة المفترين ؟ ولهذا لا يعتنون بالقرآن ، ولا بتفسيره ، ولا بالحديث ، وكلام السلف ، وإن تعلموا من ذلك شيئا فلأجل تعلق الجمهور به ليعيشوا بينهم بذكره ،لا لاعتقادهم موجبه في الباطن ، وهذا بخلاف طوائف المتكلمين فإنهم يعظمون القرآن في الجملة وتفسيره مع ما فيهم من البدع .

ولهذا لما استولى التتار على بغداد (١) وكان الطوسي (٢) منجما لهولاكو استولى على كتب الناس الوقف والملك ، فكان كتب الأسلام مثل التفسير والحديث والفقه والرقائق يعدمها ، وأخذ كتب الطب ، والنجوم ، والفلسفة ، والعربية فهذه عنده هي الكتب المعظمة ، وكان بعض من أعرفه قارئاً خطيباً

---

(١) قال ابن الأنباري : أصل بغداد للأعاجم ، والعرب تختلف في لفظها إذا لم يكن أصلها من كلامهم ، ولا اشتقاقها من لغاتهم . قال بعض الأعاجم ، تفسيره بستان رجل « فباغ » بستان ، وداد إسم رجل ، وبعضهم يقول : بغ : اسم للصنم فذكر أنه أهدى الى كسرى خص من المشرق فأقطعه إياها ، وكان الخصي من عباد الأصنام ببلده . فقال : بغ داد أي الصنم أعطاني ، وقيل : بغ هو البستان ، وداد : أعطى ، وكان كسرى قد وهب لهذا الخصي هذا البستان فقال : بغ داد فسميت به وسماها المنصور : مدينة السلام . وسميت مدينة السلام لأن دجلة يقال لها وادي السلام وقال موسى بن عبد الحميد النسائي : كنت جالساً عند عبد العزيز ابن أبي روّاد فأتاه رجل فقال له : من أين أنت . . ؟ فقال له : من بغداد فقال : لا تقل بغداد فإن بغ صنم وداد أعطى ، ولكن قل : مدينة السلام فإن الله هو السلام ، والمدن كلها له . [راجع معجم البلدان ١ : ٤٥٦ - ٤٦٧]

(٢) هو محمد بن محمد بن الحسن ، أبو جعفر نصير الدين الطوسي ، كان رأساً في العلوم العقلية ، علامة بالأرصاد والمجسطي ، والرياضيات علت منزلته عند « هولاكو » ولد بطوس (قرب نيسابور) عام ٥٩٧ هـ وابتنى بمراغة قبة ، ورصداً عظيماً واتخذ خزانة ملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة ، من مصنفاته (تربيع الدائرة) و« تجريد العقائد » وغير ذلك . توفي عام ٦٧٢ هـ [راجع فوات الوفيات ٢ : ١٤٩ والوافي ١ : ١٧٩ وشذرات ٥ : ٣٣٩ ومفتاح السعادة ١ : ٢٦١]

لكن كان يعظم هؤلاء ويرتاض رياضة فلسفية سحرية حتى يستخدم الجن ، وكان بعض الشياطين ألقى إليه أن هؤلاء يستولون على دار الإسلام فكان يقول لبعض أصحابنا يا فلان عن قليل يرى هذا الجامع جامع دمشق يقرأ فيه المنطق والطبيعي والرياضي والإلهي ، ثم يرضيه فيقول : والعربية أيضاً ، والعربية إنما احتاج المسلمون اليها لأجل خطاب الرسول بها ، فإذا أعرض عن الأصل كان أهل العربية بمنزلة شعراء الجاهلية أصحاب المعلقات السبع [١] ونحوهم من حطب النار .

---

(١) هي القصائد السبع الطوال التي سمتها العرب السموط لأنها مختزن حكمتهم ، ومستقر بلاغتهم ، وغاية ما وصل اليه الخيال من شاعريتهم وقد قال بعض الرواة أنهم من فرط شغفهم بهذه القصائد ، وشدة اكبارهم لها كتبوها بماء الذهب على القباطي ، وعلقوها على الكعبة ، وأصحاب القصائد هم : امرؤ القيس ومعلقته عدد أبياتها ٨٩ بيتاً ، والحارث بن حلزة ومعلقته ٨٤ بيتاً ، ومعلقة زهير بن أبي سلمى وعدد أبياتها ٦٤ بيتاً وطرفة بن العبد ، ولبيد ، وعمرو ابن كلثوم ، وعنترة ، ولكن بعض الرواة نسب للنابغة الذبياني والأعشى معلقتين .

فصل
الخوارج أول دعاة للفرقة في الاسلام

أول التفرق والابتداع في الإسلام بعد مقتل « عثمان » وافتراق المسلمين ، فلما اتفق علي ومعاوية على التحكيم أنكرت الخوارج [1] وقالوا

---

(١) يقال لهذه الطائفة « الخوارج ، والحرورية ، والنواصب ، والشراة ، أما الخوارج فجمع خارج ، وهو الذي خلع طاعة الإمام الحق وأعلن عصيانه وألب عليه ، وعلماء الفقه الإسلامي يسمون من فعل ذلك وصارت له شوكة « الباغي » وجمعه « بغاة » وأما الحرورية فنسبه الى حرورا وضبطه ياقوت بفتح الحاء والراء المهملتين وبعدهما واو ساكنة فالف ممدودة وقال : قيل هي قرية بظاهر الكوفة ، وقيل موضع على ميلين منها نزل به الخوارج الذين خالفوا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فنسبوا اليه ، وقال ابن الأنباري : حروراء كورة ، وقال أبو منصور الحرورية منسوبون الى موضع بظاهر الكوفة نسبت اليه الحرورية من الخوارج وبها كان أول تحكيمهم واجتماعهم حين خالفوا علياً عليه السلام .
وقد وقع في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن معاذة بنت عبد الله اليدوية سألتها : أتقضي إحدانا الصلاة أيام حيضها . .؟ فقالت عائشة : أحرورية أنت . .؟ قد كانت إحدانا تحيض على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ ثم لا تؤمر بقضاء الصلاة (صحيح مسلم ١ / ١٨٢ الآستانة) وذكر شراح مسلم أن الحرورية يوجبون على الحائض إذا طهرت قضاء الصلاة ، وربما سموا فرقة من الخوارج بعينها (حرورية) .
وأما النواصب فجمع ناصبي وهو الغالي في بغض علي بن أبي طالب ، وقال المقريزي ٢ : ٣٥٤ والفرقة العاشرة الخوارج ويقال لهم : النواصب ، والحرورية نسبة الى حروراء موضع خرج فيه أولهم على علي ـ ﷺ ـ وهم الغلاة في حب أبي بكر وعمر وبغض علي بن أبي طالب ـ رضوان الله عليهم أجمعين .

لا حكم إلا لله وفارقوا جماعة المسلمين ـ فأرسل اليهم ابن عباس فناظرهم [١] فرجع نصفهم ، والآخرون أغاروا على ماشية الناس واستحلوا دماءهم ، فقتلوا ابن خباب وقالوا كلنا قتله فقاتلهم علي ، وأصل مذهبهم تعظيم القرآن وطلب اتباعه ، لكن خرجوا عن السنة والجماعة ، فهم لا يرون اتباع السنة التي يظنون أنها تخالف القرآن كالرجم ونصاب السرقة . وغير ذلك فضلوا ، فإن الرسول أعلم بما أنزل الله عليه ، والله قد أنزل عليه الكتاب والحكمة ، وجوزوا على النبي أن يكون ظالماً فلم ينفذوا لحكم النبي ولا لحكم الأئمة بعده . بل قالوا : إن عثمان وعلياً ومن والاهما قد حكموا بغير ما أنزل الله . ﴿ **وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ** ﴾ [٢]

فكفروا المسلمين بهذا وبغيره ، وتكفيرهم وتكفير سائر أهل البدع مبني على مقدمتين باطلتين .

« إحداهما » أن هذا يخالف القرآن .

و« الثانية » أن من خالف القرآن يكفر ولو كان مخطئاً أو مذنباً معتقداً للوجوب والتحريم .

= وأما الشراة فهم بضم الشين مثل رماة وقضاة ـ جمع شار أما هم أنفسهم فإنهم يفسرون ذلك على أن الشاري الذي هو مفرد الشراة اسم فاعل من الشراء ويزعمون أنهم سموا بذلك لأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى على أن لهم الجنة يشيرون بذلك الى قوله تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون** ﴾ .

وأما غيرهم فإنهم يفسرون ذلك على أن الشاري اسم الفاعل من شرى الشر من باب(رضي) اذ استطار وزاد وتفاقم وقالوا أيضاً (شرى الرجل كرضى) إذا غضب ولج في الخصومة وغيرها (انظر صحاح الجوهري ش ر ي)

(١) أخرج ابن سعد عن عمران بن مناح قال : فقال ابن عباس يا أمير المؤمنين فأنا أعلم بكتاب الله منهم ، في بيوتنا نزل فقال : صدقت ، ولكن القرآن حمال ذو وجوه ، يقول : ويقولون : ولكن حاججهم بالسنن فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً .

فخرج ابن عباس إليهم فحاججهم بالسنن فلم يبق بأيديهم حجة .

(٢) سورة المائدة آية رقم ٤٤ .

وبإزائهم « الشيعة »[1] غلوا في الأئمة وجعلوهم معصومين يعلمون كل شيء ، وأوجبوا الرجوع اليهم في جميع ما جاءت به الرسل ، فلا يعرجون لا على القرآن ولا على السنة ، بل على قول من ظنوه معصوماً ، وانتهى الأمر الى الائتمام بإمام معدوم لا حقيقة له ، ثم إنما يتمسكون بما ينقل لهم عن بعض الموتى فيتمسكون بنقل غير مصدق عن قائل غير معصوم ، ولهذا كانوا أكذب الطوائف ، والخوارج صادقون فحديثهم من أصح الحديث ، وحديث الشيعة من أكذب الحديث .

ولكن الخوارج دينهم المعظم مفارقة جماعة المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم ، والشيعة تختار هذا ولكنهم عاجزون ، والزيدية[2] تفعل

---

(١) التشيع لفظ يتصل بكلمة : شيعة ، وشيعة الرجل ـ بالكسر ـ أتباعه وأنصاره . والفرقة على حده ، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث ، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى علياً ـ رضي الله عنه ـ وأهل بيته ـ حتى صار اسماً خاصاً لهم وجمعها أشياع وشيع . والتشيع في أصل اللغة هو الاتباع على وجه التدين والولاء للمتبوع على الإخلاص . قال الله تعالى : ﴿ **فاستغاثة الذي من شيعته على الذي من عدوه** ﴾ القصص آية ١٥ وقال تعالى ﴿ **وإن من شيعته لابراهيم** ﴾ سورة الصافات آية ٨٣ فالتشيع إذن يتضمن في معناه الاتباع والنصرة من جماعة لرجل عموماً . ولكن كلمة « شيعة » مجردة لا تعني العموم ، وإنما تنصرف الى دلالة خاصة هي الجماعة التي ناصرت علياً وشايعته والتفت حوله ، وجعلت منه إماماً لها : تقتدي به وتجعل له مقاماً يسمو على مقام معاصريه فيما عدا الرسول ـ ﷺ .

وذكر أبو الحسن الأشعري أنهم « إنما قيل لهم : الشيعة لأنهم شيعوا « شايعوا » علياً ـ رضوان الله عليه ـ ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ [راجع مقالات الاسلاميين ص٥ والفصل ١١٣١٢ والتبصير في الدين ص ١٦ـ ١٧ .]

(٢) إنما سموا « زيدية » لتمسكهم بقول « زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وكان زيد بن علي بويع له بالكوفة في أيام هشام بن عبد الملك ، وكان أمير الكوفة يوسف بن عمر الثقفي ، وكان زيد بن علي يفضل علي بن أبي طالب على سائر أصحاب رسول الله ـ ﷺ ويتولى أبا بكر وعمر ، ويرى الخروج على أئمة الجور ، فلما ظهر في الكوفة في أصحابه الذين بايعوه سمع من بعضهم الطعن على أبي بكر وعمر ، فأنكر ذلك على من سمعه منه =

هذا ، والإمامية تارة تفعله وتارة يقولون لا نقتل إلا تحت راية إمام معصوم . والشيعة استتبعوا أعداء الملة من الملاحدة والباطنية وغيرهم ، ولهذا أوصت الملاحدة ـ مثل القرامطة الذين كانوا في البحرين وهم من أكفر الخلق ، ومثل قرامطة المغرب ومصر وهم كانوا يستترون بالتشيع ـ أوصوا بأن يدخل على المسلمين من باب التشيع فإنهم يفتحون الباب لكل عدو للإسلام من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وهم من أبعد الناس عن القرآن والحديث كما قد بسط هذا في مواضع .

والمقصود أن النبي ﷺ قال : « إني تارك فيكم ثقلين كتاب الله » فحض على كتاب الله . ثم قال : « وعترتي أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ثلاثا »[1] فوصى المسلمين بهم لم يجعلهم أئمة يرجع المسلمون اليهم فانتحلت الخوارج كتاب الله ، وانتحلت الشيعة أهل البيت ، وكلاهما غير متبع لما انتحله ، فإن الخوارج خالفوا السنة التي أمر القرآن باتباعها ، وكفروا

= فتفرق عنه الذين بايعوه فقال لهم (رفضتموني) فيقال إنهم سموا الرافضة لقول زيد لهم « رفضتموني » وبقي في شرذمة. وهم ست فرق : الجارودية ، والمرتدية ، الأبرقية ، اليعقوبية ، الأبترية ، الجريرية .

(١) الحديث أخرجه الامام الترمذي في كتاب المناقب ٣٢ باب في مناقب أهل بيت النبي ـ ﷺ ـ ٣٧٨٦ حدثنا زيد بن الحسين هو الأنماطي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال : رأيت رسول الله ـ ﷺ في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب ، فسمعته يقول وذكره .

قال : وفي الباب عن أبي ذر وأبي سعيد ، وزيد بن أرقم ، وحذيفة بن أسيد وقال : وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، وزيد بن الحسن قد روى عنه سعيد بن سليمان وغير واحد من أهل العلم . وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٧ (حلبي) بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ـ ﷺ ـ بلفظ ـ إني أوشك أن أدعى فأجيب وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عز وجل وعترتي كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، وأن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروني بما تخلفوني فيهما » .

المؤمنين الذين أمر القرآن بموالاتهم ، ولهـذا تأول سعـد بن أبي وقاص فيهم هذه الآية :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلاَّ الفَاسِقِينَ ، الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ الله مِن بَعْدِ مِيثَـاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أن يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ في الأَرْضِ ﴾ [1] .

وصاروا يتتبعون المتشابه من القرآن فيتأولونه على غيـر تأويله ، من غيـر معـرفـة منهم بمعنـاه ، ولا رسـوخ في العلم ، ولا اتباع للسنة ، ولا مـراجعـة لجماعة المسلمين الذين يفهمون القرآن .

وأما مخالفة الشيعة لأهل البيت فكثيرة جداً قد بسطت في مواضع .

نشأة القدرية وأصل ضلالهم

ثم حدث في آخر عصر الصحابة « القدرية » فكانت الخوارج تتكلم في حكم الله الشرعي ، أمره ونهيه ، وما يتبع ذلك من وعـده ووعيده ، وحكم من وافق ذلـك ومن خالفـه ، ومن يكون مؤمـناً وكافـراً ، وهي مسائـل : الأسمـاء والأحكام .

وسموا محكِّمة لخوضهم في التحكيم بالباطل ، وكان الرجـل إذا قال : لا حكم إلا لله قالوا : هـو محكم أي خائض في حكم الله فخـاض أولئك في شرع الله بالباطل .

وأما القدرية فخاضوا في قدره بالباطل .

وأصل ضلالهم: ظنهم أن القدر يناقض الشرع فصاروا حـزبين ، حزبـاً يعظمون الشرع والأمر والنهي والـوعد والـوعيد ، واتبـاع ما يحبـه الله ويرضـاه وهجـر ما يبغضـه وما يسخـطه ، وظنوا أن هـذا لا يمكن أن يجمـع بينـه وبين

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٦ ـ ٢٧ .

القدر ، فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، كما قطعت الخوارج ما أمر الله به أن يوصل من اتفاق الكتاب والسنة وأهل الجماعة ففرقوا بين الكتاب والسنة ، وفرقوا بين الكتاب وجماعة المسلمين وفرقوا بين المسلمين فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل وكذلك القدرية ، فصاروا حزبين ، حزباً يغلب الشرع فيكذب بالقدر وينفيه ، أو ينفي بعضه .

وحزباً يغلب القدر فينفي الشرع في الباطن أو ينفي حقيقته ويقول : لا فرق بين ما أمر الله به وما نهى عنه في نفس الأمر الجميع سواء ، وكذلك أولياؤه وأعداؤه ، وكذلك ما ذكر أنه يحبه وذكر أنه يبغضه لكنه فرق بين المتماثلين بمحض المشيئة يأمر بهذا وينهي عن مثله ، فجحدوا الفرق والفصل الذي بين التوحيد والشرك ، وبين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية ، وبين الحلال والحرام ، كما أن أولئك وإن أقروا بالفرق فأنكروا الجمع ، وأنكروا أن يكون الله على كل شيء قدير ، ومنهم من أنكر أن يكون الله بكل شيء عليماً .

وأنكروا أن يكون خالقاً لكل شيء ، وأن يكون ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وأنكروا أن يكون الله فعّالاً لما يشاء .

وأثبتوا لغير الله الانفراد بالأحداث وشركاء خلقوا كخلقه كما فعلت المجوس . واعتقدوا أنه لا يمكن الإيمان بأمره ونهيه إلا مع تعجيزه أو تجهيله ، وأنه لا يمكن أن يوصف بالاحسان والكرم ، إن لم يجعل عاجزاً وإلا لزم أن يكون بخيلاً .

كما أن « القدرية »[1] « المجبرة » قالوا : لا يمكن أن يجعل عالماً قادراً إلا بتسفيهه وتجويره .

---

(١) تكلمنا عن القدرية في هذا الجزء في كلمة وافية وستأتي فيما بعد فليرجع اليها .

فهؤلاء نفوا حكمته وعدله ، وأولئك نفوا قدرته ومشيئته أو قدرته ومشيئته وعلمه ، وهؤلاء ضاهوا المجوس في الاشراك بربوبيته حيث جعلوا غيره خالقاً .

وأولئك ضاهوا المشركين الذين لا يفرقون بين عبادته وعبادة غيره ، بل يجوزون عبادة غيره كما يجوزون عبادته ، ويقولون : ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ (١) الآية . وهؤلاء منتهى توحيدهم توحيد المشركين وهو توحيد الربوبية (٢) ، فأما توحيد الالهية المتضمن للأمر والنهي ولكون الله يحب ما أمر به ويبغض ما نهى عنه فهم ينكرونه ، ولهذا هم أكثر اتباعاً لأهوائهم وأكثر شركا وتجويزاً من المعتزلة ، ومنتهى متكلميهم وعبادهم تجويز عبادة الأصنام ، وأن العارف لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ، كما ذكر ذلك صاحب منازل السائرين (٣) وأما عبادة الأصنام فباح بها متأخروهم كالرازي(٤)

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ .

(٢) توحيد الربوبية : الإقرار بأن الله خالق كل شيء ، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال ، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه ، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية ، وهذا التوحيد لم يذهب الى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم ، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات كما قالت الرسل عليهم السلام فيما حكى الله عنهم (قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض) سورة ابراهيم آية رقم ١٠ .

(٣) الكتاب يسمى « منازل السائرين الى الحق المبين » لشيخ الإسلام عبد الله بن إسماعيل الانصاري الهروي الصوفي (المتوفى سنة ٤٨١) وهو كتاب في أحوال السلوك : أوله الحمد لله الواحد القيوم الخ قال فيه : وجميع هذه المقامات يجمعها رتب ثلاث الأولى : أخذ المقاصد في السير ، الثانية : دخوله في الغربة ، الثالثة : حصوله على المشاهدة الجاذبة الى عين التوحيد ، ألفه حين سأله جماعة من الراغبين في الوقوف على منازل السائرين الى الحق المبين من أهل هراة فأجاب ورتب لهم فصولاً وأبواباً فجعله مائة مقام مقسومة على عشرة أقسام كل منها يحتوي على عشر مقامات . [راجع كشف الظنون ٢ : ١٨٢٨]

(٤) هو أحمد بن حمدان بن أحمد الورسامي الليثي أبو حاتم الرازي من زعماء الاسماعيلية وكتابهم ، له تصانيف منها « الاصلاح » و« اعلام النبوة » في مذهبهم . قال ابن حجر =

صنف فيها مصنفاً ، وابن عربي وابن سبعين وأمثالهما يصرحون بجواز عبادتها ، وبالانكار على من أنكر ذلك ، وهم متناقضون في ذلك . ف « القدرية » أصلهم أنه لا يمكن إثبات قدرته وحكمته ، إذ لو كان قادراً لفعل غير ما فعل فلما لم يفعله دل على أنه غير قادر .

وقالوا : يثبت حكمته كما يثبت حكمه ؛ لأن نفي ذلك يوجب السفه والظلم ، وهو منزه عنه بخلاف ما لم يقدر عليه ، فإنه معذور إذا لم يفعله فلا يلزم عليه .

وقالت المجبرة : بل قدرته ثابتة بلا حكمة ، ولا يجوز أن يفعل لحكمة لأن ذلك إنما يكون لمن يحتاج إلى الفعل وهو منزه عن الحاجة ، ولا عدل ولا ظلم ، بل كل ما أمكن فعله فهو عدل ، وليس في الأفعال ما هو حسن ينبغي الأمر به وقبيح ينبغي النهي عنه ، ولا معروف ومنكر ، بل يجوز أن يأمر بكل شيء ، وينهى عن كل شيء . ثم من حقق منهم أنكر الشرع بالكلية ، وأنكر النبوات ، مع أنه مضطر الى أن يأمر بشيء ، وينهى عن شيء ، فإن هذا لازم لجميع الخلق لا يجدون عنه محيصاً ، لكن من اتبع الأنبياء يأمر بما ينفعه وينفع غيره ، وينهى عما يضره ويضر غيره ، ومن خالف الأنبياء فلا بد أن يأمر بما يضر وينهى عما ينفع فيستحق عذاب الدنيا والآخرة ، وأما من كان منهم مقراً بالنبوة فأنكر الشرع في الباطن وقال العارف : لا يستحسن حسنة ، ولا يستقبح سيئة صار منافقاً يظهر خلاف ما يبطن ، ويقول الشرع لأجل المارستان ولهذا يسمون باطنية ، كما سموا الملاحدة باطنية ، فإن كلاهما يبطن خلاف ما يظهر ، يبطنون تعطيل ما جاء به الرسول من الأمر والنهي .

= العسقلاني : ذكره ابن بابويه في تاريخ الري وقال : كان من أهل الفضل والأدب والمعرفة باللغة ، وسمع الحديث كثيراً وله تصانيف ، ثم أظهر القول بالإلحاد وصار من دعاة الاسماعيلية وأضل جماعة من الأكابر . [راجع لسان الميزان ١ : ١٩٤ وحسين فهمي الهمداني من محاضرة ألقاها بالقدس في ١٩٣١/١١/٢٩ ونشرت في مجلة الجمعية الأسيوية الملكية بلندن] .

فمنتهى الجهمية المجبرة إما مشركون ظاهراً وباطناً ، وإما منافقون يبطنون الشرك ـ ولهذا يظنون بالله ظن السوء ، وأنه لا ينصر محمداً وأتباعه ، كما قال تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ والْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانين بالله ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ ، وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ [١] .

وهم يتعلقون بقوله ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ [٢] وبأنه : ﴿ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [٣] .

ولذلك لما ظهر المشركون التتار [٤] وأهل الكتاب كثر في عبادهم وعلمائهم من صار مع المشركين وأهل الكتاب ، وارتد عن الاسلام إما باطناً

---

(١) سورة الفتح آية رقم ٦ .
وقد جمعت هذه الآية بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في صفة ظن السوء بالله ، وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين ، وفي أنهم جميعاً (عليهم دائرة السوء) فهم محصورون فيها ، وهي تدور عليهم وتقع بهم وفي غضب الله عليهم ولعنته لهم ، وفيما أعده لهم من سوء المصير ذلك أن النفاق صفة مرذولة لا تقل عن الشرك سوءاً بل إنها أحط ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والمشركات وإن اختلف هذا الأذى وذاك في مظهره ونوعه . وقد جمع الله في الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع وبين حالهم عنده ، وما أعده لهم في النهاية ثم عقب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته ﴿ **ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٣ وتكملتها ﴿ **وهم يسألون** ﴾

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٤٠ وصدر الآية ﴿ **قال كذلك الله** ﴾

(٤) التتار أو التتر : هي أمة من الجنس الأصفر بلادها ممتدة من الجنوب الشرقي للمملكة الروسية الى غربها وهي شعوب متميزة منهم الياقوتية ، والجيرجيزية ، والساموية ، والترك العثمانيون وبعضهم يعد المغوليين منهم ، وليس الأمر كذلك وإن كان بينهم قرابة واضحة والتتر (الآن) دينهم الإسلام إلا قليل منهم وهم (الياقوتية) بقوا وثنيين وقد قدر بعض الخبيرين تعداد التتر بثلاثين مليون نسمة وهم الآن تحت سلطة الأمة الروسية التي كانت تحت سلطتهم فسبحان الله تعالى في قوله ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾

وظاهراً ، وإما باطناً .

وقال : إنه مع الحقيقة ، ومع المشيئة الالهية ، وصاروا يحتجون لمن هو معظم للرسل عما لا يوافق على تكذيبه بأن ما يفعله من الشرك والخروج عن الشريعة وموالاة المشركين وأهل الكتاب والدخول في دينهم ومجاهدة المسلمين معهم هو بأمر الرسول فتارة تأتيهم شياطينهم بما يخيلون لهم أنه مكتوب من نور وأن الرسول أمر بقتال المسلمين مع الكفار لكون المسلمين قد عصوا ولما ظهر أن مع المشركبن وأهل الكتاب خفراء لهم من الرجال المسلمين برجال الغيب ، وأن لهم خوارق تقتضي أنهم أولياء الله صار الناس من أهل العلم ثلاثة أحزاب .

حزب يكذبون بوجود هؤلاء ، ولكن عاينهم الناس ، وثبت ذلك عمن عاينهم، أو حدثه الثقات بما رأوه وهؤلاء إذا رأوهم أو تيقنوا وجودهم خضعوا لهم .

وحزب عرفوا ورجعوا الى القدر ، واعتقدوا أن ثم في الباطن طريقاً الى الله غير طريقة الأنبياء .

وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا أولياء الله خارجين عن دائرة الرسول فقالوا : يكون الرسول هو ممداً للطائفتين لهؤلاء وهؤلاء فهؤلاء معظمون للرسول ، جاهلون بدينه وشرعه ، والذين قبلهم يجوزون اتباع دين غير دينه وطريق غير طريقه .

وكانت هذه الأقوال الثلاثة بدمشق لما فتحت عكة ، ثم تبين بعد ذلك أن هؤلاء من أتباع الشياطين ، وأن رجال الغيب هم الجن وأن الذين مع الكفار شياطين ، وأن من وافقهم من الإنس فهو من جنسهم شيطان من شياطين الانس أعداء الأنبياء كما قال تعالى ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً**

شَيَاطِينَ الإنْسِ وَالجِنِّ يُوْحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوْرا ﴾ [١] .

وكان سبب الضلال عدم الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وأصله قول الجهمية الذين يسوون بين المخلوقات فلا يفرقون بين المحبوب والمسخوط ، ثم إنه بعد ذلك جرت أمور يطول وصفها .

« ارتدت اليونسية في زمن قازان »

ولما جاء قازان وقد أسلم دمشق انكشفت أمور أخرى فظهر أن اليونسية [٢] كانوا قد ارتدوا وصاروا كفاراً مع الكفار . وحضر عندي بعض

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١٢ .
في صحيح السنة : قوله عليه السلام : ما منكم من أحد إلا وقد وكّل به قرينه من الجن » قيل : ولا أنت يا رسول الله . قال : ولا أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير » روي برفع الميم ونصبها فالرفع على معنى فأسلم من شره ، والنصب على معنى فأسلم هو . فقال « ما منكم من أحد » ولم يقل ولا من الشياطين إلا أنه يحتمل أن يكون نبه على أحد الجنسين بالآخر فيكون من باب « سرابيل تقيكم الحر » وفيه بُعْدٌ والله أعلم . وروى عوف بن مالك عن أبي ذرّ قال قال رسول الله ـ ﷺ : يا أبا ذر هل تعوذت من شر شياطين الإنس والجن . . ؟قال قلت : يا رسول الله ، وهل للإنس من شياطين . . ؟
قال : نعم هم شر من شياطين الجن . » وقال مالك بن دينار : إن شيطان الإنس أشد عليّ من شيطان الجن ، وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن ، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني الى المعاصي عياناً وسمع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه امرأة تنشد :

إن النساء رياحين خلقن لنا ... وكلكم يشتهي شم الرياحين

فأجابها عمر ـ رضي الله عنه .

إن النساء شياطين خلقن لنا ... نعوذ بالله من شر الشياطين

(٢) اليونسية : هؤلاء أتباع يونس بن عبد الرحمن القمي ، وكان في الإمامية على مذهب القطعية الذين قطعوا بموت موسى بن جعفر ، وأفرط يونس هذا في باب التشبيه ، فزعم الله عز وجل يحمله حملة عرشه ، وهو أقوى منهم كما أن الكركي يحمله رجلاه وهو أقوى من رجليه (الكركي : طائر قريب من الوز أبتر الذنب رمادي اللون ، دقيق الرجلين طويلهما ، يأوي الى =

شيوخهم واعترف بالردة عن الاسلام وحدثني بفصول كثيرة ، فقلت له لما ذكر لي احتجاجهم بما جاءهم من أمر الرسول : فهب أن المسلمين كأهل بغداد كانوا قد عصوا ، وكان في بغداد بضعة عشر بغيّ ، فالحبش الكفار المشركون الذين جاءوا كانوا شراً من هؤلاء فإن هؤلاء كن يزنين اختياراً ، فأخذ أولئك المشركون عشرات الألوف من حرائر المسلمين وسراريهم بغير اختيارهم وردوهم عن الإسلام إلى الكفر ، وأظهروا الشرك وعبادة الأصنام ، ودين النصارى وتعظيم الصليب ، حتى بقي المسلمون مقهورين مع المشركين وأهل الكتاب مع تضاعيف ما كان بفعل من المعاصي ، فهل يأمر محمد ﷺ بهذا ويرضى بهذا ؟ ! .

فتبين له ، وقال : لا والله ، وأخبرني عن ردة من ارتد من الشيوخ عن الإسلام لما كانت شياطين المشركين تكرههم على الردة في الباطن ، وتعذبهم إن لم يرتدوا . فقلت : كان هذا الضعف إيمانهم ، وتوحيدهم والمادة التي يشهدونها من جهة الرسول ، وإلا فالشياطين لا سلطان لهم على قلوب الموحدين [1] ، وهذا وأمثاله ما كانوا يعتقدون أنهم شياطين ، بل إنهم رجال من رجال الغيب الإنس ، وكلهم الله بتصريف الأمر . فبينت لهم أن رجال-

---

= الماء أحياناً وجمعه كراكي) واستدل على أنه محمول بقوله ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾ سورة الحاقة آية رقم ١٧ ، يقول البغدادي : وقال أصحابنا : الآية دالة على أن العرش هو المحمول دون الرب تعالى [راجع الفرق بين الفرق ص ٧٠ ومقالات الإسلاميين ١ : ١٠٦ والتبصر ٢٤] .

(١) قال تعالى : ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين** ﴾ . سورة الحجر آية رقم ٤٢ .

وقال تعالى : ﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ سورة النحل آية رقم ٩٩

وقال تعالى : ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان، وكفى بربك وكيلا** ﴾ سورة الإسراء آية رقم ٦٥ .

الغيب هم الجن كما قال تعالى : ﴿ **وأنَّـهُ كَـانَ رِجـالٌ مِنَ الإنْسِ يَعُـوذُونَ بِرِجالٍ من الجِنِّ فَزَادُوْهُمْ رَهَقاً** ﴾ (١) .

ومن ظن أنهم إنس فمن جـهله وغـلطه ، فـإن الإنس يؤنـســون ، أي يشهدون ويرون إنما يحتجب الإنسي أحيانـاً لا يكون دائم محتجباً عن أبصار الإنس بخلاف الجن ، فإنهم كما قال الله : ﴿ **إنَّـهُ يَرَاكُمْ هُـوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ** ﴾ (٢) .

وكان غير هذا من المشايخ من يذكـر عن الشيخ محمـد بن السكران أن « هـولاكو » ملك المشـركين لما دخـل بغداد رأى ابن السكـران شيخاً محلوق الرأس على صورة شيخ من مشايخ الدين والطريق آخذاً بفـرس هولاكـو قال : فلما رأيته أنكـرت هذا واستعـظمت أن يكون شيـخ من شيوخ المسلمين يقـود فرس ملك المشركين لقتل المسلمين فقلت : يا هـذا أو كلمة نحـو هذا فقال : تــأمر بأمر أو قال له : هل يفعل هـذا بأمـر ، أو فعلت هذا بـأمر ؟ فقلت : نعم بأمر ، فسكت ابن السكـران وأقنعه هـذا الجواب ، وكـان هذا لقلة علمـه

---

(١) سورة الجن آية رقم ٦ .

(٢) سـورة الأعراف آيـة رقم ٢٧ قال بعض العلمـاء : في هذا دليـل على أن الجن لا يرون لقـوله ﴿ **من حيث لا ترونهم** ﴾ وقيل جائزٌ أن يـروا لأن الله تعالى إذا أراد أن يـريهم كشف أجسامهم حتى تُرى . قال النحاس « من حيث لا ترونهم » يدل على أن الجن لا يرون إلا في وقت نبي ليكون ذلك دلالة على نبوته، لأن الله جل وعز خلقهم خلقاً لا يرون فيه ، وإنما يرون إذا نقلوا عن صـورهم ، وذلك من المعجـزات التي لا تكون إلا في وقت الأنبيـاء صلوات الله عليهم . قال القشيري : أجرى الله العادة بأن بني آدم لا يرون الشياطين اليوم . وفي الخبر إن الشيطان يجري من ابن ادم مجرى الدم » وقال تعالى : ﴿ **الذي يوسوس في صدور الناس** ﴾ وقال عليه السلام : إن للملك لمة وللشيطان لمة أي بالقلب فأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق ، وأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق » .

وقد جاء في رؤ يتهم أخبار صحيحة ، وقد خرج البخـاري عن أبي هريـرة قال : وكلني رسـول الله ـ ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، وذكـر قصة طـويلة ذكر فيهـا أنه أخـذ الجني الذي كـان يأخـذ التمر ، وأن النبي ـ ﷺ قال له : ما فعل أسيرك البارحة . . ؟ » .

بالفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وظن أن ما يؤمر به الشيوخ في قلوبهم هو من الله ، وأن من قال : حدثني قلبي عن ربي ، فإن الله هو يناجيه ، ومن قال : أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت هو كذلك . وهذا أضل ممن ادعى الاستغناء عن الأنبياء ، وأنه لا يحتاج إلى واسطتهم .

وجواب هذا أن يقال له : بأمر من تأمر ؟ فإن قال : بأمر الله ؟

قيل : بأمر الله الذي بعث به رسوله ، وأنزل به القرآن أم بأمر وقع في قلبك ؟

فإن قال : بالأول ظهر كذبه فإنه ليس فيما يأمر الله به ورسوله أن يأتي بالكفار المشركين وأهل الكتاب لقتل المسلمين وسبيهم وأخذ أموالهم لأجل ذنوب فعلوها ويجعل الدار تعبد بها الأوثان ، ويضرب فيها بالنواقيس ويقتل قراء القرآن وأهل العلم بالشرع ، ويعظم النجسية علماء المشركين وقساوسة النصارى وأمثال ذلك : فإن هؤلاء أعظم عداوة لمحمد ﷺ وهم من جنس مشركي العرب الذين قاتلوه يوم أحد وأولئك عصاة من عصاة أمته ، وإن كان فيهم منافقون كثيرون ، فالمنافقون يبطنون نفاقهم .

وإن قال : بأمر وقع في قلبي لم يكذب ، لكن يقال : من أين لك أن هذا رحماني ؟ ولم لا يكون الشيطان هو الذي أمرك بهذا ؟ وقد علمت أن ما يقع من قلوب المشركين وأهل الكتاب هو من الشيطان .

فإن رجع الى توحيد الربوبية ، وأن الجميع بمشيئته قيل له : فحينئذ يكون ما يفعله الشيطان والمشركون وأهل الكتاب فهو بالأمر . ولا ريب أنه بالأمر الكوني القدري ، فجميع الخلق داخلون تحته ، لكن من فعل بمجرد هذا الأمر لا بأمر الرسول ، فإنما يكون من جنس شياطين الإنس والجن . وهو مستوجب لعذاب الله في الدنيا والآخرة ، وهو عابد لغير الله ، متبع لهواه ،

وهـو ممـن قـال الله فيـه : ﴿ لأَمْـلأَنَّ جَـهَنَّـم مِنْـكَ وَمِمَّـن تَـبِـعَـكَ مِـنْهُـمْ أَجْمَعِيْنَ ﴾ [1] .

وممن قال فيهم الشيطان :

﴿ فَبِعِـزَّتِـكَ لأَغْـوِينَّهُمْ أَجْمَعِينَ إلاَّ عِبَـادكَ مِنْهُمُ المُخْلصِينَ ﴾ [2] قـال الله : ﴿ إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ ﴾ [3] .

وقـال تعـالى ﴿ إنَّـهُ لَيْسَ لَـهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّـذِينَ آمَنُـوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوكَّلُونَ . إنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتولَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [4] .

وقـال تعالى ﴿ إنَّـا جَعَلْنَا الشَّيَـاطِينَ أَوْلِيَـاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ وَإذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا والله أَمَرَنَـا بِهَا قُـلْ إنَّ الله لا يَـأْمُـرُ بِـالفَحْشَـاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُوْنَ ﴾ [5] فكيف تأمر بالشرك والكفـر وتسلط الكفار من المشركين وأهل الكتاب على المسلمين وقتل الكفار للمسلمين هذا لا يأمر الله به كما لا يأمر بالفحشاء فإن هذا من أفحش الفواحش إذا جعلت الفاحشة اسماً لكل ما يعظم قبحه ، فكانت جميع القبائح السيئة داخلة في الفحشاء .

وكان أيضاً بالشام بعض أكابر الشيـوخ ببعلبك [6] ـ الشيـخ عثمان شيـخ

---

(1) سورة ص آية رقم ٨٥ .

(2) سورة ص آية رقم ٨٢ ـ ٨٣ .

(3) سورة الحجر آية رقم ٤٢ .

(4) سورة النحل آية رقم ٩٩ ـ ١٠٠ .

(5) سورة الأعراف آية رقم ٢٧ ـ ٢٨ .

(6) بعلبك : بالفتح ثم السكون ، وفتح اللام ، والباء الموحدة ، والكاف مشددة مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة ، وآثار عظيمة ، وقصور على أساطين الرخـام لا نظيـر لها في الـدنيا ، بينهـا وبين دمشق ثلاثة أيام وقيل إثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل .
وقيل إن بعلبك كان مهر بلقيس ، وبها قصر سليمان بن داود ، عليه السـلام وبها قبـر يزعمـون أنه قبر مـالك بن الأشتـر النخعي ، وليس بصحيح ، فـإن الاشتر مـات بالقلزم في طـريقه الى =

دير ناعس [1] ـ يأتيه خفير الفرنج النصارى راكباً أسداً ويخلو به ويناجيه ، ويقول : يا شيخ عثمان وكلت بحفظ خنازيرهم فيعذره عثمان وأتباعه من ذلك ويرون أن الله أمره بهذا كما أمر الخضر أن يفعل ما فعل كما عذر ابن السكران وأمثاله خفراء المشركين التتار والجواب لهذا كالجواب لذلك ، يقال له : وكلك الله تعالى بهذا ؟ .

الذي أنزل على لسان نبيه الدين أمر أن يوالى المسلمين وأن لا يتخذ اليهود والنصارى أولياء ، بل أمرك أن تبغضهم وتجاهدهم بما استطعت ، هو أمرك أن تتوكل بحفظ خنازيرهم ؟ !

فان قال : هذا ظهر كذبه .

وإن قال : بل هو أمر ألقي في قلبي لم يكذب ، وقيل له : فهذا من أمر الشيطان ، لا من أمر الرحمن الذي أنزل به كتبه ، وأرسل به رسله ، ولكنه من الأمر الذي كونه وقدره كشرك المشركين الذين قالوا : ﴿ **لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا** ﴾ [2] ومن هؤلاء من يظن الرجال الذين يؤيدهم الكفار من

= مصر ، وكان علي ـ رضي الله عنه وجهه أميراً فيقال إن معاوية دس له عسلاً مسموماً فأكله فمات بالقلزم فقال معاوية : إن لله جنوداً من غسل ، فيقالُ إنه نقل الى المدينة فدفن بها وقبره بالمدينة معروف ، وبها قبر الياس النبي عليه السلام وبقلعتها مقام ابراهيم الخليل عليه السلام ، وبها قبر أسباط .

ولما فرغ أبو عبيدة بن الجراح من فتح دمشق في سنة أربع عشرة سار الى حمص فمرَّ ببعلبك فطلب اهلها اليه الأمان والصلح ، فصالحهم على أن أمنهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم كتاباً أجلهم فيه الى شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى ، فمن جلا سار الى حيث شاء ومن أقام فعليه الجزية وقد نسب الى بعلبك جماعة من أهل العلم منهم : محمد بن علي ابن الحسين بن محمد بن أبي المضاء أبو المضاء البعلبكي المعروف بالشيخ الدين . [راجع معجم البلدان ١ : ٤٥٣ ـ ٤٥٤]

(١) العجيب أن هذا الدير لم يذكره صاحب معجم البلدان ولم نتعرف عليه على كثرة البحث والتقصي . والله أعلم .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ .

المشـــركين وأهـل الكتـــاب هم أوليـاء الله ولا يجب عليهم اتبـــاع الـرســـول كالملائكة الموكلة ببني آدم المعقبات (١) .

فقلت لشيخ كـان من شيـوخهم : محمـد أرســل الى الثقلين ـ الإنس والجن ـ ولم يرسل إلى الملائكة فكل إنسي أو جني خرج عن الإيمان به فهـو عدو لله لا وليّ لله ، بخلاف الملائكة .

ثم يقال له : الملائكة لا يعاونون الكفار على المعاصي ، ولا على قتـال المسلمين ، وإنما يعاونوهم على ذلك الشيـاطين ، ولكن الملائكـة قد تكـون موكلة بخلقهم ، ورزقهم وكتابة أعمالهم ، فإن ذلك ليس بمعصية .

فهذا الجواب بالفرق بينهم وبين الملائكة من هذين الوجهين .

وقـد ظهر أنهم من جنس الشيـاطين لا من جنس المـلائكـة وكـان هـذا الشيخ هو وأبوه من خفراء الكفار ، وكان والده يقال لـه : محمد الخـالدي ، نسبة الى شيطان كان يقربه يقال له : الشيخ خـالد . وهم يقـولون لـه انه من الإنس من رجال الغيب .

وحدثني الثقة عنه أنه كـان يقول : الأنبيـاء ضيعوا الـطريق ، ولعمري : لقد ضيعوا طريق الشياطين ، شياطين الإنس والجن ، وهؤلاء المشايـخ الذين يحبون المسلمين ، ولكن يوالـون الشيوخ الـذين يوالـون المشركين الـذين هم خفـراء الكفـار ، ويـظنـون أنهم من أوليـــاء الله اشتـركـــوا هم وهم في أصـل ضلالة ، وهو : أنهم جعلوا الخوارق الشيطانية من جنس الكرامات الرحمانيـة

---

(١) قال تعالى في سورة الرعد ﴿ **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** ﴾ . والتعقيب العـود بعد البـدء ، قال الله تعـالى : ﴿ **ولى مدبـراً ولم يعقب** ﴾ أي لم يـرجـع وفي الحديث (**معقبات لا يخيب قائلهن**) أو فاعلهن فذكر التسبيـح والتحميد والتكبيـر . قال أبـو الهيثم ، سمين معقبات لأنهن عادت مرة بعد مرة فِعْل من عمل عملاً ثم عاد اليه فقـد عقب ، والمعقبات من الإبل اللواتي يقمن عنـد اعجاز الابـل المعتركـات على الحوض فـإذا انصرفت ناقة دخلت مكانها أخرى .

ولم يفرقوا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان كما قال تعالى ﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** ﴾ (١) فهؤلاء وهؤلاء عشوا عن ذكر الرحمن الذي أنزله وهو الكتاب والسنة ، وعن الروح الذي أوحاه الله الى نبيه الذي جعله الله نوراً يهدي به من يشاء من عباده ، وبه يحصل الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ولم يفرقوا بين آيات الأنبياء ومعجزاتهم وبين خوارق (٢) السحرة والكهان ، إذ هذا مذهب الجهمية المجبرة وهؤلاء كلهم

---

(١) سورة الزخرف آية رقم ٣٦ هذه الآية تتصل بقول الله تعالى أول السورة : ﴿ **أفنضرب عنكم الذكر صفحاً** ﴾ أي نواصل لكم الذكر فمَن يَعْشُ عن ذلك الذكر بالإعراض عنه الى أقاويل المضلين وأباطيلهم ﴿ **نقيض له شيطاناً** ﴾ أي نسبب له شيطاناً جزاء له على كفره ﴿ **فهو له قرين** ﴾ قيل في الدنيا ، يمنعه من الحلال ويبعثه على الحرام وينهاه عن الطاعة ، ويأمره بالمعصية ، وهو معنى قول ابن عباس وقيل في الآخرة إذا قام من قبره قاله سعيد الجُريْري وفي الخبر : أن الكافر إذا خرج من قبره يشفع بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار وأن المؤمن يشفع بملك حتى يقضي الله بمن خلقه . ذكره المهدوي . والله أعلم .

(٢) الخارق في عرف العلماء هو الأمر الذي يخرق بسبب ظهوره العادة وهو على الصحيح ينقسم باعتبار ظهوره الى ستة أقسام ، لأن الخارق أما أن يظهر عن المسلم أو الكافر ، والأول إما أن لا يكون مقروناً بكمال العرفان وهو المعونة أو يكون وحينئذ إما مقرون بدعوى النبوة وهو المعجزة أولا ، وحينئذ لا يخلو إما أن يكون ظاهراً من النبي قبل دعواه وهو الإرهاص أولا وهو الكرامة .

والثاني أعني الظاهر على يد الكافر إما أن يكون موافقاً لدعواه وهو الاستدراج أولا وهو الإهانة .

ومنهم من ربع القسمة وأدخل الإرهاص في الكرامة فإن مرتبة الأنبياء لا تكون أدنى من مرتبة الأولياء ، وأدخل الاستدراج في الإهانة فإن معنى الاستدراج هو أن يقربه الشيطان الى فساد على التدريج حتى يفعله. سواء وافق ذلك غرض مرتكبه أو لم يوافق وعاقبة ذلك حسرة وندامة فقد آل الأمر الى الاهانة .

وللاستدراج أسماء كثيرة في القرآن أحدها الاستدراج قال تعالى : ﴿ **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون** ﴾ الأعراف آية رقم ١٨٢ وثانيهما المكر : قال تعالى : ﴿ **ومكروا ومكر الله** ﴾ آل عمران آية ٥٤ .

وثالثهما الكيد : قال تعالى : ﴿ **إن كيدي متين** ﴾ الأعراف آية ١٨٣ . =

يشتركون في هذا المذهب فلا يجعلون الله يحب ما أمر به ، ويبغض ما نهى عنه ، بل يجعلون كل ما قدره وقضاه فإنه يحبه ويرضاه ، فبقي جميع الأمور عندهم سواء وإنما يتميز بنوع من الخوارق ، فمن كان له خارق جعلوه من أولياء الله، وخضعوا له إما اتباعاً له ، وإما موافقة له ومحبة ، وإما أن يسلموا له حاله فلا يحبوه ولا يبغضوه إذ كانت قلوبهم لم يبق فيها من الايمان ما يعرفون به المعروف ، وينكرون به المنكر في هذا الموضع .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (١) .

وفي رواية لمسلم « من جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل ، وميت الأحياء الذي لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً .

= ورابعها الخدع: قال تعالى : ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ النساء ١٤٢
وخامسها الاملاء : قال تعالى : ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ آل عمران ١٧٨ .
سادسها الاهلاك قال تعالى : ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ﴾ سورة الأنعام آية رقم ٤٤ .

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الايمان ٢٠ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ، وأن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ٧٨ بسنده عن طارق بن شهاب قال : أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان. فقام إليه رجل . فقال الصلاة قبل الخطبة فقال : قد ترك ما هنالك . فقال أبو سعيد ، أما هذا فقد قضى ما عليه : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : وذكره .
وأخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة (١٥٥) باب ما جاء في صلاة العيدين ١٢٧٥ بسنده عن طارق بن شهاب عن أبي سعيد وذكره . وأخرجه أبو داود في الملاحم ١٧ ، والنسائي في الإيمان ١٧ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٢٠ ، ٤٩ ، ٥٣ (حلبي) .

وفي حديث حذيفة الذي في صحيح مسلم [1] : « ان الفتنة تعرض على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، وأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، حتى تبقى القلوب على قلبين :

قلب أبيض مثل الصفا لا يضره فتنة ما دامت السماء والأرض وقلب أسود مرباد[2] كالكوز مُجخياً [3] لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه .

فهؤلاء العباد الزهاد الذين عبدوا الله بآرائهم وذوقهم ووجدهم لا بالأمر والنهي منتهاهم اتباع أهوائهم . ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ

---

(١) الحديث عند الامام مسلم في كتاب الإيمان ٦٥ باب بيان أن الاسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً ، وإنه يأرز بين المسجدين (٢٣١) بسنده عن حذيفة . قال : كنا عند عمر . فقال أيكم سمع رسول الله - ﷺ - يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه . فقال : لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره ؟ قالوا : أجل . قال : تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن أيكم سمع النبي -ﷺ . يذكر الفتن التي تموج موج البحر . قال حذيفة : فأسكت القوم . فقلتُ أنا . قال أنت لله أبوك . قال حذيفة سمعت رسول الله ﷺ - يقول . وذكره .
وعند الامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٣٨٦ ثنا يزيد بن هارون ، ثنا أبو مالك عن ربعي ابن خراش عن حذيفة وذكره .

(٢) مرباداً قال الإمام النووي - رضي الله تعالى عنه : كذا هو في أصول روايتنا ، وأصول بلادنا ، وهو منصوب على الحال ، وذكر القاضي عياض خلافاً في ضبطه ، وإن منهم من ضبطه كما ذكر ، ومنه من رواه مربئد . قال القاضي وهذه رواية أكثر شيوخنا ، وأصله أن لا يهمز ، ويكون مربد مثل مسود ومحمر ، وكذا ذكره أبو عبيد والهروي وصححه بعض شيوخنا عن أبي مروان بن سراج لأنه من اربد إلا على لغة من قال : احمأر بهمزة بعد ميم لالتقاء الساكنين فيقال : اربأد ومربئد . والدال مشددة على القولين .

(٣) مجخياً : معناه مائلاً . كذا قاله الهروي وغيره ، وفسره الراوي في الكتاب بقوله : منكوساً . وهو قريب من معنى المائل . قال القاضي عياض : قال لي ابن سراج ، ليس قوله : كالكوز مجخياً » تشبيهاً لما تقدم من سواده بل هو وصف آخر من أوصافه ، بأنه قلب ونُكِس حتى لا يعلق به خيراً ولا حكمة ، ومثله بالكوز المجخى ، وبينه بقوله ﴿ لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ﴾ .

الله ﴾[1] لا سيما إذا كانت حقيقتهم هي قول « الجهمية المجبرة » فرأوا أن جميع الكائنات اشتركت في المشيئة ولم يميزوا بعضها عن بعض بأن الله يحب هذا ويرضاه ، وهذا يبغضه ويسخطه ، فإن الله يحب المعروف ويبغض المنكر فإذا لم يفرقوا بين هذا وهذا نكت في قلوبهم نكت سود فسود قلوبهم ، فيكون المعروف ما يهوونه ويحبونه ، ويجدونه ويذوقونه ، ويكون المنكر ما يهوون بغضه وتنفر عنه قلوبهم كالمشركين الذين كانوا « عن التذكرة معرضين ، ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرة فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾[2] ولهذا يوجد في هؤلاء وأتباعهم من ينفرون عن القرآن والشرع كما تنفر الحمر المستنفرة التي تفر من الرماة ومن الأسد ولهذا يوصفون بأنهم إذا قيل لهم قال المصطفى نفروا

وكان الشيخ ابراهيم بن معضاد يقول لمن رآه من هؤلاء كاليونسية والأحمدية : يا خنازير يا أبناء الخنازير ، ما أرى لله ورسوله عندكم رائحة

---

(١) سورة القصص آية رقم ٥٠ .

(٢) سورة المدثر آية رقم ٥٠ - ٥١ .

ويقول الإمام الشوكاني : المستنفرة الشديدة النفار كأنها تطلب النفار من نفوسها في جمعها له وحملها عليه ، والقسورة : الرماة ، والقسور الرامي ، وجمعه قسورة ، قاله سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد ، وقتادة وابن كيسان ، وقيل : هو الأسد قاله عطاء والكلبي . قال ابن عرفه: من القسر بمعنى القهر ، لأنه يقهر السباع ، وقيل : القسورة أصوات الناس ، وقيل القسورة بلسان العرب الأسد ، وبلسان الحبشة الرماة ، وقال ابن الأعرابي : القسورة أول الليل : أي فرت من ظلمة الليل ، وبه قال عكرمة والأول أولى ، وكل شديد عند العرب فهو قسورة ، ومنه قول الشاعر :

يا بنت كوني خيرة لخيره ... أخوالها الحي وأهل القسورة

ومنه قول لبيد :

إذا ما هتفنا هتفة في ندينا ... أتانا الرجال العابدون القساور

ومن إطلاقه على الأسد قول الشاعر :

مضمر تحذره الأبطال ... كأنه القسور الرهال

[راجع التفسير للشوكاني ٥ : ٣٣٣]

﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ كل منهم يريد أن يحدثه قلبه عن ربه فيأخذ عن الله بلا واسطة الرسول ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ، اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (١) .

وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن قول القدرية الجهمية المجبرة أعظم مناقضة لما جاءت به الرسل من قول النفاة ولهذا لم يكن هؤلاء مظهرين لهذا في زمن السلف بل كلما ضعف نور النبوة أظهروا حقيقة قولهم فإنه من جنس قول المشركين المكذبين للرسل ، ومنتهاهم الشرك وتكذيب الرسل ، وهذا جماع الكفر ، كما أن التوحيد وتصديق الرسل جماع الإيمان ، ولهذا صاروا مع أهل الكفر المحض من المشركين ، وأهل الكتاب ، وبسط هذه الأمور له موضع آخر .

والمقصود هنا أن القدرية المجبرة من جنس المشركين كما أن « النافية » من جنس المجوس (٢) ، وإن المجبرة ما عندهم سوى القدرة والمشيئة في نفس الأمر ، والنافية تنفي القدرة العامة ، والمشيئة التامة وتزعم إنها تثبت الحكمة والعدل ، وفي الحقيقة كلاهما ناف للحكمة والعدل والمشيئة والقدرة ، كما قد بسط في مواضع وأولئك يتعلقون بقوله ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ (٣) و﴿ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢٤ .

(٢) هم عبدة النيران القائلين أن للعالم أصلين نور وظلمة ، قال قتادة : الأديان خمسة ، أربعة للشيطان ، وواحد للرحمن ، وقيل المجوس في الأصل النجوس . لتدينهم باستعمال النجاسات ، والميم والنون يتعاقبان كالغيم والغين ، والأيم والأين . [راجع القرطبي ١٢ : ٢٣]

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٢٣ وعجز الآية ﴿ وهم يسألون ﴾

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٤٠ وقد جاءت هذه الآية محرفة في المطبوعة حيث ذكرت بزيادة (الواو) والله .

وهذا ذكره الله إثباتا لقدرته لا نفياً لحكمته وعدله بل بين سبحانه انه يفعل ما يشاء فلا أحد يمكنه أن يعارضه إذا شاء شيئاً ، بل هو قادر على فعل ما يشاء ، بخلاف المخلوق الذي يشاء أشياء كثيرة ولا يمكنه أن يفعلها ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح « لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت . فإن الله لا مكره له ولكن ليعزم المسألة [1] ، وذلك أنه إنما يقال افعل كذا إن شئت لمن قد يفعله مكرها فيفعل ما لا يريد لدفع ضرر الإكراه عنه والله تعالى لا مكره له فلا يفعل إلا ما يشاء . فقوله تعالى ﴿ **إن الله يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [2] و ﴿ **يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** ﴾ [3] ونحو ذلك هو لاثبات قدرته على ما يشاء وهذا رد لقول القدرية النفاة الذين يقولون إنه لم يشأ كل ما كان بل لا يشاء إلا الطاعة ومع هذا فقد شاءها ولم يكن ممن عصاه وليس هو قادراً عندهم على أن يجعل العبد لا مطيعاً ولا عاصياً .

فهذه الآيات التي تحتج بها المجبرة تدل على فساد مذهب النفاة ، كما أن الآيات التي يحتج بها النفاة التي تدل على أنه حكم عادل ، لا يظلم مثقال ذرة ، وانه لم يخلق الخلق عبثاً ، ونحو ذلك ، تدل على فساد قول

---

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٣ باب العزم في الدعاء ولا يقل إن شئت (٩) عن عطاء بن ميناء عن أبي هريرة قال : قال النبي ـ ﷺ ـ وذكره .

وأخرجه البخاري في كتاب التوحيد ٣١ باب في المشيئة والإرادة (٧٤٦٤) حدثنا مسدد ، حدثنا عبد الوارث عن عبد العزيز عن أنس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره . وأخرجه الترمذي في كتاب الدعوات ٧٧ وصاحب الموطأ في كتاب القرآن ٢٨ ـ عن مالك عن أبي الزناد ، عن الأعرج . عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٤٣ (حلبي)

(٢) سورة الحج آية رقم ١٨

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٤

المجبرة [1]، وليس في هذه الآيات ولا هذه ما يدل على صحة قول واحدة من الطائفتين ، بل ما تحتج به كل طائفة يدل على فساد مذهب الأخرى ، وكلا القولين باطل ، وهذا هو الذي نهى عنه النبي ﷺ في الحديث الذي في المسند وغيره وبعضه في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه خرج على أصحابه وهم يتمارون في القدر . هذا يقول : ألم يقل الله كذا ؟ وهذا يقول: ألم يقل الله كذا فكأنما فقىء في وجهه حب الرمان فقال : « أبهذا أمرتم ؟ أم إلى هذا دعيتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ؟ » [2] ولهذا قال أحمد في بعض مناظرته لمن صار يضرب الآيات بعضها ببعض : إنا قد نهينا عن هذا .

فمن دفع نصوصاً يحتج بها غيره لم يؤمن بها بل آمن بما يحتج صار ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض وهذا حال أهل الأهواء هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مخالفة الكتاب وقد تركوا كلهم بعض النصوص وهو ما يجمع تلك الأقوال ، فصاروا كما قال عن أهل الكتاب

---

(١) سبق التعريف بهم وعرض بعض آرائهم والرد عليها في هذا الجزء .

(٢) الحديث عند الترمذي ٣٣ كتاب القدر باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر ٢١٣٣ - حدثنا عبد الله بن معاوية الجمحي البصري حدثنا صالح المري عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : وذكره .

قال أبو عيسى : وفي الباب عن عمر، وعائشة ، وأنس . وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المري ، وصالح المري له غرايب ينفرد بها لا يتابع عليها .

وعند الامام أحمد في المسند ٢ : ١٧٨ بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله - ﷺ - وذكره وأخرجه ابن ماجه في المقدمة (١٠) باب في القدر ٨٥ بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده ، قال : خرج رسول الله - ﷺ - على أصحابه وذكره . وفيه .

قال : فقال عبد الله بن عمرو : ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله - ﷺ - ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه .

في الزوائد : هذا إسناد صحيح . ورجاله ثقات .

﴿ وَمِنَ الَّذِيْنَ قَالُوا إنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيْثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ ﴾ (١) .

« أهل البدع تجعل العقليات أعظم من الشرعيات »

فإذا ترك الناس بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء إذ لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه بل ﴿ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِم فَرِحُونَ ﴾ (٢) وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق إلا ما وافقوا فيه الرسول ، وهو ما تمسكوا به من شرعه مما أخبر به وما أمر به . وأما ما ابتدعوه فكله ضلالة كما قال ﷺ « وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » (٣) وقد تكون تلك البدعة أعظم عندهم مما أخذوا به من الشرعة

---

(١) سورة المائدة آية رقم ١٤ والاغراء : التحريش ، وأصله اللصوق يقال : غريت بالرجل غرّاً إذا لصقت به ، وقال كثير :

إذا قيل مهلاً قالت العين بالبكا ... غراء ومدتها حوافل نُهَّل

القرطبي ٦ : ١١٧

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٥٣ وقوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ﴾ .

روى أبو هريرة عن النبي - ﷺ - في هذه الآية : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم ﴾ . هم أهل البدع والشبهات ، وأهل الضلالة من هذه الأمة . وروى بقية بن الوليد ، حدثنا شعبة بن الحجاج حدثنا مجالد عن الشعبي عن شريح عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال لعائشة : إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً إنما هم أصحاب البدع ، وأصحاب الأهواء ، وأصحاب الضلالة من هذه الأمة يا عائشة إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة وأنا بريء منهم ، وهم منا برآء »

وروى ليث بن أبي سليم عن طاوس عن أبي هريرة أن النبي - ﷺ - قرأ « إن الذين فارقوا دينهم »

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٧ باب اجتناب البدع والجدل ٤٥ - بسنده عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه ، كأنه منذر جيش يقول : صبَّحكم مسَّاكم ، ويقول : بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويقرن بين أصبعيه

يجعلون تلك هي الأصول العقلية كالقدرية المجبرة والنفاة فكلاهما يجعل ما أحدثوه من الكلام في الأصول وهو الذي يسمونه العقليات ـ أعظم عندهم مما تلقوه من الشرع .

فالمعتزلة يجعلون العقليات هي الخبريات والأمريات جميعا كالواجبات الشرعية لكن يقولون أيضاً إن الشرع أوجبها ، ولكن لهم فيها تخليط ليس هذا موضعه .

وكذلك ما ابتدعوه في الخبريات كإثبات حدوث العالم بطريقة الأعراض ، واستلزامها للأجسام وهم ينفون الصفات والقدر ، ويسمون ذلك التوحيد والعدل .

وجهم بن صفوان [1] وأتباعه هم أعظم نفياً منهم فإنهم ينفون الأسماء مع الصفات وهم رؤوس المجبرة ، والأشعرية [2] وافقتهم في الجبر ، لكن

= السبابة والوسطى ثم يقول : أما بعد فإن خير الأمور كتاب الله ، وخير الهدى هدْي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » .

وأخرجه الإمام مسلم في الجمعة ٤٣ وأبو داود في السنة ٥ والنسائي في العيدين ٢٢ والدارمي في المقدمة ١٦ ، ٢٣ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣١٠، ٣٧١ ، ٤ : ١٢٦ ، ١٢٧ (حلبي) .

(١) هو جهم بن صفوان السمرقندي ، أبو محرز ، من موالي بني راسب رأس الجهمية ، قال الذهبي : الضال المبدع ، هلك في زمان صغار التابعين ، وقد زرع شراً عظيماً ، قبض عليه نصر بن سيار فطلب جهم استبقاءه . فقال نصر : لا تقوم علينا مع اليمانية أكثر مما قمت وأمر بقتله فقتل عام ١٢٨ هـ [راجع ميزان الاعتدال ١ : ١٩٧ والكامل لابن الأثير حوادث ١٢٨ ولسان الميزان ٢ : ١٤٢ .

(٢) الأشعرية : أصحاب أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري المنتسب الى أبي موسى الأشعري (راجع الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١١٩ على هامش الفصل) ويقال إنه أعلن عقيدته في هذه العبارة : قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب الله وسنة نبيه - ﷺ - وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن معتمصون ، وبما كان =

نـازعوهم نـزاعاً لفـظياً في اثبـات الكسب والقدرة عليـه ، وهم يرون أن هـذه الأصول العقلية ـ وهي العلم بمـا يجب للرب ويمتنع عليـه وما يجـوز عليه من الأفعـال ـ هي أعظم العلوم وأشـرفها ، وإنهم بـرزوا بها على الصحـابة ، وأن النبي لم يعلمها الصحابة ، إما لكـونه وكلهـا الى استنباط الأمـة ، وإما لكـون الصحابة كانوا مشغـولين عنها بـالجهاد ، وإمـا لكونـه قال لهم في ذلـك ما لم يبلغوه ، ولـم يشغلهم بالأدلة لاشتغالهم بالجهاد .

وهــذه هي الأصـول العقليــة التي يعتمــدون عليهــا هم ومن يوافقهم كالقاضي أبي يعلى [١] وأبي المعالي وأبـي الوليد الباجي [٢] تبعاً للقاضي أبي بـكر وأمثاله ، وهو وأتباعه يناقضون عبد الجبار [٦] وأمثاله . كما يناقض الأشعري وأمثاله أبا علي وأبا القاسم .

= عليه أحمد بن حنبل ـ نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته ـ قـائلون ، ولمن خالف قـوله مجانبون الخ . راجع الإبانة ص ٣ طبع الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة .

(١) هـو محمد بن الحسين بن محمـد بن خلف بن الفراء ، أبـو يعلى عـالم عصـره في الأصـول والفروع ، وأنواع الفنون ، من أهل بغـداد ارتفعت مكانتـه عند القـادر ، والقائم العبـاسيين ، وولاه القـائم قضاء دار الخـلافة والحـريم ، وحران وحلوان ، وكـان قـد امتنـع واشتـرط أن لا يحضـر أيام المـواكب ، ولا يخرج في الاستقبـالات ، ولا يقصد دار السلطان ، فقبـل القـائم شرطه ، له تصانيف كثيرة منها الايمان وعيون المسائل وأربع مقدمـات في أصول الـديانـات ، والمجرد على مذهب الإمام أحمد ، وردود على الأشعرية ، والكرامية ، والسالمية والمجسمـة توفي عام ٤٥٨ هـ [راجع طبقات الحنابلة ٢ : ١٩٣ ـ ٢٣٠ وتاريخ بغداد ٢ : ٢٥٦ وشذرات الذهب ٣ : ٣٠٦]

(٢) هو سليمان بن خلف بن سعد النجيبي القرطبي أبو الوليد الباجي ، فقيه مالكي كبيـر من رجال الحديث أصله من بطليموس ومولده في باجـه عام ٤٠٣ هـ بـالأندلس رحـل الى الحجاز سنـة ٤٢٦ هـ فمكث ثلاثة أعـوام ، وأقام ببغـداد ثلاثـة أعوام وبـالموصـل عامـاً وفي دمشق وحلب مدة ، وعاد الى الأندلس فولي القضاء في بعض أنحائها وتوفي بالمرية عام ٤٧٤ هـ .
من كتبه « التسديد إلى معرفة التوحيد » و« شرح فصول الأحكام والمنتقى في شرح الموطأ وغير ذلك . » .
[راجـع الديبـاج المـذهب ١٢٠ والـوفيـات ١ : ٢١٥ والفـوات ١ : ١٧٥ ونفـح الـطيب ١ : ٢٦١]

وكل الأصول العقلية التي ابتدعها هؤلاء وهؤلاء باطلة في العقل والشرع ، وإن كانت كل واحدة من الطائفتين تعتقد أنها من أعظم الدين ، ويقدمونها على الأصول الشرعية ، فإنهم في ذلك بمنزلة ما يعظمه العباد والزهاد والفقراء والصوفية من الخوارق الشيطانية ، ويفضلونها على العبادات الشرعية . والعبادات الشرعية هي التي معهم من الإسلام ، وتلك كلها باطلة ، وإن كانت أعظم عندهم من العبادات حتى يقولوا نهاية الصوفي ابتداء الفقيه ، ونهاية الفقيه ابتداء المولّه وكذلك صاحب منازل السائرين ، يذكر في كل باب ثلاث درجات فالأولى وهي أهونها عندهم توافق الشرع في الظاهر .

والثانية قد توافق الشرع وقد لا توافق ، والثالثة في الأغلب تخالف لا سيما في التوحيد ، والفناء [1] ، والرجاء ، ونحو ذلك وهذا الذي ابتدعوه هو أعظم عندهم مما وافقوا فيه الرسل وكثير من العباد يفضل نوافله على آداء الفرائض ، وهذا كثير ، والله أعلم .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) أشار القوم بالفناء الى سقوط الأوصاف المذمومة ، وأشاروا بالبقاء الى قيام الأوصاف المحمودة به ، وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القسمين فمن المعلوم أنه إذا لم يكن أحد القسمين ، كان القسم الآخر لا محالة ، فمن فني عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة ، ومن غلبت عليه الخصال المذمومة استترت عليه الصفات المحمودة .



الجزء الثاني
من مقدمة التفسير للمؤلف

وتشمل الآتي :

أ ـ في حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف وتجزيب القرآن .

ب ـ في أصح كتب التفسير .

ج ـ قواعد كلية في التفسير .

د ـ في المتشابه والتأويل .

هـ ـ في معجزات القرآن الكريم ووجوه اعجازه .

و ـ في ترجمة القرآن الكريم .



فصل

« إدعاء بعض الطوائف أن للباطن »
باطناً الى سبعة أبطن

عن طائفة من المتفقرة يدعون أن للقرآن باطنا ، وأن لذلك الباطن باطنا إلى سبعة أبطن ، ويروون في ذلك حديثا أن النبي ﷺ قال : للقرآن باطن ، وللباطن باطن إلى سبعة أبطن » ويفسرون القرآن بغير المعروف عن الصحابة والتابعين والأئمة من الفقهاء ، ويزعمون أن علياً قال : لو شئت لأوقرت من تفسير فاتحة الكتاب كذا وكذا حمل جمل . ويقولون : إنما هو من علمنا إذ هو اللدنى [١] ويقولون كلاماً معناه : أن رسول الله ﷺ خص كل قوم بما يصلح لهم ، فإنه أمر قوماً بالإمساك وقوماً بالإنفاق وقوماً بالكسب ، وقوماً بترك الكسب ويقولون : إن هذا ذكرته أشياخنا في العوارف وغيره من كتب المحققين ، وربما ذكروا أن حذيفة [٢] كان يعلم أسماء المنافقين ، خصه

---

(١) إن كانوا يقصدون بالعلم اللدنى ما عناه الله سبحانه وتعالى وذكره في كتابه بقوله : ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ﴾ . سورة الكهف آية ٦٥ . فلا غبار عليه ـ وعلم الله سبحانه وتعالى وكلامه جاء به جبريل عليه السلام يقول تعالى : ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ ، سورة الشعراء آية رقم ١٩٣ ـ ١٩٥ لا هذه الطلاسم والالغاز والمعميات التي يشيعونها والباطل الذي يدسونه في أدمغة السذج من الناس . ﴿ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ .

(٢) هو حذيفة بن حسل بن جابر العيسى أبو عبد الله ، واليمان لقب حسل صحابي ، من الولاة الشجعان الفاتحين ، كان صاحب سر النبي ـ ﷺ ـ في المنافقين ، لم يعلمهم أحد غيره ـ هاجم نهاوند سنة ٢٢ هـ فصالحه صاحبها على مال يؤديه في كل سنة ـ كان عمر معجب به =

بذلك رسول الله ﷺ وبحديث أبي هريرة « حفظت جرابين »[1] .

ويروون كلاماً عن أبي سعيد الخراز أنه قال : للعارفين خزائن أودعوها علوماً غريبة ، يتكلمون فيها بلسان الأبدية يخبرون عنها بلسان الأزلية ، ويقولون : إن رسول الله ﷺ قال : إن من العلم كهيئة المخزون لا يعلمه إلا العلماء بالله ، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل العزة بالله » فهل ما ادعوه صحيحاً أم لا ؟

فسيدي يبين لنا مقالاتهم ، فإن المملوك وقف على كلام لبعض العلماء ذكر فيه أن الواحدي[2] قال : ألف أبو عبد الرحمن السلمي[3] كتابا سماه

= لعفته ونزاهته توفي عام ٣٦ هـ وله في كتب الحديث ٢٢٥ حديثاً [راجع ابن عساكر ٤ : ٩٣ ، وتهذيب التهذيب ٢ : ٣١٩ والاصابة ١ : ٣١٧ وحلية الأولياء ١ : ٢٧٠] .

(١) الحديث ذكره صاحب كتاب « كشف الخفا ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس »١ : ٢٢٦ بلفظ « حفظت عن النبي - ﷺ - وعاءين ، فأما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم » .

(٢) هو علي بن أحمد بن محمد بن علي بن مَتُّويه أبو الحسن الواحدي مفسر عالم بالأدب ، نعته الذهبي : بامام علماء التأويل ، كان من أولاد النجار أصله من ساوة (بين الري وهمذان) مولده ووفاته عام ٤٦٨ هـ بنيسابور له « البسيط » و« الوسيط » و« الوجيز » كلها في التفسير ، والواحدي نسبة الى الواحد بن الديل بن مهرة . [راجع النجوم الزاهرة ٥ : ١٠٤ والوفيات ١ : ٣٣٣]

(٣) هو محمد بن الحسين ، أبو عبد الرحمن السلمي النيسابوري شيخ الصوفية ، وصاحب تاريخهم ، وطبقاتهم ، وتفسيرهم . قال الذهبي : تكلموا فيه ، وليس بعمدة ، روى عن الأصم ، وطبقته ، وعني بالحديث ورجاله ، وسئل الدارقطني قال الخطيب . قال لي محمد ابن يوسف القطان كان يضع الأحاديث للصوفية ، وقال الحافظ عبد الغافر الفارسي في تاريخ نيسابور : جمع من الكتب ما لم يسبق الى ترتيبه حتى بلغ فهرست تصانيفه مائة أو أكثر ، وكتب الحديث بمرو ونيسابور والعراق والحجاز ومولده سنة ثلاثين وثلاثمائة . [راجع ميزان الاعتدال ٣ : ٥٢٣] .

« حقائق التفسير » (١) إن صح عنه فقد كفر ، ووقفت على هذا الكتاب فوجدت كلام هذه الطائفة منه أو ما شابهه، فما رأي سيدي في ذلك ؟ وهل صح عن النبي ﷺ أنه قال : للقرآن باطن . الحديث يفسرونه على ما يرونه من أذواقهم ومواجيدهم المردودة شرعا ؟

أفتونا مأجورين .

فأجاب الشيخ ـ رضي الله عنه ـ

الحمد لله رب العالمين

أما الحديث المذكور فمن الأحاديث المختلفة التي لم يروها أحد من أهل العلم ، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث ولكن يروى عن الحسن البصري (٢) موقوفا أو مرسلاً أن لكل آية ظهراً وبطنا وحدا ومطلعا ، وقد شاع في كلام كثير من الناس : علم الظاهر وعلم الباطن وأهل الظاهر وأهل الباطن ، ودخل في هذه العبارات حق وباطل .

---

(١) قال صاحب كشف الظنون : هو مختصر على لسان التصوف أوله الحمد لله رب أولاً وآخراً الخ . ذكر فيه أن (أكثر) أهل الظاهر جمع في أنواع فوائد القرآن ، ولم يشتغل أحد بفهم خطابه على لسان الحقيقة .

المفسرون من أهل الظاهر تكلموا فيه على ما هو دأبهم في أمثاله فقال الواحدي زعم أنه صنف حقائق التفسير ، فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر ، وطعن فيه ابن الجوزي أيضاً . [راجع كشف الظنون ١ : ٦٧٣] .

(٢) هو الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد : تابعي ، كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه ، وهو أحد الفقهاء العلماء الفصحاء الشجعان النساك ، ولد بالمدينة عام **٢١** هـ وشبّ في كنف علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية وسكن البصرة ، وعظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم ، لا يخاف في الحق لومة لائم ، وكان أبوه من أهل ميسان ، مولى لبعض الأنصار . قال الغزالي : كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء ، وله مع الحجاج بن يوسف مواقف توفي عام ١١٠ هـ [راجع تهذيب التهذيب ، ووفيات الأعيان ، وميزان الاعتدال ١ : **٢٥٤** وحلية الأولياء **٢** : ١٣١]

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، لكن نذكر هنا جملا من ذلك فنقول :

« المراد بعلم الباطن »

قول الرجل : « الباطن » إما أن يريد علم الأمور الباطنة مثل : العلم بما في القلوب من المعارف والأحوال ، والعلم بالغيوب التي أخبرت بها الرسل وإما أن يريد به العلم الباطن ، أي الذي يبطن عن فهم أكثر الناس ، أو عن فهم من وقف مع الظاهر ونحو ذلك .

فأما الأول فلا ريب أن العلم منه ما يتعلق بالظاهر كأعمال الجوارح ، ومنه ما يتعلق بالباطن كأعمال القلوب ومنه ما هو علم بالشهادة ، وهو ما يشهده الناس بحواسهم . ومنه ما يتعلق بالغيب وهو ما غاب عن إحساسهم .

وأصل الإيمان هو الإيمان بالغيب [1] ، كما قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ، ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [2] والغيب الذي

---

(١) الإيمان بالغيب : هو العتبة التي يجتازها الإنسان فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه الحواس الى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس ، أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس ، وهي نقله بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي ، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود ، وفي إحساسه بالكون ، وما وراء الكون من قوة وتدبير ، كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض، فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته . لقد كان الايمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة ، ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان كجماعة الماديين في كل زمان ، يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقري ، الى عالم البهيمة الذي لا وجود فيه لغير المحسوس ، ويسمون هذه تقدمية وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها ، فجعل صفتهم المميزة صفة ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ والحمد لله على نعمائه والنكسة للمنتكسين والمرتكسين . [في ظلال القرآن ١ : ٤٠]

(٢) سورة البقرة آية رقم ١ ـ ٣ .

يؤمن به ما أخبرت به الرسل من الأمور العامة ، ويدخل في ذلك الإيمان بالله وأسمائه وصفاته ، وملائكته ، والجنة والنار فالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر يتضمن الإيمان بالغيب ، فإن وصف الرسالة هو من الغيب ، وتفصيل ذلك هو الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ورسله واليوم الآخر ، كما ذكر الله تعالى ذلك في قوله :

﴿ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [1] .

وقال : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [2] والعلم بأحوال القلوب ، كالعلم بالاعتقادات الصحيحة ، والفاسدة ، والإرادات الصحيحة والفاسدة ، والعلم بمعرفة الله ومحبته [3] والإخلاص [4] له وخشيته ، والتوكل [5] عليه ، والرجاء له ، والحب فيه والبغض فيه ، والرضا بحكمه والإنابة إليه ، والعلم بما يحمد ويذم من أخلاق النفوس ، كالسخاء ، والحياء ، والتواضع ، والكبر ، والعجب ، والفخر ، والخيلاء . وأمثال ذلك من العلوم المتعلقة بأمور باطنة في القلوب ونحوه ـ قد يقال له علم الباطن أي علم بالأمر الباطن ، فالمعلوم هو الباطن ، وأما العلم الظاهر فهو ظاهر يتكلم به ويكتب ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة ، وكلام السلف وأتباعهم ، بل غالب آي القرآن هو من هذا العلم ، فإن الله أنزل

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧٧ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٣٦ .

(٣) قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبيكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ سورة آل عمران آية رقم ٣١ .

(٤) قال تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ سورة البينة آية رقم ٥ .

(٥) قال تعالى : ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ سورة الأحزاب آية رقم ٣ .

القرآن ﴿ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] بل هذا العلم هو العلم بأصول الدين فإن اعتقاد القلب أصل لقول اللسان ، وعمل القلب أصل لعمل الجوارح والقلب هو ملك البدن ، كما قال أبو هريرة - رضي الله عنه - القلب ملك والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث الملك خبثت جنوده » .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب » [2] .

ومن لم يكن له علم بما يصلح باطنه ويفسده ، ولم يقصد صلاح قلبه بالإيمان ، ودفع النفاق كان منافقاً إن أظهر الإسلام ، فإن الإسلام يظهره المؤمن والمنافق وهو علانية ، والإيمان في القلب كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال : الاسلام علانية والإيمان في القلب » [3] وكلام الصحابة والتابعين ، والأحاديث والآثار ، في هذا أكثر منها في الإجارة ، والشفعة ،

---

(١) سورة يونس آية رقم ٥٧ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الايمان ٣٩ باب فضل من استبرأ لدينه ، ٥٢ بسنده عن النعمان بن بشير بلفظ « الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » .
وأخرجه الامام مسلم في كتاب المساقاة ١٠٧ وابن ماجه في كتاب الفتن ١٤ باب الوقوف عند الشبهات ٣٩٨٤ - بسنده عن النعمان بن بشير بلفظ البخاري ، والدارمي في البيوع ١ .

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣ : ١٣٤ - ١٣٥ (حلبي) بسند : حدثنا بهز حدثنا علي بن مسعدة ، ثنا قتادة عن أنس ، قال كان رسول الله - ﷺ يقول : الاسلام علانية والايمان في القلب ، قال : ثم يشير بيده الى صدره ثلاث مرات ثم يقول : التقوى ههنا ، التقوى ههنا » .

والحيض ، والطهارة ، بكثير كثير ، ولكن هذا العلم ظاهر موجود مقول باللسان ، مكتوب في الكتب ، ولكن من كان بأمور القلب أعلم كان أعلم به ، وأعلم بمعاني القرآن والحديث ، وعامة الناس يجدون هذه الأمور في أنفسهم ذوقاً ووجدا فتكون محسوسة لهم بالحس الباطن ، لكن الناس في حقائق [١] الإيمان متفاضلون تفاضلا عظيما [٢] فأهل الطبقة العليا يعلمون حال أهل السفلى [٣] من غير عكس ، كما أن أهل الجنة في الجنة ينزل الأعلى إلى الأسفل ، ولا يصعد الأسفل إلى الأعلى . والعالم يعرف الجاهل ؛ لأنه كان جاهلاً ، والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالماً ، فلهذا كان في حقائق الإيمان الباطنة ، وحقائق أنباء الغيب التي أخبرت بها الرسل ما لا يعرفه إلا خواص الناس فيكون هذا العلم باطناً من جهتين :

من جهة كون [٤] المعلوم باطناً ، ومن جهة كون العلم باطناً لا يعرفه أكثر الناس ، ثم إن هذا الكلام في هذا العلم يدخل فيه من الحق والباطل ما لا يدخل في غيره ، فما وافق الكتاب والسنة فهو حق [٥] ، وما خالف ذلك فهو باطل كالكلام في الأمور الظاهرة .

---

(١) سقط من (ب) لفظ (حقائق)

(٢) في (ب) كبيراً بدلاً من (عظيما)

(٣) في (ب) بزيادة لفظ (الطبقة)

(٤) سقط من (ب) لفظ (كون)

(٥) إن الطرق شتى ، والمسالك مختلفة ومتباينة ، وعقل الإنسان قاصر وتفكيره محدود إذا ابتعد عن دائرة الوحي ، واتخذ هواه له طريقاً ، ومن أجل هذا فالميزان الذي توزن به أعمال المسلمين ، ومنهجهم الذين يسيرون عليه ـ هو الكتاب والسنة فما وافق هذين الأصلين فهو مقبول وما تعارض مع كتاب الله تعالى وسنة رسوله ـ ﷺ ـ فهو مرفوض وصدق ربي في قوله : **﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾**

فصل
« علم الباطن الذي يبطن عن أكثر الناس علمه »

وأما إذا أريد بالعلم الباطن الذي يبطن [١] عن أكثر الناس ، أو عن بعضهم ، فهذا على نوعين :

أحدهما : باطن يخالف العلم الظاهر [٢] ، والثاني : لا يخالفه فأما الأول فباطل ، فمن ادعى علماً باطناً ، أو علماً بباطن وذلك يخالف العلم الظاهر كان مخطئاً ، إما ملحداً زنديقاً ، وإما جاهلاً ضالاً .

وأما الثاني : فهو بمنزلة الكلام في العلم الظاهر قد يكون حقاً ، وقد يكون باطلاً ، فإن الباطن إذا لم يخالف الظاهر لم يعلم بطلانه من جهة مخالفته للظاهر المعلوم ، فإن علم أنه حق قبل ، وإن علم أنه باطل رد وإلا أمسك عنه .

« أركان الاسلام في اعتقاد الباطنية »

وأما الباطن المخالف للظاهر المعلوم فمثل ما يدعيه الباطنية القرامطة [٣] من الاسماعيلية والنصيرية [٤] وأمثالهم ممن وافقهم من الفلاسفة

---

(١) في (ب) يخفى بدلاً من (يبطن)

(٢) من العلم الظاهر ما جاءت به الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين .

(٣) القرامطة فرقة تنسب الى حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط ، تتلمذ على حسين الأهوازي ، =

وغـلاة المتصوفـة والمتكلمين وشر هؤلاء القـرامطة فـإنهم يدعـون أن للقـرآن والإسلام باطناً يخالف الظاهر فيقـولون : « الصـلاة » المأمـور بها ليست هـذه الصلاة ، أو هذه الصلاة إنما يؤمر بها العامة وأما الخاصـة فالصـلاة في حقهم معرفة أسرارنا ، والصيام كتمان أسـرارنا ، والحـج » السفر إلى زيـارة شيوخنـا المقدسين ويقولـون : إن « الجنة » للخـاصة هي التمتـع في الدنيـا باللذات ، و« النار » هي التزام الشرائع والدخول تحت أثقالها ، ويقولون : إن الـدابة [1] التي يخرجها الله للناس هي العالم الناطق بالعلم في كل وقت .

وإن اسـرافيل الـذي ينفخ في الصـور هو العـالم الذي ينفـخ بعلمـه في القلوب حتى تحيـا و« جبـريــل » [2] هـو العقــل الفعـال الــذي تقيض عنـه

= رسول عبد الله بن ميمون القداح ، اتخـذ لنفسه داراً للهجـرة قريبـاً من الكوفـة ، ويشترك مـع الباطنية في كثير من العقائـد الباطلة ، وكثيـراً ما شن الغـارات على المسلمين بقصد إضعـاف دولتهم وكان لدعوة القرامطة أثر كبير في إثارة الفتنة في العالم الإسـلامي ويكفي أن يعلم أنهم سرقوا الحجر الأسود من مكـانه في مكـة ونقلوه الى مكان آخـر في البحرين في القـرن الثالث الهجري ، ليبطلوا بذلك فريضة الحج إلى مكة . [راجع مقالات الأشعري ١ : ٢٦ ، والفرق بين الفرق ص ١٦٩ ـ ١٧٣ ودائرة المعارف الاسلامية مادة حمدان قرمط]

(٤) النصيرية : هي إحدى الفرق الباطنية ، تقيم شمال الشام قبـل طائفـة الدروز في لبنـان ، وهم من غـلاة الشيعة ، ومـوطنهم جبل النصيـرية ، وهـو جزء من لبنـان وتمتـد بـلادهم الى سهـل حماه ، وحمص وحلب شرقاً والى ما وراء انطاكية على حدود بلاد الأناضول شمالاً .
وقد كتب المستشرق « لويس ماسينـون » عن تاريـخ طائفـة النصيريـة وعدد معتقـداتها السـرية وقدمها للمسؤولين عن دائرة المعارف الاسلامية بتاريخ ٢٩ مارس ١٩٣٣ هـ .
وكان مما كتبه « ماسينيون » على النصيرية :
النصيرية : اسم يطلق على فرقة شيعية متطرفة تعيش في سورية ، وثمة اختلاف بين الـدارسين حول اشتقاق هذا الاسم . [راجع دائرة المعارف الاسـلامية مـادة نصيري ، وتـاريخ الاسـلام السياسي ٤ : ومذاهب الاسلاميين ٢ : ٤٤٥]

(١) قال تعالى : ﴿ وإذا وقـع القول عليهم أخـرجنا لهم دابـة من الأرض تكلمهم أن الناس كـانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ سورة النمل آية رقم ٨٢ .

(٢) لعلماء اللسان في جبريل عليه السلام لغات ، فأمـا التي هي معتمدة فعشـر الأول : جبريـل =

الموجودات ، والقلم : هو العقل الأول الذي تزعم الفلاسفة أنه المبدع الأول وأن الكواكب والقمر والشمس التي رآها ابراهيم (١) هي النفس والعقل وواجب الوجود ، وأن الأنهار الأربعة التي رآها النبي ﷺ ليلة المعراج هي العناصر الأربعة وأن الأنبياء التي رآها في السماء هي الكواكب ، فآدم هو القمر ، ويوسف هو الزهرة ، وإدريس هو الشمس وأمثال هذه الأمور .

وقد دخل في كثير من أقوال هؤلاء كثير من المتكلمين والمتصوفين لكن أولئك القرامطة ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض وعامة الصوفية والمتكلمين ليسوا رافضة يفسقون الصحابة ولا يكفرونهم ، لكن فيهم من هو كالزيدية الذين يفضلون علياً على أبي بكر ، وفيهم من يفضل علياً في العلم الباطن كطريقة الحربي وأمثاله ، ويدعون أن علياً كان أعلم بالباطن وأن هذا

= وهي لغة أهل الحجاز : قال حسان بن ثابت :

وجبريل رسول الله فينا .

الثانية : جبريل (بفتح الجيم) وهي قراءة الحسن وابن كثير ، وروي عن ابن كثير أنه قال : رأيت النبي ـ ﷺ ـ في النوم وهو يقرأ جبريل وميكائيل فلا أزال أقرؤ هما أبداً كذلك .

الثالثة : جبرئيل (بياء بعد الهمزة مثال جبرعيل) كما قرأ أهل الكوفة وأنشدوا

شهدنا فما تلقى لنا من كتيبة ... مدى الدهر إلا جبرئيل أمامها

وهي لغة تميم وقيس .

الرابعة : جبرئل (على وزن جبرعل) مقصور وهي قراءة أبي بكر عن عاصم

الخامسة : مثلها وهي قراءة يحيى بن يعمر ، إلا أنه شدد اللام .

السادسة : جبرائيل (بألف بعد الراء ثم همزة) وبها قرأ عِكرمة

السابعة : مثلها إلا أنه بعد الهمزة ياء. الثامنة ـ جبرييل (بياءين بغير همزة) وبها قرأ الأعمش ، ويحيى بن يعمر أيضاً ، التاسعة ـ جبرئين (بفتح الجيم مع همزة مكسورة بعدها ياء ونون)

العاشرة : جبرين (بكسر الجيم وتسكين الياء بنون من غير همزة ، وهي لغة قال الطبري ، ولم يقرأ بها ، وقال النحاس ، وذكر قراءة ابن كثير (لا يعرف من كلام العرب (فَعْليل) وفيه فِعْليل نحو دهليز ، وقطمير .

(١) قال : ﴿**وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين**﴾ الى قوله : ﴿ **إني بريء مما تشركون** ﴾ سورة الأنعام الآيات من ٧٥ ـ ٧٨ .

العلم أفضل من جهته ، وأبو بكر كـان أعلم بالـظاهر ، وهؤلاء عكس محققي الصـوفية وأئمتهم ، فـإنهم متفقون على أن أعلم الخلق بـالعلم الباطن هـو أبو بكـر الصديق . وقـد اتفق أهل السنـة والجماعـة على أن أبا بكـر أعلم الأمـة بالباطن والظاهر ، وحكى الإجماع على ذلك غير واحد .

« نمـاذج من تفسير البـاطنيـة والصـوفيـة والفـلاسفـة لآيـات القـرآن الكريم »

وهؤلاء البـاطنيـة قـد يفسـرون : ﴿ وَكُـلَّ شَيءٍ أَحْصَيْنَـاهُ في إِمَـامٍ مُبِينٍ ﴾ [1] إنهُ علي ، ويفسرون قوله تعالى : ﴿ تَبَّت يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [2] بأنهما أبو بكر وعمر . وقوله ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ ﴾ [3] إنهم طلحـة والزبيـر و ﴿ الشَّجَرَةَ المَلْعُونَةَ في القُرْآنِ ﴾ [4] بأنهـا بنو أمية .

وأما باطنية الصوفية فيقولون في قولـه تعالى ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِـرْعَوْنَ ﴾ [5] إنه القلب .

و ﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَـرَةً ﴾ [6] إنها النفس ويقـول أولئك هي عائشة .

ويفسرون هم والفلاسفة تكليم موسى بما يفيض عليه من العقـل الفعال أو غيره ، ويجعلون « خلع النعلين » [7] ترك الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة يس آية رقم ١٢ .
(٢) سورة المسد آية رقم ١ .
(٣) سورة التوبة آية رقم ١٢ وعجز الآية ﴿ إنهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون ﴾ .
(٤) سورة الإسراء آية رقم ٦٠ .
(٥) سورة طه آية رقم ٢٤ وعجز الآية ﴿ إنه طغى ﴾
(٦) سورة البقرة آية رقم ٦٧ .
(٧) قال الله تعالى في سورة طه آية رقم ١٢ ﴿ إني أنا ربك فاخلع نعليـك إنك بـالوادي المقـدس طوى ﴾ .

ويفسرون الشجرة التي كلم منها موسى ، والوادي المقدس ، ونحو ذلك بأحوال تعرض للقلب عند حصول المعارف له .

ومن سلك ذلك صاحب مشكاة الأنوار (١) ، وأمثاله ، وهي مما أعظم المسلمون إنكاره عليه ، وقالوا أمرضه « الشفاء » وقالوا : دخل في بطون الفلاسفة ، ثم أراد أن يخرج فما قدر .

ومن الناس من يطعن في هذه الكتب ويقول : إنها مكذوبة عليه ، وآخرون يقولون : بل رجع عنها ، وهذا أقرب الأقوال ، فإنه قد صرح بكفر الفلاسفة في مسائل (٢) وتضليلهم في مسائل أكثر منها ، وصرح بأن طريقتهم لا توصل إلى المطلوب .

وباطنية الفلاسفة يفسرون الملائكة والشياطين بقوى النفس ، وما وعد الناس به في الآخرة بأمثال مضروبة لتفهيم ما يقوم بالنفس بعد الموت من اللذة والألم لا بإثبات حقائق منفصلة يتنعم بها ويتألم بها .

وقد وقع في هذا الباب في كلام كثير من متأخري الصوفية ما لم يوجد

---

(١) كتاب « مشكاة الأنوار في رياض الأزهار » للامام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي أوله : الحمد لله فائض الأنوار وفاتح الأبصار الخ ، وهو رسالة على ثلاثة فصول كتبها لبعض أحبابه ، الفصل الأول في بيان أن النور الحق ، الفصل الثاني في بيان المشكاة والمصباح ، الفصل الثالث في معنى قوله ـ ﷺ ـ إن لله تعالى سبعين حجاباً .

(٢) يقول الامام الغزالي : مجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين أصلاً يجب تكفيرهم في ثلاث منها وتبديعهم في سبع عشرة :

أما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين وذلك في قولهم . ١ ـ إن الأجساد لا تحشر ، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية .

ولقد صدقوا في إثبات الروحانية ، فإنها كائنة أيضاً ، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به . الخ [راجع المنقذ من الضلال ص ١٢٢ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود]

مثله عن أئمتهم ومتقدميهم ، كما وقع في كلام كثير من متأخري أهل الكلام والنظر من ذلك ما لا يوجد عن أئمتهم ومتقدميهم .

« أصحاب وحدة الوجود يدعون أن المتقدمين ما عرفوا التوحيد »

وهؤلاء المتأخرون ـ مع ضلالهم وجهلهم ـ يدعون أنهم أعلم وأعرف من سلف الأمة ومتقدميها ، حتى آل الأمر بهم إلى أن جعلوا الوجود واحداً ، كما فعل ابن عربي صاحب الفصوص [1] وأمثاله فإنهم دخلوا من هذا الباب حتى خرجوا من كل عقل ودين ، وهم يدعون مع ذلك أن الشيوخ المتقدمين كالجنيد بن محمد [2] ، وسهل بن عبد الله التستري [3] وابراهيم

(١) كتاب فصوص الحكم لمحيي الدين أبي عبد الله محمد بن علي المعروف بابن عربي ، وهو على سبعة وعشرين فصاً . قال في خطبته : أما بعد فإني رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ في مبشرة أريتها في العشر الآخر من محرم لسنة ٦٢٧ هـ بدمشق وبيده كتاب فقال لي هذا كتاب فصوص الحكم خذه وأخرج به الى الناس ينتفعون به فقلت السمع والطاعة انتهى .
والعجيب أن يقول الرسول ـ ﷺ ـ ذلك ـ هلا قال له ـ أخرج بكتاب الله ـ أو بحديثي وسنتي للناس كيما يعودوا الى ربهم وخالقهم فيتدبروا آياته ويحكموا شرعه . .؟ وكم من أتباع أمة محمد ـ ﷺ ـ لديه القدرة وحدة الذكاء لفهم هذه الطلاسم والألغاز . . ؟ ولله في خلقه شؤون .

(٢) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي أبو القاسم من العلماء بالدين مولده ومنشؤه ووفاته ببغداد ، أصل أبيه من نهاوند ، وكان يعرف بالقواريري نسبة الى عمل القوارير ، وعرف الجنيد بالخزاز ؛ لأنه كان يعمل الخز ، قال أحد معاصريه ما رأت عيناي مثله ، الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه ، والشعراء لفصاحته والمتكلمون لمعانيه ، وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد ، وقال ابن الأثير في وصفه : إمام الدنيا في زمانه ، وعده العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة توفي عام ٢٩٧ هـ . [راجع طبقات الصوفية ـ خ والحلية ١٠ : ٢٥٥ ، وصفة الصفوة ٢ : ٢٣٥ وتاريخ بغداد ٧ : ٢٤١] .

(٣) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري أبو محمد أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال له كتاب في التفسير ، وكتاب مختصر في رقائق المحبين وغير ذلك . توفي عام ٢٨٣ هـ . [راجع طبقات الصوفية ٢٠٦ ، والوفيات ١ : ٢١٨ وحلية الأولياء ١٠ / ١٨٩]

الخواص [1] ، وغيرهم ماتوا وما عرفوا التوحيد .

وينكرون على الجنيد وأمثاله إذا ميزوا بين الرب والعبد كقوله « التوحيد » إفراد الحدوث عن القدم [2] ، ولعمري إن توحيدهم الذي جعلوا فيه وجود المخلوق وجود الخالق هو من أعظم الإلحاد الذي أنكره المشايخ المهتدون وهم عرفوا أنه باطل فأنكروه ، وحذروا الناس منه وأمروهم بالتمييز بين الرب والعبد والخالق والمخلوق والقديم والمحدث ، وأن التوحيد أن يعلم مباينة الرب لمخلوقاته ، وامتيازه عنها ، وأنه ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته .

ثم إنهم يدعون أنهم أعلم بالله من المرسلين ، وأن الرسل إنما تستفيد معرفة الله من مشكاتهم ، ويفسرون القرآن بما يوافق باطنهم الباطل ، كقوله ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ ﴾ [3] فهي التي خطت بهم فغرقوا في بحار العلم بالله ، وقولهم إن العذاب مشتق من العذوبة ، ويقولون : إن كلام نوح في حق قومه ثناء عليهم بلسان الذم ، ويفسرون قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [4] بعلم الظاهر بل ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى

---

(١) هو ابراهيم بن أحمد بن اسماعيل أبو اسحاق الخواص ، صوفي كان أوحد المشايخ في وقته من أقران الجنيد ، ولد في سر من رأى ، ومات في جامع الري . قال الخطيب البغدادي ، له كتب مصنفة ، والخواص بائع الخوص . توفي عام ٢٩١ هـ . [راجع طبقات الصوفية ، وتاريخ بغداد ٦ : ٧ وسماه الشعراني في طبقاته ١ : ٨٣ ابراهيم بن اسماعيل]

(٢) إفراده سبحانه من الحدث : أي الحدوث ، وذلك إنما يتم بعد معرفة ما يجب له تعالى ، وما يجوز ، وما يستحيل [راجع الرسالة القشيرية ١ : ٣٣ - ٣٤]

(٣) سورة نوح آية رقم ٢٥ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٦ إن ما يقوله هؤلاء الناس في هذا التفسير هو الهوس بعينه ، والواجب على علماء المسلمين أن يعملوا على تنقية الفكر الاسلامي وعلى وجه الخصوص كتب التفسير من هذا الضلال . =

قُلُوبِهِمْ ﴾ (١) فلا يعلمون غيره . ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ ﴾ (٢) فلا يسمعون من غيره ، ولا يرون غيره ، فإنه لا غير له فلا يرون غيره ويقولون في قوله ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ (٣) إن معناه : قدر ذلك ؛ لأنه ليس ثم موجود سواه فلا يتصور أن يعبد غيره ، فكل من عبد الأصنام والعجل ما عبد غيره ، لأنه ما ثم غير ، وأمثال هذه التأويلات والتفسيرات التي يعلم كل مؤمن وكل يهودي ونصراني علماً ضروريا أنها مخالفة لما جاءت به الرسل ، كموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين .

وجماع القول في ذلك : أن هذا الباب نوعان :

أحدهما : أن يكون المعنى المذكور باطلاً لكونه مخالفاً لما علم فهذا هو في نفسه باطل ، فلا يكون الدليل عليه إلا باطلا ؛ لأن الباطل لا يكون

لقد قال الله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم ﴾ معناه معتدل عندهم الإنذار وتركه ، أي سواء عليهم هذا ، وجيء بالاستفهام من أجل التسوية ومثله قوله تعالى : ﴿ سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴾ وقال الشاعر :

وليل يقول الناس من ظلماته ... سواء صحيحات العيون وعورها

(١) سورة البقرة آية رقم ٧ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٧ .

والختم : معنى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به دليله قوله تعالى ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ﴾ وقال تعالى : ﴿ كذلك نسلكه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به ﴾ .

وقال أهل المعاني : وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف ١ ـ الحمية « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية » ٢ ـ الانصراف : ﴿ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ﴾ ٣ ـ القساوة ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ ٤ ـ الموت : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ ٥ ـ الرين : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ﴾ ٦ ـ المرض ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ ٧ ـ الضيق : قال تعالى : ﴿ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ ٨ ـ الطبع : قال تعالى : ﴿ فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ وقال : ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ ٩ ـ الختم : قال تعالى ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ ١٠ ـ الانكار : قال تعالى : ﴿ قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴾ .

(٣) سورة الإسراء آية رقم ٢٣ .

عليه دليل يقتضي أنه حق .

و « الثاني » : ما كان في نفسه حقاً ، لكن يستدلون عليه من القرآن والحديث بألفاظ لم يرد بها ذلك ، فهذا الذي يسمونه « إشارات » و « حقائق التفسير » لأبي عبد الرحمن فيه من هذا الباب شيء كثير .
وأما النوع الأول « فيوجد كثيراً في كلام القرامطة والفلاسفة المخالفين للمسلمين في أصول دينهم فإن من علم أن السابقين الأولين قد رضي الله عنهم ورضوا عنه علم أن كل ما يذكرونه على خلاف ذلك فهو باطل .

ومن أقر بوجوب الصلوات الخمس على كل أحد ما دام عقله حاضراً ، علم أن من تأول نصاً على سقوط ذلك عن بعضهم فقد افترى ، ومن علم أن الخمر والفواحش محرمة على كل أحد ما دام عقله حاضراً علم أن من تأول نصاً يقتضي تحليل ذلك لبعض الناس أنه مفتر [1] .

وأما « النوع الثاني » فهو الذي يشتبه كثيراً على بعض الناس ، فإن المعنى يكون صحيحاً لدلالة الكتاب والسنة عليه ولكن الشأن في كون اللفظ الذي يذكرونه دل عليه .
وهذا قسمان :

« أحدهما » أن يقال : إن ذلك المعنى مراد باللفظ فهذا افتراء على الله .

---

(١) يقول الجنيد : من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة ، وقال : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ، واتبع سنته ولزم طريقته وقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيمة ، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا .
وقال الغزالي : لو رأيت إنساناً يطير في الهواء ، ويمشي على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان » ويقول أبو الحسن الشاذلي : إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك : « إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام ، ولا المشاهدة إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة » .

فمن قال : المراد بقوله : ﴿ تذبحوا بقرة ﴾ هي النفس . وبقوله ﴿ اذهب إلى فرعون ﴾ هو القلب ﴿ والذين معه ﴾ أبو بكر ﴿ أشداء على الكفار ﴾ عمر ﴿رحماء بينهم﴾عثمان ﴿ تراهم ركعاً سجدا ﴾ علي ، فقد كذب على الله إما متعمدا وإما مخطئا.

« والقسم الثاني » أن يجعل ذلك من باب الاعتبار والقياس لا من باب دلالة اللفظ فهذا من نوع القياس .

فالذي تسميه الفقهاء قياساً هو الذي تسميه الصوفية إشارة. وهذا ينقسم إلى صحيح وباطل ، كانقسام القياس إلى ذلك .

فمن سمع قول الله تعالى ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (١) وقال : إنه اللوح المحفوظ ، أو المصحف ، فقال : كما أن اللوح المحفوظ الذي كتب فيه حروف القرآن لا يمسه إلا بدن طاهر فمعاني القرآن لا يذوقها إلا القلوب الطاهرة ، وهي قلوب المتقين كان هذا معنى صحيحا واعتباراً صحيحا ، ولهذا يروى هذا عن طائفة من السلف ، قال تعالى ﴿ آلم ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) وقال : ﴿ يَهْدِي بِهِ الله من اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلام ﴾ (٤) وأمثال ذلك .

وكذلك من قال : لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا جنب فاعتبر بذلك أن القلب لا يدخله حقائق الإيمان إذا كان فيه ما ينجسه من الكبر والحسد فقد أصاب .

---

(١) سورة الواقعة آية رقم ٧٩ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ١ ـ٢ .
(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٣٨ .
(٤) سورة المائدة آية رقم ١٦ .

قال تعالى ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ الله أَنْ يُطَهِّر قُلُوْبَهُمْ ﴾ [١] .

وقال تعالى ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرونَ في الأرْضِ بِغَيْرِ الحقِّ وَإنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهـا وَإنْ يَرَوْا سَبِيْلَ الرُّشْـدِ لا يَتَّخذُوهُ سَبِيلاً وإن يروا سبيل الغي يَتخِذوهُ سَبيلا ﴾ [٢] وأمثال ذلك .

و« كتاب حقائق التفسير » لأبي عبد الرحمن السلمي يتضمن ثلاثة أنواع :

« أحدها » نقول ضعيفة عمن نقلت عنه مثل أكثر ما نقله عن جعفر الصادق [٣] ، فإن أكثره باطل عنه ، وعامتها فيه من موقوف أبي عبد الرحمن ، وقد تكلم أهل المعرفة في نفس رواية أبي عبد الرحمن ، حتى كان البيهقي [٤] إذا حدث عنه يقول : حدثنا من أصل سماعه .

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٤١ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٤٦ .

(٣) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسن السبط الهاشمي القرشي أبو عبد الله ـ الملقب بالصادق سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية ، كان من أجلاء الصحابة وله منزلة رفيعة في العلم ، أخذ عنه جماعة ، منهم الامامان أبو حنيفة ومالك ، ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط ، له أخبار مع الخلفاء من بني العباس ، وكان جريئاً عليهم صداعاً بالحق ، له رسائل مجموعة في كتاب ورد ذكرها في كشف الظنون يقال إن جابر بن حيان قام بجمعها : ولد عام ٨٠ بالمدينة ، وتوفي بها عام ١٤٨ هـ . [راجع وفيات الأعيان ١ : ١٠٥ واليعقوبي ٣ : ١١٥]

(٤) هو أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر من أئمة الحديث ولد عام ٣٨٤ هـ في قرية خسروجورد من قرى بيهق ، ونشأ بها ورحل إلى بغداد ثم إلى الكوفة ومكة وغيرهما ، وطلب إلى نيسابور فلم يزل فيها إلى أن مات ونقل جثمانه إلى بلده عام ٤٥٨ هـ .
قال إمام الحرمين : ما من شافعي إلا وللشافعي فضل عليه غير البيهقي فإن له المنة والفضل على الشافعي لكثرة تصانيفه في نصرة مذهبه ، وقال الذهبي : لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهبا يجتهد فيه لكان قادراً على ذلك ، صنف زهاء ألف جزء منها السنن الكبرى والأسماء =

و« الثاني » أن يكون المنقول صحيحا ، لكن الناقل أخطأ فيما قال .

و« الثالث » نقول صحيحة عن قائل مصيب ، فكل معنى يخالف الكتاب والسنة فهو باطل ، وحجته داحضة وكل ما وافق الكتاب والسنة ، والمراد بالخطاب غيره إذا فسر به الخطاب فهو خطأ ، وإن ذكر على سبيل الاثارة والاعتبار والقياس ، فقد يكون حقاً وقد يكون باطلاً وقد تبين بذلك أن من فسر القرآن ، أو الحديث وتأوله على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين فهو مفتر على الله ، ملحد في آيات الله ، محرف للكلم عن مواضعه ، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد ، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام .

وأما ما يروى عن بعضهم من الكلام المجمل مثل قول بعضهم : لو شئت لأوقرت من تفسير فاتحة الكتاب [١] الخ .

فهذا إذا صح عمن نقل عنه كعلي وغيره ، لم يكن فيه دلالة على الباطن المخالف للظاهر بل يكون هذا من الباطن الصحيح الموافق للظاهر الصحيح وقد تقدم أن الباطن إذا أريد به ما لا يخالف الظاهر المعلوم فقد يكون حقاً ، وقد يكون باطلا ، ولكن ينبغي أن يعرف أنه قد كذب على عليّ وأهل بيته ، لا سيما على جعفر [٢] الصادق ما لم يكذب على غيره من الصحابة ، حتى إن الإسماعيلية والنصيرية يضيفون مذهبهم إليه ، وكذلك المعتزلة .

= والصفات ودلائل النبوة وغير ذلك . [راجع شذرات الذهب ٣ / ٨٠٤ ، طبقات الشافعية ٢ / ٣ ، وابن خلكان ١ : ٢٠ ، اللباب ١ / ١٦٥] .

(١) هذا الأثر لم نعثر عليه على كثرة تفتيشنا عنه في كتب الأحاديث المشتهرة ، ولم يوجد في تراجم الامام علي ولا في كتب التاريخ المعتمدة والله أعلم .

(٢) نسبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء ويقال : إنه سمي صادقاً لأنه لم يعرف عنه كذباً طوال حياته وصدق رسول الله ـ ﷺ ـ « والصدق يهدي الى البر »

وكذلك فرقة التصوف يقولون : إن الحسن البصري صحبه ، وأنه دخل المسجد فرأى الحسن يقص مع القصاص فقال : ما صلاح الدين ؟ قال : الورع .

قال : فما فساده ؟

قال : الطمع ، فأقره ، وأخرج غيره .

وقد اتفق أهل المعرفة بالمنقولات أن الحسن لم يصحب عليا ولم يأخذ عنه شيئا ، وإنما أخذ عن أصحابه كالأحنف بن قيس [1] وقيس بن سعد بن عباد [2] وأمثالهما ، ولم يقص الحسن في زمن علي ، بل ولا في زمن معاوية ، وإنما قص بعد ذلك وقد كانوا في زمن علي يكذبون عليه حتى كان الناس يسألونه ، كما ثبت في الصحيحين أنه قيل له :

هل عندكم من رسول الله ﷺ كتاب تقرأونه فقال : لا ، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا هذه الصحيفة ، وفيها أسنان الإبل ، وفكاك الأسير وألا يقتل مسلم بكافر .

---

(١) هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي سيد تميم وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين يضرب به المثل في الحلم ، ولد في البصرة وأدرك النبي ﷺ ولم يره ، ووفد على عمر حين آلت الخلافة إليه فاستبقاه عمر فمكث عاماً وأذن له فعاد إلى البصرة شهد الفتوح في خراسان واعتزل الفتنة يوم الجمل ثم شهد صفين مع علي ولي خراسان ، وكان يغلظ القول لمعاوية فسئل معاوية عن صبره عليه فقال : هذا الذي إذا غضب غضب له مائة ألف لا يدرون فيم غضب توفي عام ٧٢ هـ [راجع : ابن سعد ٧ / ٦٦ ، ابن خلكان ١ / ٢٣٠ ، تهذيب ابن عساكر ٧ / ١٠] .

(٢) هو قيس بن سعد بن عبادة بن ديلم الأنصاري الخزرجي المدني صحابي من دهاة العرب ، ذو الرأي والمكيدة في الحرب وأحد الأجواد المشهورين ، وكان يحمل راية الأنصار مع النبي ﷺ ، وفي البخاري إنه كان بين يدي النبي ﷺ بمنزلة الشرطي من الأمير ، استعمله عليّ رضي الله عنه على مصر سنة ٣٦ ، ٣٧ هـ ، كان على مقدمة الجيش يوم صفين ، مات سنة ٦٠ هـ ، في مدينة تفليس هارباً من معاوية له ١٦ حديثاً . [راجع : النووي ٢ / ٦١ ، تهذيب التهذيب ٨ / ٣٩٥ صفة الصفوة ١ / ٣٠٠]

وفي لفظ : هل عهد إليكم رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس ؟

فقال : لا .

وفي لفظ : إلا فهما يؤتيه الله عبداً في كتابه وأما العلم اللدنى » فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه ، وأتباعهم ما يحبه ، ما لا يفتح به على غيرهم .

وهذا كما قال علي : إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه وفي الأثر : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم [١] .

وقد دل القرآن على ذلك في غير موضع كقوله ﴿ ولو أنَّهم فَعَلُوا ما يُوْعَظُوْنَ بِهِ لكانَ خَيْراً لهم وَأَشَدَّ تَثْبِيتا وَإِذاً لآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً وَلَهَدَيْنَاهُم صِرَاطاً مُسْتَقيماً ﴾ [٢] .

فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به يهديه الله صراطاً مستقيماً .

وقال تعالى ﴿ يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتَّبعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ ﴾ [٣] .

وقال تعالى ﴿ والَّذينَ اهتدوا زَادَهُمْ هُدىً وآتاهُم تَقْوَاهُمْ ﴾ [٤] وقال : ﴿ إنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدى ﴾ [٥] وقال تعالى ﴿ ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فيهِ هُدىً للمُتَّقِيْنَ ﴾ [٦] وقال تعالى ﴿ هَذَا بَصائِرُ للنَّاس وَهُدىً وَرَحْمَةً

---

(١) هناك حديث أخرجه المسند ٥ : ٢٦٩ ـ حدثني أبي ، ثنا حسن ثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن أبي أمامة عن رسول الله ـ ﷺ بلفظ : ومن علم علماً أجرى له مثل ما علم » .

(٢) سورة النساء آية رقم ٦٦ ـ ٦٨ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ١٦ .

(٤) سورة محمد آية رقم ١٧ .

(٥) سورة الكهف آية رقم ١٣ .

(٦) سورة البقرة آية رقم ٢ .

لِقَومٍ يُوْقنُونَ ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ هَذا بصائرُ مِنْ رَبِّكُم وَهُدىً وَرَحْمَة لِقَومٍ يُؤْمِنُوْنَ ﴾ (٢) وأخبر أن اتباع ما يكرهه يصرف عن العلم والهدى كقوله : ﴿ فَلمَّا زَاغُوْا أَزَاغَ الله قُلُوْبَهُمْ ﴾ (٣) .

وقوله ﴿ وَأَقْسَمُوا بالله جَهْدَ أَيْمَانِهم لَئِنْ جَاءَتْهُم آيَةٌ لَيُؤمِنُنَّ بِها قُلْ إنَّما الآياتُ عِنْدَ الله وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُوْنَ . وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا به أول مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ في طُغْيانِهم يَعْمَهُوْنَ ﴾ (٤) أي : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ بها .

﴿ ونقلب أفئدتهم ﴾ أي يتركون الإيمان ، ونحن نقلب أفئدتهم لكونهم لم يؤمنوا أول مرة ، أي ما يدريكم أنه لا يكون هذا ، وهذا حينئذ . ومن فهم معنى الآية عرف خطأ من قال « أن » بمعنى لعل . واستشكل قراءة الفتح ، بل يعلم حينئذ أنها أحسن من قراءة الكسر ، وهذا باب واسع ، والناس في هذا الباب على ثلاثة أقسام ، طرفان ووسط .

فقوم يزعمون أن مجرد الزهد وتصفية القلب ، ورياضة النفس توجب

---

(١) سورة الجاثية آية رقم ٢٠ .

(٢) وسورة النحل آية رقم ٦٤ والاعراف آية رقم ٢٠٣ .

(٣) سورة الصف اية رقم ٥ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٠٩ - ١١٠ .
يقول الشيخ القرطبي : هذه آية مشكلة ، ولا سيما وفيها « ونذرهم في طغيانهم يعمهون » قيل المعنى ونقلب أفئدتهم » وأنظارهم يوم القيامة على لهب النار وحر الجمر «كما لم يؤمنوا» في الدنيا « ونذرهم » في الدنيا أي نمهلهم ولا نعاقبهم . فبعض الآية في الآخرة وبعضها في الدنيا ونظيرها ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ فهذه في الآخرة ، وبعضها في الدنيا ﴿ عاملة ناصبة ﴾ وقيل : ونقلب في الدنيا ، أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة لما دعوتهم وأظهرت المعجزة ، وفي التنزيل : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ والله أعلم .

حصول العلم بلا سبب آخر [1] .

وقوم يقولون: لا أثر لذلك ، بل الموجب للعلم العلم بالأدلة الشرعية أو العقلية .

وأما الوسط : فهو أن ذلك من أعظم الأسباب معاونة على نيل العلم ، بل هو شرط في حصول كثير من العلم ، وليس هو وحده كافياً ، بل لا بد من أمر آخر ، أما العلم بالدليل فيما لا يعلم إلا به ، وإما التصور الصحيح لطرفي القضية في العلوم الضرورية .

« عوامل تحصيل العلم النافع الذي تتحقق به النجاة »

وأما العلم النافع الذي تحصل به النجاة من النار ويسعد به العباد فلا يصلح إلا باتباع الكتب التي جاءت بها الرسل .

قال تعالى : **﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى . قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنْسَى . وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن ﴾** [2] الخ وقال تعالى **﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾** [3] .

---

(١) هذا كلام لا يقبله العقل الرشيد . إن من العوامل الأساسية في تحصيل العلم ـ التقوى قال تعالى **﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ﴾** سورة البقرة آية رقم ٢٨٢ ومن النظم الذي يسند الى الامام الشافعي :

شكوت الى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني الى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي

(٢) سورة طه آية رقم ١٢٣ ـ ١٢٧ .

(٣) سورة الزخرف آية رقم ٣٦ .

وقرأ ابن عباس وعكرمة « ومن يَعْشَ » بفتح الشين ، ومعناه يعمى ، يقال منه عشي يعشى عشاً =

فمن ظن أن الهدى والإيمان يحصل بمجرد طريق العلم مع عدم العمل به ، أو بمجرد العمل والزهد بدون العلم فقد ضل . وأضل منهما من سلك في العلم والمعرفة طريق أهل الفلسفة والكلام بدون اعتبار ذلك بالكتاب والسنة . ولا العمل بموجب العلم ، أو سلك في العمل والزهد طريق أهل الفلسفة والتصوف بدون اعتبار ذلك بالكتاب والسنة ولا اعتبار العمل بالعلم ، فأعرض هؤلاء عن العلم والشرع وأعرض أولئك عن العمل والشرع ، فضل كل منهما من هذين الوجهين ، وتباينوا تباينا عظيماً . حتى أشبه هؤلاء اليهود المغضوب عليهم ، وأشبه هؤلاء النصارى الضالين بل صار منهما من هو شر من اليهود والنصارى كالقرامطة [1] والاتحادية [2] وأمثالهم من الملاحدة الفلاسفة .

= إذا عمى ، ورجل أعشى وامرأة عشواء إذا كان لا يبصر ، ومنه قول الأعشى :

رأت رجلاً غائب الوافديـ ـن مختلف الخلق أعشى ضريرا

وقال آخر :

لنعم الفتى يعشو الى ضوء ناره إذا الريح هبت والمكان جديب

والعشا (مقصور) مصدر الأعشى وهو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار ، والمرأة عشواء

(١) تكلمنا عن جماعة القرامطة في كلمة وافية فليرجع عليها .

(٢) انظر ما كتبه الامام ابن تيمية جـ٢ : ص ٦٥ : ٦٦ وما بعدها بشأن الاتحاد والحلول والاباحة . وقوله أن مذهب الاتحادية مركب من ثلاث مواد : سلب الجهمية ، ومجملات الصوفية والزندقة الفلسفية ص ١٧٥ : ٢ وذكره لبعض الأنواع من تحريف الاتحادية لكلام الله تعالى ص ٢٠٠ ، ٢٠١ من المرجع السابق .

فصل
« تحقيق ما يقال أن النبي خص كل قوم بما يصلح لهم »

وأما قول القائل : إن النبي ﷺ خص كل قوم بما يصلح لهم [1] الخ ، فهذا الكلام له وجهان : إن أراد به أن الأعمال المشروعة يختلف الناس فيها بحسب اختلاف أحوالهم ، فهذا لا ريب [2] فيه ، فإنه ليس ما يؤمر به الفقير كما يؤمر به الغني ، ولا ما يؤمر به المريض كما يؤمر به الصحيح [3] ، ولا ما يؤمر به عند المصائب هو ما يؤمر به عند النعم ، ولا ما تؤمر به الحائض كما تؤمر به الطاهرة . ولا ما تؤمر به الأئمة كالذي تؤمر به الرعية ، فأمر الله لعباده قد يتنوع بتنوع أحوالهم ، كما قد يشتركون في أصل الايمان بالله وتوحيده ، والإيمان بكتبه ورسله . وإن أراد به أن الشريعة في نفسها تختلف ، وأن النبي ﷺ خاطب زيداً بخطاب يناقض ما خاطب به عمراً أو أظهر لهذا شيئاً يناقض ما أظهره لهذا ، كما يرويه الكذابون : أن عائشة سألته هل رأيت ربك ؟

فقال : لا ، وسأله أبو بكر فقال : نعم .

وأنه أجاب عن مسألة واحدة بجوابين متناقضين لاختلاف حال السائلين ، فهذا من كلام الكذابين المفترين . بل هو من كلام الملاحدة

---

(١) في (ب) حالهم بدلاً من (لهم)

(٢) في (ب) فهذا لا غبار عليه .

(٣) في (ب) السليم بدلاً من (الصحيح)

المنافقين ، فإن النبي ﷺ قال : ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين [١] والحديث في سنن أبي داود وغيره ، وكان عام الفتح قد أهدر دم جماعة منهم ابن أبي سرح ، فجاء به عثمان ليبايع النبي ﷺ فأعرض عنه مرتين أو ثلاثاً ثم بايعه ، ثم قال : أما كان فيكم رجل رشيد ينظر إلي وقد أعرضت عن هذا فيقتله ، فقال بعضهم هلا أومضت [٢] إلي يا رسول الله ؟

فقال « ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » وهذا مبالغة في استواء ظاهره وباطنه وسره وعلانيته ، وأنه لا يبطن خلاف ما يظهر على عادة المكارين المنافقين .

ولا ريب أن القرامطة وأمثالهم من الفلاسفة يقولون : إنه أظهر خلاف ما أبطن ، وأنه خاطب العامة بأمور أراد بها خلاف ما أفهمهم ، لأجل مصلحتهم ؛ إذ كان لا يمكنه صلاحهم إلا بهذا الطريق ، وقد زعم ذلك ابن سينا [٣] وأصحاب رسائل إخوان الصفا [٤] وأمثالهم من الفلاسفة والقرامطة

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في الحدود باب الحكم فيمن ارتد ٤٣٥٩ حدثنا عثمان بن أبي شيبه ، ثنا أحمد بن الفضل ، ثنا أسباط بن نصر ، قال : زعم السدي ، عن مصعب بن سعد ، عن سعد ، قال : لما كان يوم فتح مكة اختبأ عبد الله بن سعد بن أبي سرح عند عثمان بن عفان ، فجاء به حتى أوقفه على النبي - ﷺ - فقال : يا رسول الله بايع عبد الله ، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يأبى ، فبايعه بعد ثلاث ، ثم أقبل على أصحابه فقال : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم الى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله فقالوا : ما ندري يا رسول الله ما في نفسك ، ألا أومأت إلينا بعينك . . ؟ قال : إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » وأخرجه أيضاً في الجهاد ١١٧ ، وأخرجه النسائي في التحريم ١٤ .

(٢) الذي عند أبي داود « أومأت » بدلاً من (أومضت)

(٣) هو الحسين بن عبد الله بن سينا أبو علي شرف الملك الفيلسوف الرئيس صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعيات والالهيات ، أصله من بلخ ، مولده عام ٣٧٠ هـ في إحدى قرى بخارى ، طاف البلاد وناظر العلماء وتقلد الوزارة في همذان وثار عليه عسكرها ونهبوا بيته فتوارى ثم ذهب إلى أصفهان وفيها ألف أكثر كتبه ، قال ابن قيم الجوزية كان ابن سينا - =

الباطنية ، فإن ابن سينا كان هو وأهل بيته من أتباع الحاكم القرمطي العبيدي ، الذي كان بمصر .

وقول هؤلاء كما أنه من أكفر الأقوال فجهلهم من أعظم الجهل ؛ وذلك أنه إذا كان الأمر كذلك فلا بد أن يعلمه أهل العقل والذكاء من الناس وإذا علموه امتنع في العادة تواطؤهم على كتمانه كما يمتنع تواطؤهم على الكذب ، فإنه كما يمتنع في العادة تواطؤ الجميع على الكذب يمتنع تواطؤهم على كتمان ما تتوافر الهمم والدواعي على بيانه وذكره لا سيما مثل معرفة هذه الأمور العظيمة التي معرفتها والتكلم بها من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعي عليه .

ألا ترى أن الباطنية [1] ونحوهم أبطنوا خلاف ما أظهروه للناس ،

= كما أخبر عن نفسه ـ هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم من القرامطة الباطنيين ، وقال عنه ابن تيمية : كان يأخذ من الملاحدة المنتسبين إلى المسلمين كالاسماعيلية وكان أهل بيته من أهل دعوتهم من أتباع الحاكم الذي كان هو وأهل بيته معروفين بالإلحاد [راجع وفيات الأعيان ١ / ٢٥٢ ، تاريخ حكماء الاسلام من ٢٧ : ٧٢]

(٤) تألفت هذه الجماعة في القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) وكان موطنها البصرة ، ولها فرع في بغداد ، ولم يعرف من أشخاصها سوى خمسة يتغشاهم الغموض والشك ، ولا يسفر اليقين عن حقيقة أمرهم بما يطمئن إليه الخاطر ، وينشرح له الصدر لما كانوا عليه من التستر . ويؤخذ من كلام لأبي حيان التوحيدي ـ أثبته أحمد زكي باشا في مقدمته لرسائل الإخوان أن زيد بن رفاعة ، كان متهماً بمذهبه وأن الوزير صمصام الدولة بن عضد الدولة سأله عنه فقال : إني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولاً يريبني ، ومذهباً لا عهد لي به . وتنقسم رسائلهم الى أربعة أقسام : القسم الرياضي وهو أول الأقسام. الثاني القسم الطبيعي ويقتدون فيه بآراء أرسطو وفيثاغورس ، وأفلاطون. القسم الثالث : النفسانيات والعقليات وفيه اعتمدوا مذهب الافلاطونية الحديثة في تعليل صدور الموجودات عن الله بطريق الفيض ، وهو يختلف عما تقول به الأديان . القسم الزابع : خاص بالآراء والديانات وغايتهم التوفيق بين الدين والفلسفة . والحقيقة كما يقول « دي بور » أن يضعوا ديناً عقلياً يعلو الأديان جميعاً : قاتلهم الله أنى وجدوا وصدق ربي في قوله : ومن يبتغي غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » [راجع دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٠٦ بتصرف]

(١) هم الاسماعيلية ، وإنما لقبوا بهذا اللقب لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً ، =

وسمعوا في ذلك بكل طريق ، وتواطؤا عليه ما شاء الله ، حتى التبس أمرهم على كثير من أتباعهم ثم إنهم مع ذلك اطلع على حقيقة أمرهم جميع أذكياء الناس من موافقيهم ومخالفيهم ، وصنفوا الكتب في كشف أسرارهم ورفع أستارهم ، ولم يكن لهم في الباطن حرمة عند من عرف باطنهم ، ولا ثقة بما يخبرون به ، ولا التزام طاعة لما يأمرون ، وكذلك من فيه نوع من هذا الجنس .

فمن سلك هذه السبيل لم يبق لمن علم أمره ثقة بما يخبر به ، وبما يأمر به ، وحينئذ فينتقض عليه جميع ما خاطب به الناس ، فإنه ما من خطاب يخاطبهم به إلا ويجوزون عليه أن يكون أراد به غير ما أظهره لهم فلا يثقون بأخباره وأوامره ، فيختل عليه الأمر كله فيكون مقصوده صلاحهم ، فيعود ذلك بالفساد العظيم بل كل من وافقه فلا بد أن يظهر خلاف ما أبطن كاتباع من سلك هذه السبيل من القرامطة الباطنية وغيرهم لا تجد أحداً من موافقيهم إلا ولا بد أن يبين أن ظاهره خلاف باطنه .

ويحصل لهم بذلك من كشف الأسرار وهتك الأستار ما يصيرون به من شرار الكفار .

وإذا كانت الرسل تبطن خلاف ما تظهر فإما أن يكون العلم بهذا الاختلاف ممكناً لغيرهم ، وإما أن لا يكون ، فإن لم يكن ممكنا كان مدعي

= ولهم ألقاب كثيرة على حسب البقاع التي نشأوا فيها ، والمقالات التي دعو إليها ، فهم بالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية . وبخراسان يسمون التعليمية والملحدة ، وهم يقولون نحن « اسماعلية » لأنا تميزنا من فرق الشيعة بهذا الاسم وهذا الشخص ، والباطنية الأول قد ألفوا لهم مذهباً خلطوا فيه بين الفلسفة والتصوف ، وصنفوا فيه كتباً كثيرة ومن أفكارهم أنهم قالوا في الخالق جل شأنه : لا نقول فيه أنه موجود ، ولا عالم ولا قادر الخ فإن الاثبات الحقيقي يقتضي شركة بينه وبين سائر الموجودات ، في الجهة التي أطلقنا عليها ذلك التشبيه . وهذا قليل من كثير من خلطهم وكفرهم وضلالهم . [راجع دائرة معارف القرن العشرين ٢ : ٢٤٢]

ذلك كذاباً مفترياً ، فبطل قول هؤلاء الملاحدة الفلاسفة والقرامطة وأمثالهم ، وإن كان العلم بذلك ممكناً ، علم بعض الناس مخالفة الباطن للظاهر ، وليس لمن يعلم ذلك حد محدود ، بل إذا علمه هذا علمه هذا ، وعلمه هذا ، فيشيع هذا ويظهر ، ولهذا كان من اعتقد هذا في الأنبياء كهؤلاء الباطنية من الفلاسفة والقرامطة ونحوهم معرضين عن حقيقة خبره وأمره ، لا يعتقدون باطن ما أخبر به ، ولا ما أمر بل يظهر عليه من مخالفة أمره والإعراض عن خبره ما يظهر لكل أحد ، ولا تجد في أهل الإيمان من يحسن بهم الظن ، بل يظهر فسقهم ونفاقهم لعوام المؤمنين فضلاً عن خواصهم .

وأيضاً فمن كانت هذه حالة كان خواصه أعلم الناس بباطنه ، والعلم بذلك يوجب الانحلال في الباطن . ومن علم حال خاصة النبي ﷺ كأبي بكر وعمر وغيرهما من السابقين الأولين علم أنهم كانوا أعظم الناس تصديقاً لباطن أمر خبره وظاهره ، وطاعتهم له في سرهم وعلانيتهم ، ولم يكن أحد منهم يعتقد في خبره وأمره ما يناقض ظاهر ما بينه لهم ، ودلهم عليه وأرشدهم إليه .

ولهذا لم يكن في الصحابة من تأول شيئاً من نصوصه على خلاف ما دل عليه ، لا فيما أخبر به الله عن أسمائه وصفاته ، ولا فيما أخبر به عما بعد الموت ، وأن ما ظهر من هذا ما ظهر إلا ممن هو عند الأمة من أهل النفاق والاتحاد كالقرامطة والفلاسفة والجهمية نفاة حقائق الأسماء

ومن تمام هذا أن تعلم أن النبي ﷺ لم يخص أحداً من أصحابه بخطاب في علم الدين قصد كتمانه عن غيره ، ولكن كان قد يسأل الرجل عن المسألة التي لا يمكن جوابها فيجيبه بما ينفعه [1] كالأعرابي الذي سأله عن

---

(١) في صحيح البخاري عن علي موقوفاً حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله ، ونحوه في مقدمة صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة ، وروى البيهقي في الشعب عن المقدام بن معدي كرب مرفوعاً

الساعة ، والساعة لا يعلم متى هي ؟ فقال : ما أعددت لها ؟ فقال : ما أعددت لها من كثير عمل ، ولكني أحب الله ورسوله ، فقال : المرء مع من أحب [(١)] ، فأجابه بالمقصود من علمه بالساعة ، ولم يكن يخاطب أصحابه بخطاب لا يفهمونه ، بل كان بعضهم أكمل فهماً لكلامه من بعض ، كما في الصحيحين عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال :

« إن عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة فاختار ذلك العبد ما عند الله ، فبكى أبو بكر وقال : بل نفديك بأنفسنا وأموالنا يا رسول الله ، فجعل الناس يعجبون أن ذكر رسول الله ﷺ عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة ، قال : وكان رسول الله ﷺ هو المخير ، وكان أبو بكر أعلمنا به » [(٢)] .

فالنبي ﷺ ذكر عبداً مطلقاً لم يعينه .

= « إذا حدثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم بما يعزب عنهم ويشق عليهم » [راجع كشف الخفا ١ : ٢٢٦]

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ٦ باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي - رضي الله عنه ٣٦٨٨ - بسنده عن أنس - رضي الله عنه وفيه زيادة (قال أنس : فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي - ﷺ - أنت مع من أحببت » . قال أنس : فأنا أحب النبي - ﷺ - وأبا بكر وعمر ، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم ، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم » . وأخرجه في الأدب ٩٥ ، ٩٦ ، وأحكام ١٠ وأخرجه الامام مسلم في البر ١٦١ - ١٦٤ والترمذي في الزهد ٥٠ ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٠٤ ، ١١٠ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣ (حلبي)

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار ٤٥ باب هجرة النبي - ﷺ - وأصحابه إلى المدينة ٣٩٠٤ بسنده عن أبي سعيد الخدري وفيه زيادة [إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر إلا خلة الاسلام ، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر] . وأخرجه في الصلاة ٨٠ وفضائل الصحابة ٣ وأخرجه الامام مسلم في فضائل الصحابة (١) باب من فضائل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه ٢ (٢٣٨٢) بسنده عن أبي سعيد وأخرجه الترمذي في المناقب ١٥ والدارمي في المقدمة ١٤ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٨ ، ٤٧٨ ، ٤ : ٢١١ ، ٥ : ١٣٩ (حلبي)

ـ ولا في لفظه ما يدل عليه ، لكن أبو بكر لكمال معرفته بمقاصد الرسول ﷺ علم أنه هو ذلك العبد ، فلم يخص عنهم بباطن يخالف الظاهر ، بل يوافقه ولا يخالف مفهوم لفظه ومعناه .

وأما ما يرويه بعض الكذابين عن عمر أنه قال : « كان النبي ﷺ وأبو بكر يتحدثان وكنت كالزنجي بينهما ، فهذا من أظهر الأكاذيب المختلقة لم يروه أحد من علماء المسلمين في شيء من كتب أهل العلم ، وهو من أظهر الكذب ، فإن عمر أفضل الأمة بعد أبي بكر ، وهو المحدث الملهم الذي ضرب الله الحق على لسانه وقلبه وهو أفضل المخاطبين المحدثين من هذه الأمة [1] .

فإذا كان هو حاضرا يسمع الألفاظ ولم يفهم الكلام كالزنجي فهو يتصور أن يكون غيره أفهم منه لذلك ؟

فكيف من لم يسمع ألفاظ الرسول ؟

بل يزعم أن ما يدعيه من المعاني هي تلك المعاني بمجرد الدعوى التي لو كانت مجردة لم تقبل .

فكيف إذا قامت البينة على كذب مدعيها ؟

« حقيقة السر الذي خص الرسول به حذيفة »

وأما حديث حذيفة فقد ثبت في الصحيح« أن حذيفة كان يعلم السر الذي لا يعلمه غيره ، وكان ذلك ما أسره إليه النبي ﷺ عام تبوك من أعيان

---

(١) أخرج البخاري في كتاب فضائل الصحابة ٦ باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ٣٦٨٩ بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون ، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر » زاد زكرياء بن أبي زائدة عن سعد عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي منهم أحدٌ فعمر » .

المنافقين فإنه روى أن جماعة من المنافقين أرادوا أن يحلوا حزام ناقة رسول الله ﷺ بالليل ليسقط من بعيره فيموت ، وأنه أوحى إليه بذلك ، وكان حذيفة قريباً منه فأسر إليه أسماءهم [1] » .

ويقال : إن عمر لم يكن يصلي على أحد حتى يصلي عليه حذيفة ، وهذا ليس فيه شيء من حقائق الدين ، ولا من الباطن الذي يخالف الظاهر ، فإن الله قد ذكر في كتابه من صفات المنافقين وأخبارهم ما ذكره ، حتى إن سورة براءة سميت الفاضحة لكونها فضحت المنافقين وسميت المبعثرة ، وغير ذلك من الأسماء ، لكن القرآن لم يذكر فلانا وفلانا ، فإذا عرف بعض الناس أن فلانا من هؤلاء المنافقين الموصوفين كان ذلك بمنزلة تعريفه أن فلانا وفلاناً من المؤمنين الموعودين بالجنة ، فأخباره ﷺ أن أبا بكر وعمر وغيرهما في الجنة كإخباره أن أولئك منافقون .

وهذا إذا كان من العلم الباطن فهو من الباطن الموافق للظاهر المحقق له المطابق له .

ونظيره في الأمر ما يسمى : « تحقيق المناط » وهو أن يكون الشارع قد علق الحكم بوصف ، فتعلم ثبوته في حق المعين كأمره باستشهاد ذوي عدل ، ولم يعين فلانا وفلانا ، فإذا علمنا أن هذا ذو عدل كنا قد علمنا أن هذا

---

(١) أخرج البخاري في كتاب فضائل الصحابة ٢٠ باب مناقب عمار وحذيفة رضي الله عنهما ٣٧٤٣ بسنده عن مغيرة عن ابراهيم قال : ذهب علقمة الى الشام فلما دخل المسجد قال : اللهم يسر لي جليساً صالحاً فجلس إلى أبي الدرداء ، فقال أبو الدرداء : ممن أنت . . ؟ قال : من أهل الكوفة . قال : أليس فيكم أو منكم ـ صاحب السر الذي لا يعلمه غيره ؟ يعني حذيفة قال : قلت : بلى ، قال : أليس فيكم أو منكم الذي أجاره الله على لسان نبيه ﷺ ـ يعني من الشيطان ، يعني عماراً ، قلت : بلى ، قال : أليس فيكم ـ أو منكم ـ صاحب السواك ، والوساد ، أو السرار . . ؟ قلت : بلى ، قال : كيف كان عبد الله يقرأ ﴿ **والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى** ﴾ . . ؟ قلت . ﴿ **والذكر والأنثى** ﴾ قال : ما زال بي هؤلاء حتى كادوا يستنزلونني عن شيء سمعته من النبي ـ ﷺ ـ » .

المعين موصوف بالعدل المذكور في القرآن وكذلك لما حرم الله الخمر والميسر .

فإذا علمنا أن هذا الشراب المصنوع من الذرة والعسل خمراً علمنا أنه داخل في هذا النص ، فعلمنا بأعيان المؤمنين وأعيان المنافقين هو من هذا الباب . وهذا هو من تأويل القرآن .

وهذا على الإطلاق لا يعلمه إلا الله ، فإن الله يعلم كل مؤمن وكل منافق ، ومقادير إيمانهم ونفاقهم وما يختم لهم .

وأما الرسول فقد قال : قال تعالى ﴿ **وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُوْنَ وَمِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ مَرَدُوْا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذَابٍ عَظِيمٍ** ﴾ (١)

فالله يطلع رسوله ومن شاء من عباده على ما يشاء من ذلك .

وأما حديث أبي هريرة فهو حديث صحيح ، قال: «حفظت من رسول الله ﷺ جرابين ، فأما أحدهما فبثثته فيكم ، وأما الآخر : فلو بثثته لقطعتم هذا البلعوم (٢) .

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠١ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب العلم ٤٢ باب حفظ العلم ١٢٠ عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة وذكره .

قال صاحب الفتح : وحمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم ، وقد كان أبو هريرة يكنى عن بعضه ولا يصرح به خوفاً على نفسه منهم ، كقوله : أعوذ بالله من رأس الستين ، وإمارة الصبيان يشير الى خلافة يزيد بن معاوية، لأنها كانت سنه ستين من الهجرة ، واستجاب الله دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة ، قال ابن المنير : جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة الى تصحيح باطلهم ، حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهراً وباطناً وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين . قال : وإنما أراد أبو هريرة بقوله « قطع » أي قطع أهل الجور رأسه إذا سمعوا عيبه لفعلهم وتضليله لسعيهم ، =

ولكن ليس في هذا من الباطن الذي يخالف الظاهر شيء ، بل ولا فيه من حقائق الدين ، وإنما كان في ذلك الجراب الخبر عما سيكون من الملاحم والفتن فالملاحم الحروب التي بين المسلمين والكفار ، والفتن ما يكون بين المسلمين .

ولهذا قال عبد الله بن عمر : لو أخبركم أبو هريرة أنكم تقتلون خليفتكم ، وتفعلون كذا وكذا لقلتم كذب أبو هريرة وإظهار مثل هذا مما تكرهه الملوك وأعوانهم لما فيه من الأخبار بتغير دولهم .

ومما يبين هذا أن أبا هريرة إنما أسلم عام خيبر ، فليس هو من السابقين الأولين ، ولا من أهل بيعة الرضوان وغيره من الصحابة أعلم بحقائق الدين منه ، وكان النبي ﷺ يحدثه وغيره بالحديث فيسمعونه كلهم ، ولكن كان أبو هريرة أحفظهم للحديث ببركة حصلت له من جهة النبي ﷺ ، لأن النبي ﷺ حدثهم ذات يوم حديثا فقال : أيكم يبسط ثوبه فلا ينسى شيئا سمعه ففعل ذلك أبو هريرة .

وقد روي أنه كان يجزىء الليل ثلاثة أجزاء : ثلثاً يصلي وثلثاً ينام ، وثلثا يدرس الحديث ، ولم ينقل أحد قط عن أبي هريرة حديثا يوافق الباطنية ، ولا حديثا يخالف الظاهر المعلوم من الدين .

ومن المعلوم أنه لو كان عنده شيء من هذا لم يكن بد أن ينقل عنه أحد شيئا منه ، بل النقول المتواترة عنه كلها تصدق ما ظهر من الدين .

وقد روي من أحاديث صفات الله وصفات اليوم الآخر وتحقيق العبادات

= ويؤيد ذلك أن الأحاديث المكتوبة لو كانت من الأحكام الشرعية ما وسعه كتمانها لما ذكره في الحديث الأول من الآية الدالة على ذم من كتم العلم ، وقال غيره : يحتمل أن يكون أراد مع الصنف المذكور ما يتعلق بأشراط الساعة وتغير الأحوال والملاحم في آخر الزمان فينكر ذلك من لم يألفه ، ويعترض عليه من لا شعور له به .

ما يوافق أصول أهل الإيمان ويخالف قول أهل البهتان .

وأما ما يروى عن أبي سعيد الخراز وأمثاله في هذا الباب وما يذكره أبو طالب (1) في كتابه وغيره ، وكلام بعض المشايخ الذي يظن أنه يقول بباطن يخالف الظاهر ، وما يوجد من ذلك في كلام أبي حامد الغزالي أو غيره .

فالجواب عن هذا كله أن يقال : ما علم من جهة الرسول فهو نقل مصدق عن قائل معصوم ، وما عارض ذلك فإما أن يكون نقلاً عن غير مصدق أو قولاً لغير معصوم فإن كثيراً مما ينقل عن هؤلاء كذب عليهم ، والصدق من ذلك فيه ما أصابوا فيه تارة ، وأخطأوا فيه أخرى وأكثر عباراتهم الثابتة ألفاظ مجملة متشابهة لو كانت من ألفاظ المعصوم لم تعارض الحكم المعلوم فكيف إذا كانت من قول غير المعصوم .

وقد جمع أبو الفضل الفلكي كتابا من كلام أبي يزيد البسطامي (2) سماه .. النور من كلام طيفور .. فيه شيء كثير لا ريب أنه كذب على أبي يزيد البسطامي وفيه أشياء من غلط أبي يزيد ـ رحمة الله عليه ـ وفيه أشياء

---

(1) هو محمد بن علي بن عطيه الحارثي أبو طالب ، واعظ زاهد فقيه من أهل الجبل (بين واسط وبغداد) نشأ واشتهر بمكة ورحل الى البصرة واتهم بالاعتزال وتوفي ببغداد عام ٣٨٦ هـ من مصنفاته « قوت القلوب » .
قال الخطيب البغدادي : ذكر فيه أشياء منكرة مستشنعة في الصفات [راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٩ وميزان الاعتدال ٣ : ١٠٧ ، وتاريخ بغداد ٣ : ٨٩ ولسان الميزان ٥ : ٢٠٠]

(2) هو أبو يزيد البسطامي : طيفور بن عيسى البسطامي ، أبو يزيد ويقال با يزيد . له أخبار كثيرة ، كان ابن عربي يسميه أبا يزيد الأكبر نسبته الى بسطام (بلدة بين خراسان والعراق) أصله منها وولد فيها عام ١٨٨ . ووفاته بها عام ٢٦١ هـ قال المستشرقون عنه أنه كان يقول : بوحدة الوجود ، وكان أول قائل بمذهب الفناء ، ويعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية .
[راجع طبقات الصوفية ٦٧ ـ ٧٤ ووفيات الأعيان ١ : ٢٤٠ وميزان الاعتدال ١ : ٤٨١ ، وحلية الأولياء ١٠ : ٣٣ والشعراني ١ : ٦٥ ، والمناوي ١ : ٢٤٤ ودائرة المعارف الاسلامية ٣ : ٣٣١] .

حسنة من كلام أبي يزيد ، وكل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ . ومن قيل له عن أبي يزيد أو غيره من المشائخ : أنه قال لمريديه : إن تركتم أحداً من أمة محمد يدخل النار فأنا منكم بريء . فعارضه الآخر وقال : قلت لمريدي : إن تركتم أحداً من أمة محمد يدخل النار فأنا منكم بريء فصدق هذا النقل عنه . ثم جعل هذا المصدق لهذا عن أبي يزيد أو غيره يستحسنه ويستعظم حاله، فقد دل على عظيم جهله أو نفاقه . فإنه إن كان قد علم ما أخبر به الرسول من دخول من يدخل النار من أهل الكبائر ، وأن النبي ﷺ هو أول من يشفع فيهم بعد أن تطلب الشفاعة من الرسل الكبار ، كنوح وابراهيم وموسى وعيسى ، فيمتنعون ويعتذرون [1] ، ثم صدق أن مريدي أبي يزيد أو غيره يمنعون أحداً من الأمة من دخول النار ، أو يخرجون هم كل من دخلها كان ذلك كفرا منه بما أخبر به الصادق المصدوق

---

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الإيمان ٨٤ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ٣٢٢ (١٩٣) حدثنا أبو عوانه ، عن قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ « يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا قال : فيأتون آدم - ﷺ - فيقولون أنت آدم أبو الخلق خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك . اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول : لست هناكم ، فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله . قال فيأتون نوحاً ﷺ - فيقول لست هناكم . فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي من ربه منها، ولكن ائتوا ابراهيم الذي اتخذه الله خليلا ، فيأتون ابراهيم - ﷺ فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها فيقول ائتوا موسى - ﷺ . الذي كلمه الله وأعطاه التوراة قال : فيأتون موسى عليه السلام فيقول : لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته فيأتون عيسى روح الله وكلمته . فيقول لست هناكم ، ولكن ائتوا محمد ﷺ - عبداً قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخرت قال رسول الله - ﷺ - فيأتوني . فأستاذن على ربي فيؤذن لي . فإذا أنا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله . فيقال يا محمد : ارفع رأسك قل تسمع . سل تعطه اشفع تشفع الخ وأخرجه البخاري في كتاب التوحيد ١٩ ، ٢٤ ، ٣٦ ، وأخرجه الترمذي في تفسير سورة ١٧ والقيامة ١٥ وابن ماجه في الزهد ٣٧ واحمد بن حنبل في المسند ١ : ٥ ، ٢٨٢، ٢٣٦ ، ٢ : ٤٣٦ ، ٣ : ١١٦ (حلبي)

بحكاية منقولة كذب ناقلها ، أو أخطأ قائلها إن لم يكن تعمد الكذب ، وإن كان لا يعلم ما أخبر به الرسول كان من أجهل الناس بأصول الايمان .

« على المسلم اتباع المحكم المعلوم لا المشتبه المجهول »

فعلى المسلم الاعتصام بالكتاب والسنة ، وأن يجتهد في أن يعرف ما أخبر به الرسول وأمر به علما يقينيا وحينئذ فلا يدع المحكم المعلوم للمشتبه المجهول فإن مثال ذلك مثل من كان سائراً إلى مكة في طريق معروفة لا شك أنها توصله إلى مكة إذا سلكها فعدل عنها إلى طريق مجهولة لا يعرفها ولا يعرف منتهاها . وهذا مثال من عدل عن الكتاب والسنة إلى كلام من لا يدري هل يوافق الكتاب والسنة ، أو يخالف ذلك . وأما من عارض الكتاب والسنة بما يخالف ذلك فهو بمنزلة من كان يسير على الطريق المعروفة إلى مكة ، فذهب إلى طريق قبرص [1] يطلب الوصول منها إلى مكة ، فإن هذا حال من ترك المعلوم من الكتاب والسنة إلى ما يخالف ذلك من كلام زيد وعمرو كائناً من كان ، فإن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ وقد رأيت في هذا الباب من عجائب الأمور ما لا يحصيه إلا العليم بذات الصدور .

وأما الحديث المأثور : إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل

---

(١) قبرص : جمهورية (٩٢٥١ كم ٢ / ٥٩٠٠٠٠ نسمة) جزيرة في البحر المتوسط عاصمتها (نيقوسيا) معظم سكانها يونانيون وبها أقلية تركية . تنتج الكروم ، والقمح ، والزيتون ، والتبغ ، دخلتها المسيحية على يد بولس وبرنابا أعطيت (١١٩٢) لأسرة لوزينيان الفرنسية في أثناء الحروب الصليبية ، واستولت عليها البندقية ثم الترك ١٥٧١ ، وبريطانيا ١٨٧٨ ثارت ضد الحكم البريطاني بعد ١٩٥٠ م وطالب اليونانيون بالانضمام لليونان ، وتنازعوا مع الأقلية التركية ، وأقيمت الجمهورية عام ١٩٥٩ م بالاتفاق بين بريطانيا ، وتركيا ، واليونان ورأسها الأسقف مكاريوس وأعلن استقلالها عام ١٩٦٠ م وانضمت للأمم المتحدة راجع الموسوعة الثقافية ص ٧٥١ .

العلم بـالله ، [1] فإذا ذكـروه لم ينكره إلا أهـل العزة بـالله ، فهذا قـد رواه أبو اسماعيل الأنصاري شيخ الإسـلام في كتابـه الذي سمـاه « الفاروق بين المثبتة والمعطلة » وذكر فيه أحاديث الصفات صحيحها وغريبها ، ومسنـدها ومـرسلها وموقوفها ، وذكره أيضاً أبو حامد الغزالي في كتبه ، ثم هـذا يفسره بمـا يناسب أقواله التي يميل فيها إلى ما يشبه أقوال نفاة الصفات من الفلاسفة ونحوهـم .

وذكـر شيخ الإسـلام عن شيخه يحيى بن عمـار أنه كـان يقول : المـراد بذلك أحاديث الصفات ، فكان يفسر ذلك بما يناقض قول أبي حامد من أقوال أهل الإثبات ، والحديث ليس اسناده ثابتا باتفاق أهل المعرفة .

ولم يرو في أمهات كتب الحـديث المعتمدة فـلا يحتاج إلى الكـلام في تفسيـره ، وإذا قدر أن النبي ﷺ قـاله فهـو كلام مجمـل ليس فيـه تعيين لقـول معين ، فحينئذ فما من مـدع يدعي أن المـراد قولـه إلا كان لخصمـه أن يقول نظير ذلك ولا ريب أن قول يحيى بن عمار وأبي اسماعيل الأنصاري ونحـوهما من أهـل الإثبات أقـرب من قـول النفـاة أن هـذا العلم هـو من علم النبي ﷺ بالاتفاق وعلم الصحابة ومن المعلوم أن قول النفاة لا ينقله أحـد عن النبي ﷺ ولا أصحابه ، لا بـإسناد صحيـح ولا ضعيف ، بخلاف مـذهب المثبتة ، فـإن القرآن والحديث والآثار عن الصحابـة مملوءة به فكيف يحمـل كلام النبي ﷺ على علم لم ينقله عنـه أحـد ، ويتـرك حمله على العلم المنقـول عنـه وعن أصحـابه ؟! وكـذلـك مـا ذكـره البخـاري عن علي رضي الله عنـه أنـه قـال : « حـدثوا النـاس بما يعـرفـون ، ودعـوا مـا ينكـرون ، أتحبـون أن يكـذب الله ورسوله » [2] .

---

(1) هو عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي أبو اسماعيل شيخ خراسـان في عصره ، من كبار الحنابلة من ذرية أبي أيوب الأنصاري ، كان بـارعاً في اللغـة ، حافـظاً للحديث ، عـارفاً بالتاريخ والانساب من كتبه « ذم الكلام وأهله » والفـاروق في الصفات ، وكتـاب الأربعين في التوحيد توفي عام ٤٨١ هـ [راجع فوات الوفيات ١ : ٢٣٣ وطبقات الحنابلة ١ : ٦٤] .

(2) أخرج البخاري في كتاب العلم ٤٩ باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا . =

قد حمله أبو الوليد بن رشد الحفيد الفيلسوف وأمثاله على علوم الباطنية الفلاسفة نفاة الصفات ، وهـذا تحريف ظـاهر ، فـإن قول علي : أتحبـون أن يكذب الله ورسوله. دليل على أن ذلك مما أخبـر به النبي ﷺ ، وأقـوال النفاة من الفلاسفة والجهمية والقرامـطة والمعتزلـة لم ينقل فيهـا مسلم عن النبي ﷺ شيئا لا صحيحا ولا ضعيفا ، فكيف يكذب الله ورسوله في شيء لم ينقله أحد عن الله ورسوله ؟

بخلاف ما رواه أهل الإثبات من أحاديث صفات الـرب وملائكتـه وجنته وناره ، فإن هذا كثير مشهور قد لا تحتمله عقول بعض الناس ، فإذا حدث بـه خيف أن يكذب الله ورسوله .

ومن هذا الباب قول عبد الله بن مسعود : ما من رجل يحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم وابن مسعود فيما يقـول ذاكراً أو آمـراً من أعـظم النـاس اثبـاتـاً للصفـات ، وأرواهم لأحـاديثهـا ، وأصحـابـه من أجـل التابعين ، وأبلغهم في هذا الباب ، وكذلك أصحاب ابن عباس .

فكل من كان من الصحابة أعلم كـان إثباتـه وإثبات [1] أصحـابه أبلغ ،

= وقال علي : حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟

زاد آدام بن أبي إياس فيكتاب العلم له عن عبد الله بن داود عن معـروف في آخره (ودعـوا ما ينكـرون) أي يشتبه عليهم فهمـه ، وكذا رواه أبـو نعيم في المستخـرج ، وفيـه دليـل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عنه العامـة ، ومثله قول ابن مسعـود ما أنت محـدثاً قـوماً حـديثاً لا تبلغـه عقـولهم الا كـان لبعضهم فتنـة ، رواه مسلم ، وممن كـره التحـديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان ، ومالك في أحاديث الصفات ، وأبـو يوسف في الغرائب ، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقـدم عنه في الجـرابين وأن المراد مـا يقع من الفتن .

وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة ، وظاهره في الأصل غيـر مراد ، فـالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره ، مطلوب والله أعلم .

(١) سقط من (ب) لفظ (وإثبات)

فعلم أن الصحابة لم يكونوا يبطنون خلاف [1] ما يظهرون ، ولا يظهرون الإثبات ويبطنون النفي ولا يظهرون الأمر ويبطنون امتناعه [2] ، بل هم أقوم الناس بتصديق الرسول فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر وهذا باب واسع دخل فيه من الأمور ما لا يتسع هذا الموضع لتفصيله [3] ، ولكن نعلم جماع الأمر أن كل قول وعمل فلا بد [4] له من ظاهر وباطن ، فظاهر القول لفظ اللسان ، وباطنه ما يقوم من حقائقه ومعانيه [5] بالجنان ، وظاهر العمل حركات الأبدان ، وباطنه ما يقوم بالقلب من حقائقه ومقاصد الإنسان فالمنافق لما أتى بظاهر الإسلام دون حقائق الايمان لم ينفعه ذلك ، وكان من أهل الخسران ، بل كان في الدرك الأسفل من النار .

قال تعالى ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُوْلُ آمَنا بالله وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِيْن يُخَادِعُونَ الله والَّذِيْنَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشعُرُون** ﴾ [6] الآيات .

فإن الله أنزل في أول سورة البقرة أربع آيات في صفة المؤمنين ، وآيتين في صفة الكافرين ، وبضع عشرة آية في صفة المنافقين .

وقال تعالى ـ ﴿ **إذَا جَاءَكَ المُنَافِقُونَ قَالُوْا نَشْهَدُ إنَّكَ لَرَسُولُ الله وَالله يَعْلَمُ إنَّكَ لرسُوْلُهُ والله يَشْهَدُ إنَّ المنافقين لكاذِبُونَ** ﴾ [7] السورة وقال تعالى : ﴿ **لاَ يَحْزُنك الَّذِينَ يُسَارِعُوْنَ فِي الكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوْا آمَنا بِأفْوَاهِهِمْ**

---

(١) في (ب) بزيادة (الشيء الذي)
(٢) في (ب) غيره بدلاً من (امتناعه)
(٣) في (ب) بيانه بدلاً من (لتفصيله)
(٤) سقط من (ب) لفظ (فلا بد)
(٥) في (أ) بزيادة لفظ (ومعانيه)
(٦) سورة البقرة آية رقم ٨ ـ ٩ .
(٧) سورة المنافقون آية رقم (١) .

وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الآية [1] .

« الملاحدة تدعي أن ابطان الكفر حقيقة الايمان »

والملاحدة يظهرون موافقة المسلمين ويبطنون خلاف ذلك ، وهم شر من المنافقين .

فإن المنافقين نوعان :

نوع يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، ولا يدعي أن الباطن الذي يبطنه من الكفر هو حقيقة الإيمان .

والملاحدة تدعي أن ما تبطنه من الكفر هو حقيقة الإيمان وأن الأنبياء والأولياء هم من جنسهم يبطنون ما يبطنونه مما هو كفر وتعطيل ، فهم يجمعون بين إبطان الكفر وبين دعواهم أن ذلك الباطن هو الإيمان عند أهل العرفان فلا يظهرون للمستجيب لهم أن باطنه طعن في الرسول والمؤمنين وتكذيب له ، بل يجعلون ذلك من كمال الرسول وتمام حاله ، وأن الذي فعله هو الغاية في الكمال وأنه لا يفعله إلا أكمل الرجال من سياسة الناس على السيرة العادلة وعمارة العالم على الطريقة الفاضلة وهذا قد يظنه طوائف حقاً باطناً وظاهراً فيؤول أمرهم إلى أن يكون النفاق عندهم هو حقيقة الإيمان ، وقد علم بالاضطراد أن النفاق ضد الإيمان .

ولهذا كان أعظم الأبواب التي يدخلون منها باب التشيع والرفض لأن الرافضة هم أجهل الطوائف وأكذبها وأبعدها عن معرفة المنقول والمعقول ، وهم يجعلون التقية من أصول دينهم ويكذبون على أهل البيت كذباً لا يحصيه إلا الله ، حتى يرووا عن جعفر الصادق أنه قال : التقية ديني ودين آبائي و« التقية » [2] هي شعار النفاق ، فإن حقيقتها عندهم أن يقولوا بألسنتهم ما

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٤١ .

(٢) من أشهر أقوال الشيعة التقية ، وهي لغة الصيانة والحفظ يقال : وقاه صانه ، ووقيت الشيء =

ليس في قلوبهم ، وهذا حقيقة النفاق .

ثم إذا كان هذا من أصول دينهم صار كل ما ينقله الناقلون عن علي أو غيره من أهل البيت مما فيه موافقة أهل السنة والجماعة يقولون : هذا قالوه على سبيل التقية ، ثم فتحوا باب النفاق للقرامطة الباطنية الفلاسفة من الاسماعيلية والنصيرية ونحوهم فجعلوا ما يقوله الرسول هو من هذا الباب أظهر به خلاف ما أبطن ، وأسر به خلاف ما أعلن ، فكان حقيقة قولهم أن الرسول هو امام المنافقين ، وهو ﷺ الصادق المصدوق المبين للناس ما نزل إليهم ، المبلغ لرسالة ربه ، المخاطب لهم بلسان عربي مبين .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رسُوْلٍ إلاّ بِلسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ إنَّا جَعَلنَاهُ قُرآناً عربيًا لعلكم تعقِلُوْن ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ (٣) .

وقال تعالى ﴿ فَإنَّما يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ به المُتَّقِيْنَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّا ﴾ (٤) .

= أقيه أي صنته وسترته من الأذى ، ووقاه ما يكره حماه منه ، ووقاه الله وقاية : أي حفظه ويرى الشيعة أن التقية أصل من أصول عقيدتهم ، ومبدأ أساسي من مبادئهم التي تواصوا بها ، وكان هذا سببا يجعل للكلام عندهم معان خفية ، فجعلوا له ظاهراً يفهمه الناس ، وباطناً يفهمه الخاصة منهم ، وبذلك صاروا أقدر الفرق على العمل في الخفاء والمراد بها : كتمان الحق وستر الاعتقاد فيه ، وقد جاء في كتاب الكافي في الأصول للكليني ـ الذي يعتبره الشيعة بمنزلة صحيح البخاري عند أهل السنة ومما ورد فيه : أن الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال لأصحابه يوصيهم . . فإذا حضرت بلية فاجعلوا أموالكم دون أنفسكم ، فإذا نزلت نازلة فاجعلوا أنفسكم دون دينكم ، واعلموا أن الهالك من هلك دينه » . [راجع أصول الكافي ص ٥٣]

(١) سورة ابراهيم آية رقم ٤ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٣ .

(٣) سورة القمر آية رقم ١٧ .

(٤) سورة مريم آية رقم ٩٧ .

وقـال تعالى ﴿ لِسَـانُ الَّـذِي يُلْحِـدُونَ إِلَيْـهِ أَعْجَميّ وَهَـذَا لِسَـانٌ عَـرَبيٌّ مُبِيْنٌ ﴾ (١)

وقال تعالى ﴿ إِنّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرأناه فَاتَّبِـعْ قُرْآنَـهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (٢) .

وقـال تعالى ﴿ كِتَـابٌ أَنْزَلنـاهُ إِلَيْكَ مُبَـارَكٌ لِيدَّبـرُوا آيَاتِـه وَلِيَتَذَكَّـرَ أُوْلُوْا الأَلْبَاب ﴾ (٣)

وقال تعالى ﴿ أفلا يَتَدَبرُوْن القُرْآن أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٤) .

وقال تعالى ﴿ فَهَلْ عَلى الرُّسُلِ إِلاّ البَلاغُ المُبِينُ ﴾ (٥)

« جماعة الرسل عليهم السلام بلغوا البلاغ المبين »

وقـالت الرسـل : ﴿ ربُّنا يَعْلَمُ إِنَّـا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُوْنَ وَمَـا عَلَيْنَا إِلاَّ البَـلاَغُ المُبِيْنُ ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ أَطِيْعُوا الله وَأَطِيعُـوا الرَّسُـول فإِنْ تَـوَلُّوا فَـإنما عليـه ما حُمِّـل وَعَلَيْكُمْ مَـا حُملتُمْ وَإنْ تُـطِيعُـوهُ تهتـدوا وَمَـا عَلى الـرَّسُـولِ إلاَّ البَـلاغُ المبين ﴾ (٧) .

وقال تعالى ﴿ وَأَطِيعُوا الله وأطيعوا الرَّسُول فَإِنْ تَوَلَّيْتم فَإِنَّما عَلَى رَسُوْلِنَا

---

(١) سورة النحل آية رقم ١٠٣ .
(٢) سورة القيامة الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .
(٣) سورة ص آية رقم ٢٩ .
(٤) سورة محمد آية رقم ٢٤ .
(٥) سورة النحل آية رقم ٣٥ .
(٦) سورة يس آية رقم ١٦ ـ ١٧ .
(٧) سورة النور آية رقم ٥٤ .

البلاغُ المُبِيْنُ ﴾ [1] .

وقال تعالى ﴿ يا أيها الرسول بَلِّغْ ما أُنْزِل إلَيْـكَ مِنْ رَبِّك وإنْ لَمْ تَفْعَـلْ فما بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [2] .

فهذا ونحوه مما يبين أن الرسل عليهم أن يبلغوا البلاغ المبين .

يقال : بان الشيء وأبان واستبان وتبين وبين ، كلهـا أفعال لازمـة ، وقد يقال : أبان غيره وبينه وتبينه واستبانـه ومعلوم أن الرسـل فعلوا ما عليهم ، بـل قد أخذ الله على أهل العلم الميثاق بأن يبينوا العلم ولا يكتموه ، وذم كاتميه ، فقال تعالى :

﴿ وَإذْ أَخَـذَ الله مِيْثَـاقَ الَّـذِيْنَ أُوْتُوْا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنـهُ لِلنَّـاسِ وَلاَ تَكْتُمونَهُ ﴾ [3] .

وقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادةً عِنْدهُ مِنَ اللهِ ﴾ [4]

وقال تعالى ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنَا مِنَ البيِّنَاتِ والهُدى مِنْ بَعْدِ مَـا بَيَّناهُ لِلنَّاس في الكِتَابِ أوْلَئِكَ يَلْعَنُهُم الله وَيَلْعَنُهُم اللاّعِنُوْنَ ﴾ [5] .

فقد لعن كاتمه ، وأخبر أنه بينه للناس في الكتاب فكيف يكـون قد بينـه للناس ، وهو قد كتم الحق وأخفاه وأظهر خلاف ما أبطن ؟ .

فلو سكت عن بيـان الحق كان كـاتما ، ومن نسب الأنبيـاء إلى الكـذب والكتمـان مع كـونه يقـول إنهم أنبياء فهـو من أشـر المنـافقين وأخبثهم وأبينهم

---

(1) سورة التغابن آية رقم ١٢ .
(2) سورة المائدة آية رقم ٦٧ .
(3) سورة آل عمران آية رقم ١٨٧ .
(4) سورة البقرة آية رقم ١٤٠ .
(5) سورة البقرة آية رقم ١٥٩ .

تناقضا . وكثير من أهل النسك والعبادة والعلم والنظر ممن سلك طريق بعض الصوفية والفقراء ، وبعض أهل الكلام والفلسفة يسلك مسلك الباطنية في بعض الأمور لا في جميعها حتى يرى بعضهم سقوط الصلاة عن بعض الخواص أو حل الخمر وغيرها من المحرمات لهم ، أو أن لبعضهم طريقا إلى الله عز وجل غير متابعة الرسول .

وقد يحتج بعضهم بقصة موسى (١) والخضر (٢) ، ويظنون أن الخضر خرج عن الشريعة ، فيجوز لغيره من الأولياء ما يجوز له من الخروج عن الشريعة وهم في هذا ضالون من وجهين :

« أحدهما » أن الخضر لم يخرج عن الشريعة : بل الذي فعله كان جائزا في شريعة موسى ، ولهذا لما بين له الأسباب أقره على ذلك ، ولو لم يكن جائزاً لما أقره ، ولكن لم يكن موسى يعلم الأسباب التي بها أبيحت تلك ، فظن أن الخضر كالملك الظالم فذكر ذلك له الخضر .

و« الثاني » أن الخضر لم يكن من أمة موسى ، ولا كان يجب عليه متابعته ، بل قال له : إني على علم من علم الله علمنيه الله ، لا تعلمه ،

---

(١) موسى اسم معرب أصله موشا ، وهو بالعبرية : الماء ، وشا : الشجر سمي به لأنه وجد في الماء والشجر الذي كان حول قصر فرعون في عين الشمس ، وهو موضع معروف بمصر لا ينبت شجر البلسان إلا فيه قيل : سئل النبي - ﷺ - ما بال الله أكثر من ذكر موسى في القرآن فقال : لأن الله يحبه ، ومن أحب شيئاً أكثر ذكره .

(٢) الخضر عليه السلام فيه لغتان : فتح الخاء وكسر الضاد وكسر الخاء وسكون الضاد ، وهو لقب واسمه : بليا بفتح الباء الموحدة وسكون اللام بعدها مثناه تحتيه ، ابن ملكان بفتح الميم وسكون اللام ابن فالغ بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وكان أبوه من الملوك واختلفوا في سبب تلقيبه بالخضر فقال الأكثرون لأنه جلس على فروة بيضاء فصارت خضراء ، والفروة وجه الأرض وقيل : الهشيم من النبات ، وقيل لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله والصحيح الأول لما في الحديث الصحيح من سند البخاري : إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء ، وهذا نص صريح في سبب تلقيبه ، وكنية الخضر : أبو العباس ، والله أعلم . [راجع بصائر ذوي التمييز ٦ : ٧٦]

وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه ، وذلك أن دعوة موسى لم تكن عامة فإن النبي كان يبعث إلى قومه خاصة ، ومحمد ﷺ بعث إلى الناس كافة ، بل بعث إلى الإنس والجن باطناً وظاهراً ، فليس لأحد أن يخرج عن طاعته ومتابعته ، لا من الباطن ، ولا من الظاهر ، لا من الخواص ، ولا من العوام . ومن هؤلاء من يفضل بعض الأولياء على الأنبياء وقد يجعلون الخضر من هؤلاء .

وهذا خلاف ما أجمع عليه مشائخ الطريق المقتدى بهم دع عنك سائر أئمة الدين وعلماء المسلمين ، بل لما تكلم الحكيم الترمذي [1] في كتاب « ختم الأولياء » بكلام ذكر أنه يكون في آخر الأولياء من هو أفضل من الصحابة ، وربما لوح بشيء من ذكر الأنبياء قام عليه المسلمون ، وأنكروا ذلك عليه ونفوه من البلد بسبب ذلك ، ولا ريب أنه تكلم في ذلك بكلام فاسد باطل لا ريب فيه .

ومن هناك ضل من اتبعه في ذلك ، حتى صار جماعات يدعي كل واحد أنه خاتم الأولياء كابن عربي صاحب الفصوص ، وسعد الدين بن حمويه وغيرهما ، وصار بعض الناس يدعي أن في المتأخرين من يكون أفضل في العلم بالله من أبي بكر وعمر والمهاجرين والأنصار ، إلى أمثال هذه المقالات التي يطول وصفها ، مما هو باطل بالكتاب والسنة والإجماع ، بل طوائف كثيرون آل الأمر بهم إلى مشاهدة الحقيقة الكونية القدرية ، وظنوا أن من شهدها سقط عنه الأمر والنهي والوعد والوعيد ، وهذا هو دين المشركين الذين

(١) هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر أبو عبد الله الحكيم الترمذي باحث صوفي ، عالم بالحديث وأصول الدين من أهل « ترمذ » نفي منها بسبب تصنيفه كتاباً خالف فيه ما عليه أهلها ، فشهدوا عليه بالكفر ، وقيل فضل الولاية على النبوة ، وفي لسان الميزان أن أهل ترمذ هجروه في آخر عمره لتأليفه كتاب « ختم الولاية » وعلل الشريعة من كتبه « نوادر الأصول في أحاديث الرسول » وغير ذلك توفي عام ٣٢٠ هـ [راجع لسان الميزان ٥ : ٣٠٨ ومفتاح السعادة ٢ : ١٧٠] .

قالوا ﴿ لَوْ شَاءَ الله ما أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ [١] .

وهؤلاء شر من القدرية المعتزلة ، الذين يقرون بالأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، ويكذبون بالقدر فإن أولئك يشبهون المجوس ، وهؤلاء يشبهون المشركين المكذبين بالأنبياء والشرائع ، فهم من شر الناس ، وقد بسط الكلام على هذه الأمور في غير هذا الموضع [٢] .

و« المقصود هنا » أن الظاهر لا بد له من باطن يحققه ويصدقه ويوافقه ، فمن قام بظاهر الدين من غير تصديق بالباطن فهو منافق ، ومن ادعى باطنا يخالف ظاهراً فهو كافر منافق ، بل باطن الدين يحقق ظاهره ويصدقه ويوافقه ، وظاهره يوافق باطنه ويصدقه ويحققه ، فكما أن الإنسان لا بد له من روح وبدن ، وهما متفقان فلا بد لدين الإنسان من ظاهر وباطن يتفقان ، فالباطن للباطن من الإنسان والظاهر للظاهر منه .

« الباطن أصل الظاهر »

والقرآن مملوء من ذكر أحكام الباطن والظاهر . والباطن أصل الظاهر ، كما قال أبو هريرة : القلب ملك والأعضاء جنوده ، وإذا خبث الملك خبثت جنوده وقد قال النبي ﷺ : ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب [٣] وفي المسند عن النبي ﷺ أنه قال : « الإسلام علانية والإيمان في القلب » [٤] .

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٤٨ وقد وردت الآية في الأصل ﴿ ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾ أي بزيادة (من دونه) ولعلها خطأ من الناسخ .

(٢) راجع ما كتبه الإمام ابن تيمية في الجزء الثاني من كتاب الفتاوى ط السعودية .

(٣) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء .

وقد قال تعالى ﴿ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمانَ وَأَيَّدهُمْ بِرُوْحٍ مِنْهُ ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِيْنَة فِي قُلُوبِ المُؤْمِنِيْنَ لِيزْدَادُوْا إيْمَاناً مَعَ إيْمانهِم ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ فَمَنْ يُرِدِ الله أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كأنّما يصَّعَدُ في السَّماء ﴾ (٣) .

وقال تعالى ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِيْنَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُم إلى ذِكرِ الله ﴾ (٤) .

وقال تعالى ﴿ إنَّما المُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ إذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُم وَإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إيْماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتوكَّلُونَ ﴾ (٥) .

وقال تعالى ﴿ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَتَطْمَئِنُ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ألا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُ الْقُلُوبُ ﴾ (٦) وأمثال هذا كثير في القرآن .

وقال في حق الكفار : ﴿ أُولئِكَ الَّذِين لم يرد الله أنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُم ﴾ (٧) .

وقال : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ (٨) وأمثال ذلك فنسأل الله العظيم أن يصلح بواطننا وظواهرنا ،

---

(١) سورة المجادلة آية رقم ٢٢ .
(٢) سورة الفتح آية رقم ٤ .
(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٢٥ .
(٤) سورة الزمر آية رقم ٢٣ .
(٥) سورة الأنفال آية رقم ٢ .
(٦) سورة الرعد آية رقم ٢٨ .
(٧) سورة المائدة آية رقم ٤١ .
(٨) سورة البقرة آية رقم ٧ « الغشاوة على الأبصار والغشاء : الغطاء . ومنه غاشية السرج ، =

ويوفقنا لما يحبه ويرضاه من جميع أمورنا بمنه وكرمه . والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد .

وآله وصحبه ، وسلم تسليما كثيرا .

= وغشيت الشيء أغشيه قال النابغة :

هلا سألت بني ذبيان ما حسبي   إذا الدخان تغْشى الأشمط البرما

وقال آخر :

صحبتك إذعيني عليها غشاوة   فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

قال ابن كيسان : فإن جمعت غشاوة قلت : غشاء بحذف الهاء وحكى الفراء : غشاوى مثل أداوي ، وقرىء : غشاوة بالنصب على معنى وجعل ، فيكون من باب قوله :

علفتها تبناً وماءاً بارداً .

وقول الآخر :

يا ليت زوجك قد غدا   متقلداً سيفاً ورمحا

وقال بعض المفسرين : الغشاوة على الأسماع والأبصار ، والوقف على قلوبهم . وقال آخرون : الختم في الجميع ، والغشاوة هي الختم فالوقف على « غشاوة » وقرأ الحسن « غُشاوة » بضم الغين وقرأ أبو حيوة بفتحها ، وروي عن أبي عمرو : غشوة ، رده الى أصل المصدر . قال ابن كيسان : ويجوز غشوة وغشوه واجودها غِشاوة كذلك تستعمل العرب في كل ما كان مشتملاً على الشيء نحو عِمامة وكِنانة وقِلادة ، وعِصابة ، وغير ذلك .

« الاكليل في المتشابه والتأويل »

فصل

في أنواع القلوب

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم قوله تعالى ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلك مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبيٍّ إلاَّ إذَا تَمنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ في أُمْنِيَّتِهِ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **لِيَجْعَل مَا يُلقي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالقاسية قُلُوبهُم وأنَّ الظَّالِمِيْنَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيْدٍ ، وَليَعْلَمَ الَّذِيْنَ أُوتُوا العِلْم أَنَّهُ الحقُ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبهُم وَإنَّ الله لهادِ الَّذِين آمَنُوا إلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ (١) .

---

(١) سورة الحج آية رقم ٥٢ .

قال ابن كثير ٣ : ٢٢٩ : قد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق ، ولكنها من طرق مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم . وسرد ابن كثير بعض الروايات في هذه القصة ثم قال في آخرها : وكلها مرسلات ومنقطعات والله أعلم . اهـ

والحق أن روايات هذه القصة معلة بالإرسال والضعف والجهالة وليس فيها رواية صحيحة تصلح للاحتجاج ، بل فيها ما لا يليق بمقام النبوة والرسالة ، وذكر في معظمها أن الشيطان تكلم على لسان رسول الله - ﷺ - بما فيه مدح للأصنام بهذه الجملة الباطلة « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » وكيف يكون مثل ذلك مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله - ﷺ - وذلك مما يدل على عدم صحة مثل هذه الروايات سنداً ومتناً ، وممن تكلم من العلماء على هذه القصة وبين بطلانها بكلام طويل : القاضي أبو بكر بن العربي ، والقاضي عياض ، والشوكاني ، والألوس وغيرهم .

جعل الله القلوب ثلاثة أقسام :

قاسية ، وذات مرض ، ومؤمنة مخبتة . وذلك لأنها إما أن تكـون يابسـة جامدة لا تلين للحق اعترافاً وإذعاناً ، أو لا تكون يابسة جامدة .

فـ « الأول » هو القاسي وهو الجامد اليابس بمنزلة الحجـر لا ينطبـع ولا يكتب فيه الإيمان ، ولا يرتسم فيه العلم ؛ لأن ذلك يستدعي محلاً لينا قابلا . و« الثاني » لا يخلو إما أن يكون الحق ثابتاً فيه لا يزول عنه لفوته مـع لينه ، أو يكون لينه مع ضعف وانحلال .

فالثاني هوَ الذي فيه مرض ، والأول هو القوي اللين . وذلـك أن القلب بمنزلة أعضاء الجسد كاليد مثـلاً ، فإمـا أن تكون جـامدة يـابسة لا تلتـوي ولا تبـطش بعنف فذلـك مثل القلب القـاسي ، أو تكون ضعيفـة مريضـة عـاجـزة لضعفها ومرضها فذلك مثل الذي فيه مرض ، أو تكون باطشة بقوة ولين ، فهو مثل القلب العليم الرحيم ، فبـالرحمـة خرج عن القسـوة ، وبالعلم خـرج عن المـرض ، فإن المـرض من الشكوك والشبهـات ولهـذا وصف من عـدا هؤلاء بالعلم والإيمان والاخبات وفي قوله ﴿ **وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتـوا العِلْم أَنَّهُ الحقُ مِنْ رَبِّـكَ فَيُؤْمِنُـوا بِـهِ فَتُخْبِتَ لَـهُ قُلُوبُهم** ﴾ [1] دليـل على أن العلم يـدل على

---

(١) سورة الحج آية رقم ٥٤ قال القاضي عياض في كتاب الشفا : أعلم أكرمك الله أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين . أحدهما : في توهين أصله والثاني على تسليمه . أما المأخذ الأول ، فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه بسند صحيح سليم متصـل ثقة ، وإنمـا أولع بـه وبمثله المفسرون والمؤرخـون المـولعـون بكـل غـريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم . قال أبو بكر البزار : وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ـ ﷺ باسناد متصل يجوز ذكره إلا ما رواه شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحب والشك في الحديث أن النبي ـ ﷺ ـ كان بمكة وذكر القصة ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد وغيره يرسله عن سعيد بن جبير ، وإنما يعرف عن الكلبي عن ابن عباس ، فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه .

الإيمان ، ليس أن أهل العلم ارتفعوا عن درجة الإيمان ـ كما يتوهمه طائفة من المتكلمة ـ بل معهم العلم والإيمان ، كما قال تعالى ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُوْنَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ والمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [1] .

وقال تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِيْنَ أُوْتُوا العِلْمَ وَالإِيْمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ في كِتَابِ اللهِ ﴾ [2] الآية . وعلى هذا فقوله ﴿ والرَّاسِخُوْنَ في العِلْمِ يَقُوْلُوْنَ آمَنَّا بِهِ كُلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ نظير هذه الآية فإنه أخبر هنا أن الذين أوتوا العلم يعلمون أنه الحق من ربهم ، وأخبر هناك أنهم يقولون في المتشابه ﴿ آمَنا بِهِ كُلٌ مِنْ عِند رَبِّنَا ﴾ [3] وكلا الموضعين موضع ريب وشبهة لغيرهم ، فإن الكلام هناك في المتشابه وهنا فيما يلقى الشيطان مما ينسخه الله ثم يحكم الله آياته ، وجعل المحكم هنا ضد الذي نسخه الله مما ألقاه الشيطان ، ولهذا قال طائفة من المفسرين المتقدمين أن « المحكم » هو الناسخ ، و« المتشابه » المنسوخ ، أرادوا والله أعلم قوله ﴿ فَيَنْسَخُ الله مَا يُلقى الشيطانُ ثم يُحكِمُ الله آيَاتِهِ ﴾ [4]

والنسخ هنا رفع ما ألقاه الشيطان لا رفع ما شرعه الله .

---

(١) سورة النساء اية رقم ١٦٢ .

(٢) سورة الروم آية رقم ٥٦ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٤) سورة الحج آية رقم ٥٢ قال أحمد بن حنبل بمصر صحيفة في التفسير ، رواها علي بن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثير ، والمعنى عليه : أن النبي ـ ﷺ كان إذا حدث نفسه ألق الشيطان في حديثه على جهة الحيلة فيقول : لو سألت الله عز وجل أن يغنمك ليتسع المسلمون ، ويعلم الله عز وجل أن الصلاح في غير ذلك ، فيبطل ما يلقى الشيطان كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنه . وحكى الكسائي والفراء جميعاً تمنى إذا حدث نفسه ، وهذا هو المعروف في اللغة وحكيا أيضاً تمنى إذا تلا ، وروى عن ابن عباس أيضاً وقال مجاهد والضحاك وغيرهما ، وقال أبو الحسن بن مهدي ، ليس هذا التمني من القرآن والوحي في شيء ، وإنما كان النبي ـ ﷺ إذا صفرت يداه من المال ، ورأى ما بأصحابه من سوء الحال . تمنى الدنيا بقلبه ووسوسة الشيطان ، وذكر المهدوي عن ابن عباس أن المعنى إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه وهو اختيار الطبري .

وقد أشرت إلى وجه ذلك فيما بعد ، وهو أن الله جعل المحكم مقابل المتشابه تارة ، ومقابل المنسوخ أخرى ، والمنسوخ يدخل فيه في اصطلاح السلف - العام - كل ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح كتخصيص العام وتقييد المطلق فإن هذا متشابه لأنه يحتمل معنيين ، ويدخل فيه المجمل فإنه متشابه ، وإحكامه رفع ما يتوهم فيه من المعنى الذي ليس بمراد ، وكذلك ما رفع حكمه فإن في ذلك جميعه نسخاً لما يلقيه الشيطان في معاني القرآن ، ولهذا كانوا يقولون : هل عرفت الناسخ [1] من المنسوخ ، فإذا عرف الناسخ عرف المحكم ، وعلى هذا فيصح أن يقال : المحكم والمنسوخ ، كما يقال : المحكم والمتشابه .

« المحكم والمتشابه في اصطلاح بعض المفسرين »

وقوله بعد ذلك ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ ﴾ جعل جميع الآيات محكمة محكمها ومتشابهها ، كما قال : ﴿ آلر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُه ثُمَّ فُصِّلَتْ [2] ﴾ وقال ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ ﴾ [3] على أحد القولين

وهنالك جعل الآيات قسمين : محكما ومتشابهاً ، كما قال ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ

---

(١) اصل النسخ من (نسخ الكتاب) وهو نقله من نسخة الى اخرى غيرها فكذلك معنى (نسخ الحكم الى غيره إنما هو تحويله ونقل عبارته عنه الى غيرها فإذا كان ذلك معنى نسخ الآية فسواء اذا نسخ حكمها فغير وبدل فرضها ، ونقل فرض العباد عن اللازم كان لهم بها أأقر خطها فترك ، او محى أثرها فعفى ونسى اذ هي حينئذ في كلتا حالتيها منسوخة والحكم الحادث المبدل به الحكم الأول والمنقول اليه فرض العباد هو الناسخ يقال منه « نسخ الله آية كذا وكذا ينسخها نسخاً ، والنسخة : الاسم » [راجع تفسير الطبري ٢ : ٤٧٢]

(٢) سورة هود آية رقم ١ .

(٣) سورة يونس آية رقم ١ .

مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتابِ وأُخرُ مُتَشَابِهَات ﴾ (١)

وهذه المتشابهات مما أنزله الرحمن لا مما ألقاه الشيطان ونسخه الله ، فصار المحكم في القرآن تارة يقابل بالمتشابه والجميع من آيات الله .

وتارة يقابل بما نسخه الله مما ألقاه الشيطان ومن الناس من يجعله مقابلاً لما نسخه الله مطلقا (٢) حتى يقول « هذه الآية محكمة ليست منسوخة ويجعل المنسوخ ليس محكما ، وإن كان الله أنزله أولاً اتباعاً لظاهر قوله ﴿ فَيَنْسَخُ اللهُ ﴾ ﴿ ويُحكِمُ (٣) الله آيَاتِه ﴾ .

فهذه ثلاث معان تقابل المحكم ينبغي التفطن لها . وجماع ذلك أن الأحكام تارة يكون في التنزيل فيكون في مقابلته ما يلقيه الشيطان ، فالمحكم المنزل من عند الله أحكمه الله أي فصله من الاشتباه بغيره ، وفصل منه ما ليس منه ، فإن الإحكام هو الفصل والتمييز والفرق والتحديد الذي به يتحقق الشيء ويحصل إتقانه ، ولهذا دخل فيه معنى المنع كما دخل في الحد فالمنع

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٢) في (ب) بزيادة (دون ما ألقاه الشيطان) .

(٣) المحكم : المتقن المبين ، وفي المراد به هنا ثمانية أقوال . أحدها : أنه الناسخ قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وقتادة والسدي في آخرين والثاني : أنه الحلال والحرام ، روي عن ابن عباس ، ومجاهد ، والثالث : أنه ما علم العلماء تأويله . روي عن جابر بن عبدالله ، والرابع : أنه الذي لم ينسخ قاله الضحاك . الخامس : أنه ما لم تتكرر الفاظه قاله ابن زيد السادس : أنه ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان ذكره القاضي أبو يعلى عن الإمام أحمد ، وقال الشافعي ، وابن الأنباري هو ما لم يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً ، والسابع : أنه جميع القرآن غير الحروف المقطعة ، والثامن ، أنه الأمر والنهي ، والوعد والوعيد والحلال والحرام هذا والذي قبله القاضي أبو يعلى . وقال القاسمي في « محاسن التأويل » ص ٧٥٢ للعلماء في المحكم والمتشابه أقوال كثيرة ومباحث واسعة . وابدع ما رأيته في تحرير هذا المقام مقالة سابغة الذيل لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية عليه الرحمة والرضوان ويعني بهذا المقالة الموسومة بـ « الاكليل في المتشابه والتأويل » وقد اثبتها القاسمي رحمه الله في تفسيره بطولها.

جزء معناه لا جميع معناه .

وتارة يكون الإحكام في إبقاء التنزيل عند من قابله بالنسخ الذي هو رفع ما شرع وهو اصطلاحي ، أو يقال ـ وهو أشبه بقول السلف ـ كانوا يسمون كل رفع نسخا ، سواء كان رفع حكم ، أو رفع دلالة ظاهرة ، وإلقاء الشيطان في أمنيته قد يكون في نفس لفظ المبلغ ، وقد يكون في سمع المبلغ ، وقد يكون في فهمه ، كما قال :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [1] الآية . ومعلوم أن من سمع النص الذي قد رفع حكمه أو دلالة له . فإنه يلقى الشيطان في تلك التلاوة اتباع ذلك المنسوخ فيحكم الله آياته بالناسخ الذي به يحصل رفع الحكم وبيان المراد ، وعلى هذا التقدير فيصح أن يقال : المتشابه المنسوخ بهذا الاعتبار ، والله أعلم .

وتارة يكون « الإحكام » في التأويل والمعنى ، وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها حتى لا تشتبه بغيرها ، وفي مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التي تشبه هذا وتشبه هذا فتكون محتملة للمعنيين .

قال أحمد بن حنبل : المحكم الذي ليس فيه اختلاف والمتشابه : الذي يكون في موضع كذا وفي موضع كذا . ولم يقل في المتشابه لا يعلم تفسيره ومعناه إلا الله وإنما قال ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تأويلَهُ إلا الله ﴾ [2]

وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين في هذا الموضع فإن الله أخبر أنه : لا يعلم تأويله إلا هو .

والوقف هنا على ما دل عليه أدلة كثيرة وعليه أصحاب رسول الله ﷺ ، وجمهور التابعين وجماهير الأمة .

---

(١) سورة الرعد آية رقم ١٧ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره ، بل قال : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ (١) وهذا يعم الآيات المحكمات والآيات المتشابهات وما لا يعقل له معنى لا يتدبر : وقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ (٢) ولم يستثن شيئا منه نهى عن تدبره . والله ورسوله إنما ذم من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله .

فأما من تدبر المحكم والمتشابه ، كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه ، فلم يذمه الله ، بل أمر بذلك ومدح عليه .

يبين ذلك أن التأويل قد روى أن من اليهود الذين كانوا بالمدينة على عهد النبي ﷺ كحيي بن أخطب، وغيره من طلب من حروف الهجاء التي في أوائل السور تأويل بقاء هذه الأمة (٣) كما سلك ذلك طائفة من المتأخرين

---

(١) سورة ص آية رقم ٢٩ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٨٢ .

قال الزجاج : التدبر : النظر في عاقبة الشيء و« الدبر » النحل سمي دبراً لأنه يعقب ما ينتفع به ، والدبر المال الكثير ، سمي دبراً لكونه يبقى للأعقاب ، والأدبار ، وقال ابن عباس : أفلا يتدبرون القرآن فيتفكرون فيه فيرون تصديق بعضه لبعض ، وان احد من الخلائق لا يقدر عليه .

قال ابن قتيبة . والقرآن من قولك : ما قرأت الناقة سلى قط اي ما ضمت في رحمها ولداً ، وأنشد ابو عبيدة

ذراعي عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا

والبيت لعمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة .

(٣) قال السيوطي في كتابه « الدر المنثور » اخرج ابن اسحاق ، والبخاري في تاريخه ، وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس ، وعن جابر بن عبد الله بن رباب ، قال : مر أبو ياسر بن اخطب في رجال من يهود برسول الله - ﷺ - وهو يتلو فاتحة سورة البقرة﴿ الم ذلك الكتاب ﴾ فأتاه اخوه حيي بن أخطب في رجال من اليهود فقال : تعلمون والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه ﴿ ألم ذلك الكتاب ﴾ فقالوا : انت سمعته . . ؟ قال : نعم . فمشى حيي في أولئك النفر الى رسول الله - ﷺ - فقالوا : يا محمد الم تذكر انك تتلو فيما انزل عليك ﴿ ألم ذلك الكتاب ﴾ قال : بلى . قالوا : قد جاءك بهذا جبريل من عند الله ؟ قال : نعم . قالوا : لقد بعث الله قبلك انبياء ما نعلم بيّن لنبي لهم ما مدة ملكه ، وما اجل امته غيرك ، فقال حيي بن اخطب واقبل على =

موافقة للصابئة المنجمين ، وزعموا أنه ستمائة وثلاثة وتسعون عاماً ؛ لأن ذلك هو عدد ما للحروف في حساب الجمل بعد إسقاط المكرر ، وهذا من نوع تأويل الحوادث التي أخبر بها القرآن في اليوم الآخر .

وروي أن من النصارى الذين وفدوا على النبي ﷺ في وفد نجران من تأول « إنا » و« نحن » على أن الآلهة ثلاثة لأن هذا ضمير جمع ، وهذا تأويل في الإيمان بالله ، فأولئك تأولوا في اليوم الآخر ، وهؤلاء تأولوا في الله . ومعلوم أن : « إنا » و« نحن » من المتشابه ، فإنه يراد بها الواحد الذي معه غيره من جنسه ، ويراد بها الواحد المعظم نفسه الذي يقوم مقام من معه غيره لتنوع أسمائه التي كل اسم منها يقوم مقام مسمى ، فصار هذا متشابها لأن اللفظ واحد ، والمعنى متنوع .

والأسماء المشتركة في اللفظ هي من المتشابه وبعض المتواطئة أيضاً من المتشابه ، ويسميها أهل التفسير « الوجوه » و« النظائر » وصنفوا كتب

= من كان معاه ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم اربعون ، فهذه إحدى وسبعون سنة ، افتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه واجل امته إحدى وسبعون سنة ؟ ثم اقبل على رسول الله - ﷺ - فقال : يا محمد هل مع هذا غيره . . ؟ قال : نعم . قال : ما ذاك ؟ قال : المصى . قال : هذه أثقل وأطول : الألف واحدة ، واللام ثلاثون والميم أربعون ، والصاد تسعون ، فهذه مائة وإحدى وستون سنة . هل مع هذا يا محمد غيره . . ؟ قال : نعم قال : ماذا . . ؟ قال : الر قال : هذه اثقل واطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والراء مائتان فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة . فهل مع هذا غيره . قال نعم : المر قال : فهذه اثقل واطول ، الألف واحدة ، واللام ثلاثون ، والميم اربعون والراء مائتان فهذه إحدى وسبعون سنة ومائتان ، ثم قال : لقد لبس علينا أمرك يا محمد ، حتى ما ندري أقليلاً اعطيت أم كثير ؟ ثم قاموا عنه . فقال ابو ياسر : لأخيه يحيى ومن معه من الأحبار : ما يدريكم لعله قد جمع هذا لمحمد كله ، إحدى وسبعون ، وإحدى وستون ومائة ، واحدى وثلاثون ومائتان ، وإحدى وسبعون ومائتان ، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون . فقالوا لقد تشابه علينا أمره ، فيزعمون ان هذه الأيات نزلت فيهم ﴿ **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات** ﴾

الوجوه والنظائر ، فالوجوه في الأسماء المشتركة ، والنظائر في الأسماء المتواطئة .

وقد ظن بعض أصحابنا المصنفين في ذلك أن الوجوه والنظائر جميعا في الأسماء المشتركة ، فهي نظائر باعتبار اللفظ ، ووجوه باعتبار المعنى ، وليس الأمر على ما قاله ، بل كلامهم صريح فيما قلناه لمن تأمله . والذين في قلوبهم زيغ يدعون المحكم الذي لا اشتباه فيه مثل ﴿ وإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (1)

﴿ إِنَّني أنا الله لَا إِلَه إِلَّا أنا فَاعْبُدْني ﴾ (2)

﴿ مَا اتَّخذَ الله مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ (3) .

﴿ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ له شَرِيْكٌ في المُلْكِ ﴾ (4)

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ له كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (5) .

ويتبعون المتشابه ابتغاء المتشابه ابتغاء الفتنة ليفتنوا به الناس إذا وضعوه على غير مواضعه وابتغاء تأويله وهو الحقيقة التي أخبر عنها .

« أنواع الكلام »

وذلك أن الكلام نوعان :

إنشاء فيه الأمر ، وإخبار فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به ، كما قال من قال من السلف إن السنة هي تأويل الأمر .

قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه

---

(1) سورة البقرة آية رقم ١٦٣ .

(2) سورة طه آية رقم ١٤ .

(3) سورة المؤمنون آية رقم ٩١ .

(4) سورة الاسراء آية رقم ١١١ .

(5) سورة الإخلاص آية رقم ٣ ـ ٤ .

وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي يتأول القرآن [1] ، تعني قوله ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [2] .

وأما الأخبار فتأويله عين الأمر المخبر به إذا وقع ، ليس تأويله فهم معناه .

وقد جاء اسم « التأويل » في القرآن في غير موضع وهذا معناه .

قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ . هَلْ يَنْظُرُوْنَ إِلاَّ تَأْوِيْلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلهُ يَقُوْلُ الَّذِيْنَ نَسُوْهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحَقِّ ﴾ [3]

فقد أخبر أنه فصل الكتاب ، وتفصيله بيانه وتمييزه ، بحيث لا يشتبه .

ثم قال ﴿ هَلْ يَنْظُرُوْنَ ﴾ أي ﴿ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيْلَهُ يَوْمَ يَأْتي تَأْوِيلُهُ ﴾ [4] إلى آخر الآية وإنما ذلك مجيء ما أخبر القرآن بوقوعه من القيامة وأشراطها كالدابة ، ويأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ومجيء ربك والملك صفا صفا ، وما في الآخرة من الصحف والموازين والجنة والنار وأنواع النعيم والعذاب ، وغير ذلك ، فحينئذ يقولون :

﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحَق ، فهل لنا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشفَعُوا لنا ؟ أو نُردّ

---

(1) الحديث اخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ٢٠ باب التسبيح في الركوع والسجود ٨٨٩ بسنده عن عائشة وذكره . وأخرجه البخاري في كتاب الأذان ١٣٩ باب التسبيح والدعاء في السجود ٨١٧ - بسنده عن عائشة - رضي الله عنها وذكره . والتفسير سورة ١١٠ وأبو داود في الصلاة ١٤٨ والنسائي في التطبيق ٦٤ ،٦٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٤٣ ، ٤٩ ، ١٩٠ (حلبي)

(٢) سورة النصر آية رقم ٣ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٥٢ ، ٥٣ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ٥٣ .

فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمل ؟ ﴾ (١)

وهـذا القدر الـذي أخبر بـه القرآن من هـذه الأمور لا يعلم وقتـه وقـدره وصفتـه إلا الله ، فـإن الله يقـول ﴿ فَـلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَـا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُـرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (٢)

ويقـول : أعددت لعبـادي الصالحين مـا لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر (٣) وقال ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ، فإن الله قد أخبر أن في الجنة خمراً ولبنـا وماء وحـريرا وذهبـا وفضة وغير ذلك ونحن نعلم قطعاً أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه بل بينهما تباين عـظيم مع التشـابه ، كمـا في قولـه : ﴿ وَأُتُوا بِـهِ مُتَشَـابِهـاً ﴾ (٤) على أحـد القولين أنه يشبه ما في الدنيا وليس مثله ، فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق ، كما أشبهت الحقائق الحقائق من بعض الوجوه ، فنحن نعلمهـا إذا

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٣ .

(٢) سورة السجدة آية رقم ١٧ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ٣٥ باب قول الله تعالى ﴿ يريدون أن يبدلوا كـلام الله ﴾ ٨٤٩٨ ـ حدثنا معاذ بن اسد اخبرنا عبد الله أخبرنا معمر عن همام بن منبه عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ وذكره ، وفي كتاب بدء الخلق ٨ وتفسير سورة ٣٣ وأخرجه الإمام مسلم في كتاب الايمان ٨٤ باب أدنى اهل الجنة منزلة فيها ـ بسنده عن المغيرة بن شعبة قال : سأل موسى ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة . . ؟ قال هو رجل يجيء بعد مـا أدخل اهـل الجنة الجنـة فيقال لـه : ادخل الجنـة فيقول : اي ورب كيف وقـد نـزل النـاس منـازلهم ، وأخـذوا أخذاتهم ، فيقال له : اترضى ان يكون لك مثل مُلْك مَلك من ملوك الدنيـا ، فيقول : رضيت رب فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ، ومثله ، ومثله . فقال في الخامسة رضيت رب فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول رضيت رب . قال : رب فأعلاهم منزلاً قال : اولئك الذين اردت غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تـرعين ، ولم تسمـع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، قال ومصداقه في كتاب الله عز وجل ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ سورة السجدة الآية ١٧ .

(٤) سورة البقرة اية رقم ٢٥ .

خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما ، ولكن لتلك الحقائق خاصية لا ندركها في الدنيا ولا سبيل إلى ادراكنا لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه ، وتلك الحقائق على ما هي عليه هي تأويل ما أخبر الله به .

« إنكار المتفلسفة للأكل والنكاح في الجنة »

وهذا فيه رد على اليهود والنصارى والصابئين من المتفلسفة وغيرهم فإنهم ينكرون أن يكون في الجنة أكل وشرب ولباس ونكاح ، ويمنعون وجود ما أخبر به القرآن ، ومن دخل في الإسلام ونافق المؤمنين تأول ذلك على أن هذه أمثال مضروبة لتفهيم النعيم الروحاني إن كان من المتفلسفة الصابئة المنكرة لحشر الأجساد ، وإن كان من منافقة الملتين المقرين بحشر الأجساد تأول ذلك على تفهيم النعيم الذي في الجنة من الروحاني ، والسماع الطيب والروائح العطرة ، فكل ضال يحرف الكلم عن مواضعه إلى ما اعتقد ثبوته .

وكان في هذا أيضا متبعا للمتشابه ، إذ الأسماء تشبه الأسماء ، والمسميات تشبه المسميات ، ولكن تخالفها أكثر مما تشابهها .

فهؤلاء يتبعون هذا المتشابه « ابتغاء الفتنة » بما يوردونه من الشبهات على امتناع أن تكون في الجنة هذه الحقائق .

﴿ وَابْتِغَاء تَأْوِيْلِهِ ﴾ [١] ليردوه إلى المعهود الذي يعلمونه في الدنيا .

قال الله تعالى ﴿ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إلاَّ الله ﴾ [٢] فإن تلك الحقائق قال الله فيها ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [٣]

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٣) سورة السجدة آية رقم ١٧ .

لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل .

وقوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ ﴾ (١) إما أن يكون الضمير عائداً على الكتاب ، أو على المتشابه ، فإن كان عائداً على الكتاب كقوله « منه » و« منه » فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فهذا يصح ، فإن جميع آيات الكتاب المحكمة والمتشابهة التي فيها إخبار عن الغيب الذي أمرنا أن نؤمن به لا يعلم حقيقة ذلك الغيب ومتى يقع إلا الله . وقد يستدل لهذا أن الله جعل التأويل للكتاب كله مع إخباره أنه مفصل بقوله ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكتاب فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدىً وَرحمةً لقوم يُؤْمِنُون . هَلْ يَنْظُرُوْنَ إلاَّ تَأْوِيْلَهُ يَوْمَ يَأْتي تَأْوِيْلُهُ ﴾ (٢) فجعل التأويل الجائي للكتاب المفصل .

وقد بينا أن ذلك التأويل (٣) لا يعلمه وقتا وقدراً ونوعاً وحقيقة إلا الله ، وإنما نعلم نحن بعض صفاته بمبلغ علمنا لعدم نظيره عندنا .

وكذلك قوله ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لم يُحِيطُوْا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِم تَأْوِيْلُهُ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة آل عمران رقم ٧ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٢ ـ ٥٣ .

(٣) هناك استعمالات ثلاثة لكلمة التأويل هي : إما بمعنى الرجوع والعاقبة والمصير « ألت عن الشيء رجعت عنه ، وبمعنى التفسير والبيان حديث اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل ، وبمعنى مجازي هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر يحتمله وهذه الاستعمالات الثلاثة نجدها واضحة في قوله تعالى ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾ فلفظ التأويل يتوقف منهم معناه بحسب الوقف على قوله تعالى ﴿الا الله﴾ أو على قوله ـ والراسخون في العلم فمن وقف على لفظ الجلالة كان التأويل بمعنى الحقيقة والكيفية وهذا يؤول ويرجع معناه إلى الله تعالى ، ومن وقف على قوله﴿والراسخون في العلم﴾كان التأويل إما بمعنى التفسير والبيان ، أو صرف اللفظ عن ظاهر . إلى معنى اخر يحتمله اللفظ [راجع مقاييس اللغة للأزهري ١ / ١٦٢ ولسان العرب مادة أول حـ ١ ص ٣٣]

(٤) سورة يونس آية رقم ٣٩ .

وإذا كان التأويل للكتاب كله ، والمراد به ذلك ارتفعت الشبهة ، وصار هذا بمنزلة قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . قُلْ إنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيْهَا لِوَقْتِهَا إلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ في السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ ﴾ إلى قوله ﴿ إنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ الله ﴾ [1] .

وكذلك قوله ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إنَّما عِلْمُها عِنْدَ الله ، ومَا يُدْرِيْكَ لَعلَّ السَّاعَةَ تَكُوْنُ قَرِيبا ﴾ [2] .

فأخبر أنه ليس علمها إلا عند الله ، وإنما هو علم وقتها المعين وحقيقتها ، وإلا فنحن قد علمنا من صفاتها ما أخبرنا به ، فعلم تأويله كعلم الساعة والساعة من تأويله ، وهذا واضح بين .

ولا ينافي كون علم الساعة عند الله أن نعلم من صفاتها وأحوالها ما علمناه ، وأن تفسر النصوص المبينة لأحوالها فهذا هذا .

وإن كان الضمير عائداً إلى ما تشابه ، كما يقول كثير من الناس فلأن المخبر به من الوعد والوعيد متشابه بخلاف الأمر والنهي ، ولهذا في الآثار :

« العمل بمحكمه ، والإيمان بمتشابهه »

لأن المقصود في الخبر الإيمان [3] ، وذلك لأن المخبر به من الوعد والوعيد فيه من التشابه ما ذكرناه بخلاف الأمر والنهي ، ولهذا قال بعض ـ

---

(1) سورة الأعراف آية رقم ١٧ .

(2) سورة الأحزاب آية رقم ٦٣ .

(3) وهذا ما تشير إليه الآية في قوله تعالى : هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » [سورة آل عمران آية رقم ٧]

العلماء ـ المتشابه الأمثال والوعد والوعيد و« المحكم » الأمر والنهي فإنه متميز غير مشتبه بغيره ، فإنه أمور نفعلها قد علمناها بالوقوع ، وأمور نتركها لا بد أن نتصورها ومما جاء من لفظ التأويل ، في القرآن قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيْطُوْا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِم تَأْوِيْلُهُ ﴾ (١) والكناية عائدة على القرآن ، أو على ما لم يحيطوا بعلمه وهو يعود إلى القرآن .

قال تعالى ﴿ وَمَا كانَ هَـذَا القُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُوْنِ الله وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّـذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وتفصيل الكِتَاب لا رَيْبَ فِيْهِ مِنْ ربِّ العَالَمِيْنَ . أَمْ يَقُوْلُـوْنَ افْتَــراهُ قُلْ فَـأتـوا بِسُــوْرَةٍ مِثْلِه وَادْعُـوْا مَنْ اسْتَـطَعْتُمْ مِنْ دُوْنِ الله إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ . بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيْطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يأتِهِمْ تَأْوِيْلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَـانْظُرْ كَيْفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ الظَّالِمِينَ وَمِنْهُم مَن يُؤْمِنُ بِـهِ وَمِنْهُم مَن لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالمُفْسِدِيْنَ ﴾ (٢) .

فأخبر سبحانه أن هذا القرآن ما كان ليفتري من دون الله ، وهذه الصيغة تدل على امتناع المنفي كقوله : ﴿ وَمَـا كَانَ رَبُّـكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِـظُلْمٍ ﴾ (٣) وقوله ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيْهِم ﴾ (٤) لأن الخلق عاجزون عن الاتيان بمثله ، كما تحداهم وطالبهم لما قال ﴿ أَمْ يَقُولُوْنَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُـورَةٍ مِثْله وَادْعُـوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِنْ دُوْنِ الله إن كُنْتُم صَـادِقِيْنَ ﴾ (٥) فهذا تعجيـز لجميع المخلوقين قال تعالى ﴿ ولكنْ تَصْديْقَ الَّذي بَيْن يَدَيْهِ ﴾ (٦) أي مصـدق الذي بين يديه ﴿ وَتَفْصِيْلُ الكِتَابِ ﴾ أي مفصل الكتاب ، فـأخبر أنـه مصدق الـذي

(١) سورة يونس آية رقم ٣٩ .
(٢) سورة يونس آية رقم ٣٧ ـ ٤٠ .
(٣) سورة هود آية رقم ١١٧ .
(٤) سورة الانفال آية رقم ٣٣ .
(٥) سورة يونس آية رقم ٣٨ .
(٦) سورة يونس آية رقم ٣٧ .

بين يديه ومفصل الكتاب . والكتاب اسم جنس ، وتحدى القائلين : ﴿ افْتَراهُ ﴾ .

ودل على أنهم هم المفترون . قال ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيْطُوْا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِم تَأْوِيْلُهُ ﴾ (١)

أي : كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله ففرق بين الإحاطة بعلمه ، وبين إتيان تأويله . فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والإيمان بعلمه ولما يأتهم تأويله ، وأن الإحاطة بعلم القرآن ليست إتيان تأويله ، فإن الإحاطة بعلمه معرفة معاني الكلام على التمام ، وإتيان التأويل نفس وقوع المخبر به ، وفرق بين معرفة الخبر وبين المخبر به ، فمعرفة الخبر هي معرفة تفسير القرآن ومعرفة المخبر به هي معرفة تأويله .

و« نكتة ذلك » أن الخبر لمعناه صورة علمية وجودها في نفس العالم كذهن الإنسان مثلاً ، ولذلك المعنى حقيقة ثابتة في الخارج عن العلم واللفظ ، إنما يدل ابتداء على المعنى الذهني ، ثم تتوسط ذلك أو تدل على الحقيقة الخارجة .

فالتأويل هو الحقيقة الخارجة ، وأما معرفة تفسيره ومعناه، فهو معرفة الصورة العلمية ، وهذا هو الذي بيناه فيما تقدم أن الله إنما أنزل القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر (٢) ويتفكر فيه محكمه ومتشابهه ، وإن لم يعلم تأويله .

ويبين ذلك أن الله يقول عن الكفار ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِالآخِرَة حِجَاباً مَسْتُوْراً . وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوْبِهِم أَكِنَّةً أَنْ

---

(١) سورة يونس آية رقم ٣٩ .

(٢) قال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ سورة ص آية رقم ٢٩ .

يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِم وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوْراً ﴾ (١)

فقد أخبر ذما للمشركين أنه إذا قرىء عليهم القرآن حجب بين أبصارهم وبين الرسول بحجاب مستور ﴿ وَجَعَلَ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِم وَقرا ﴾

فلو كان أهل العلم والإيمان على قلوبهم أكنة أن يفقهوا بعضه لشاركوهم في ذلك .

وقوله ﴿ أَنْ يَفْقَهُوْهُ ﴾ يعود إلى القرآن كله ، فعلم أن الله يحب أن يفقه .

ولهذا قال الحسن البصري : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيماذا أنزلت ، وماذا عنى بها ، وما استثنى من ذلك لا متشابهاً ولا غيره .

وقال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس (٢) من أوله إلى آخره مرات أقف عند كل آية وأسأله عنها .

فهذا ابن عباس حبر الأمة ، وهو أحد من كان يقول : لا يعلم تأويله إلا الله ، يجيب مجاهداً عن كل آية في القرآن .

وهذا هو الذي حمل مجاهداً ومن وافقه كابن قتيبة (٣) على أن جعلوا

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ٤٥ ـ ٤٦ .

(٢) هو : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي حبر الأمة الصحابي الجليل ولد بمكة عام ٣ قبل الهجرة لازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث ، وشهد مع علي الجمل وصفين ، وكف بصره في آخر عمره فسكن الطائف وتوفي بها له في الصحيحين ١٦٦٠ حديثاً ، ينسب إليه كتاب في تفسير القرآن جمعه بعض أهل العلم ـ راجع [الإصابة ت ٤٧٧٢ ، وصفة الصفوة ١ / ٣١٣ وتاريخ الخميس ١ / ١٦٧]

(٣) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد من المصنفين المكثرين ولد ببغداد عام

الوقف عند قوله ﴿ والرَّاسِخُوْنَ فِي الْعِلْم ﴾ فجعلوا الراسخين يعلمون التأويل ، لأن مجاهدا تعلم من ابن عباس تفسير القرآن كله وبيان معانيه فظن أن هذا هو التأويل المنفى عن غير الله .

« الفرق بين التأويل في لغة القرآن وبين التفسير »

وأصل ذلك أن لفظ التأويل فيه اشتراك بين ما عناه الله في القرآن ، وبين ما كان يطلقه طوائف من السلف وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين ، فبسبب الاشتراك في لفظ التأويل اعتقد كل من فهم منه معنى بلغته أن ذلك هو المذكور في القرآن ، ومجاهد إمام التفسير .

قال الثوري [1] : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، وأما التأويل فشأن آخر .

ويبين ذلك أن الصحابة والتابعين لم يمتنع أحد منهم عن تفسير آية من كتاب الله ولا قال : هذه من المتشابه الذي لا يعلم معناه . ولا قال قط أحد من سلف الأمة ، ولا من الأئمة المتبوعين : إن في القرآن آيات لا يعلم معناها ولا يفهمها رسول الله ﷺ ، ولا أهل العلم والإيمان جميعهم ، وإنما

= ٢١٣ هـ وسكن الكوفة ثم ولي قضاء الدينور مدة وتوفي ببغداد عام ٢٧٦ من كتبه . تأويل مختلف الحديث والمعارف وعيون الأخبار ومشكل القرآن والمشتبه من الحديث والقرآن وغير ذلك كثير [راجع وفيات الأعيان ١ / ٢٥١ ، الأنباري ٢٧٢] و« لسان الميزان ٣ / ٣٥٧ ، دائرة المعارف الاسلامية ١ / ٢٦٠ ووقع اسمه فيها محمد بن مسلم] .

(١) هو : سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري من بني ثور بن عبد مناف من مضمر أبو عبد الله أمير المؤمنين في الحديث كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى ولد عام ٩٧ هـ في الكوفة وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم فأبى وخرج من الكوفة سنة ١٤٤ هـ فسكن مكة والمدينة ثم طلبه المهدي فتوارى وانتقل الى البصرة فمات بها مستخفيا عام ١٦١ هـ له من الكتب الجامع الكبير والجامع الصغير كلاهما في الحديث وكتاب في الفرائض ولابن الجوزي كتاب في مناقبه . [راجع دول الاسلام ١ / ٨٤ وابن النديم ١ / ٢٢٥ وابن خلكان ١ / ٢١٠ وطبقات ابن سعد ٦ / ٢٥٧]

قد ينفون علم بعض ذلك عن بعض الناس ، وهذا لا ريب فيه .

وإنما وضع هذه المسألة المتأخرون من الطوائف بسبب الكلام في آيات الصفات ، وآيات القدر ، وغير ذلك ، فلقبوها : « هل يجوز أن يشتمل القرآن على ما لا يعلم معناه » .

وأما تعبدنا بتلاوة حروفه بلا فهم فجوز ذلك طوائف متمسكين بظاهر من هذه الآية .

وبأن الله يمتحن عباده بما شاء ، ومنعها طوائف ليتوصلوا بذلك إلى تأويلاتهم الفاسدة التي هي تحريف الكلم عن مواضعه ، والغالب على كلا الطائفتين الخطأ أولئك يقصرون في فهم القرآن بمنزلة من قيل فيه : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ [1] وهؤلاء معتدون بمنزلة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ومن المتأخرين من وضع المسألة بلقب شنيع فقال : لا يجوز أن يتكلم الله بكلام ولا يعني به شيئاً خلافاً للحشوية ، وهذا لم يقله مسلم إن الله يتكلم بما لا معنى له .

وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم معناه ؟ وبين نفي المعنى عند المتكلم ، ونفي الفهم عند المخاطب بون عظيم .

ثم احتج بما لا يجري على أصله فقال : هذا عبث والعبث على الله محال . وعنده أن الله لا يقبح منه شيء أصلاً [2] ، بل يجوز أن يفعل كل شيء ، وليس له أن يقول : العبث صفة [3] نقص ، فهو منتف عنه لأن النزاع في الحروف وهي عنده مخلوقة من جملة الأفعال ، ويجوز أن يشتمل الفعل عنده على كل صفة ، فلا نقل صحيح ولا عقل صريح .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .
(٢) سقط من (ب) لفظ (أصلاً)
(٣) سقط من (ب) لفظ (نقص)

ومثار الفتنة بين الطائفتين ومحار عقولهم : أن مدعي التأويل أخطأوا في زعمهم (١) أن العلماء يعلمون التأويل ، وفي دعـواهم أن التأويـل هو تـأويلهم الـذي هو تحـريف الكلم عن مـواضعـه فـإن الأولين لعلمهم بـالقـرآن والسنن وصحة عقولهم وعلمهم بكلام السلف ، وكلام العرب علموا يقينـا أن التأويـل الذي يدعيه هؤلاء ليس هو معنى القرآن ، فإنهم حـرفوا الكلم عن مـواضعه ، وصاروا مراتب ما بين قرامطة (٢) ، وباطنية يتأولـون الأخبار والأوامـر ، وما بين صابئة فلاسفة يتأولون عامة الأخبـار عن الله وعن اليوم الآخـر ، حتى عن أكثر أحوال الأنبياء ، وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون بعض ما جاء في اليوم الآخر ، ومن آيات القدر . ويتأولون آيات الصفات .

وقد وافقهم بعض متأخري الأشعريـة على ما جـاء من بعض الصفات ، وبعضهم من بعض مـا جاء في اليـوم الآخر وآخـرون من أصناف الأمـة ، وإن كان تغلب عليهم السنة ، فقد يتأولون أيضا مواضع يكون تأويلهم من تحـريف الكلم عن مواضعه .

والذين ادعوا العلم بالتأويل مثل طائفة من السلف وأهـل السنة ، وأكثـر أهل الكلام والبـدع رأوا أيضاً أن النصـوص دلت على معرفـة معاني القـرآن ، ورأوا عجزاً وعيباً وقبحـا أن يخاطب الله عبـاده بكلام يقـرأونه ويتلونـه وهم لا يفهمونه ، وهم مصيبـون فيما استـدلوا بـه من سمع وعقـل ، لكن أخطأوا في معنى التأويل الذي نفاه الله ، وفي التأويل الذي أثبتوه .

وتسلق بـذلك مبتـدعهم إلى تحريف الكلم عن مـواضعه وصـار الأولون أقرب إلى السكوت والسـلامة بنـوع من الجهل ، وصـار الآخرون أكثـر كلامـاً

---

(١) في (ب) في قولهم بدلاً من (في زعمهم)

(٢) راجع ما كتبه الامام ابن تيميـه عن دور القرامـطة في تاريـخ المسلمين ، وأساليبهم في القمـع والارهاب وتشكيكهم في العقائد وتضليل الناس .

وجدالاً ولكن بفرية على الله ، وقول عليه ما لا يعلمونه ، وإلحاد في أسمائه وآياته ، فهذا هذا .

ومنشأ الشبهة الاشتراك في لفظ التأويل .

فإن التأويل في عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثة والمتصوفة ونحوهم هو : صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به ، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف ، فإذا قال أحدهم : هذا الحديث أو هذا النص مؤول أو هو محمول على كذا ، قال الآخر : هذا نوع تأويل ، والتأويل يحتاج إلى دليل .

والمتأول عليه وظيفتان :

بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادعاه .

وبيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر وهذا هو التأويل الذي يتنازعون فيه في مسائل الصفات إذا صنف بعضهم في ابطال التأويل ، أو ذم التأويل ، أو قال بعضهم آيات الصفات لا تؤول . وقال الآخر : بل يجب تأويلها . وقال الثالث : بل التأويل جائز يفعل عند المصلحة ويترك عند المصلحة ، أو يصلح للعلماء دون غيرهم إلى غير ذلك من المقالات والتنازع .

وأما التأويل في لفظ السلف فله معنيان : « أحدهما » تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه ، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقاربا أو مترادفا وهذا ـ والله أعلم ـ هو الذي عناه مجاهد أن العلماء يعلمون تأويله .

ومحمد بن جرير الطبري يقول في تفسيره : القول في تأويل قوله « كذا وكذا » .

واختلف أهل التأويل في هذه الآية ونحو ذلك ومراده التفسير .

و« المعنى الثاني » في لفظ السلف ـ وهو الثالث من مسمى التأويل مطلقا ـ هو نفس المراد بالكلام ، فإن الكلام إن كان طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب ، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به .

وبين هذا المعنى والذي قبله بون ؛ فإن الذي قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام ، كالتفسير والشرح والإيضاح ، ويكون وجود التأويلِ في القلب واللسان له الوجود الذهني واللفظي والرسمي .

وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة في الخارج ، سواء كانت ماضية أو مستقبله .

فإذا قيل : طلعت الشمس ، فتأويل هذا نفس طلوعها ويكون التأويل من باب الوجود العيني الخارجي .

فتأويل الكلام هو الحقائق الثابتة في الخارج بما هي عليه من صفاتها وشؤونها وأحوالها .

وتلك الحقائق لا تعرف على ما هي عليه بمجرد الكلام والأخبار إلا أن يكون المستمع قد تصورها أو تصور بغير كلام وإخبار .

لكن يعرف من صفاتها وأحوالها قدر ما أفهمه المخاطب إما بضرب المثل وإما بالتقريب ، وإما بالقدر المشترك بينها وبين غيرها ، وإما بغير ذلك .

وهذا الوضع والعرف الثالث هو لغة القرآن التي نزل بها ، وقد قدمنا البيتين في ذلك .

ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام ليوسف :

﴿ وَكَـذَلِكَ يَجْتَبِيْـكَ رَبُّكَ وَيُعلمُـكَ مِنْ تَأْوِيْـلِ الأَحَـادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَـهُ عَلَيْكَ ﴾ [1] .

وقوله ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَـانِ قَالَ أَحَـدُهُما إِنِّي أَرَانِي أَعْصِـرُ خَمْرَا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أراني أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْـرُ مِنْهُ نبئنـا بِتَأْوِيْلِهِ إِنَّـا نَراكَ مِنَ المُحْسِنِيْنَ قَال لا يَـأْتِيكُما طَعـامٌ تُرْزَقـانه إِلاَّ نَبَّأْتُكما بِتَـأْوِيله قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ﴾ [2].

وقول الملأ ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيْلِ الأَحْلاَم بِعَـالِمِيْنَ . وَقَالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّة أَنَا أنبئُكم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُوْن ﴾ [3]

وقول يوسف لمـا دخل عليـه أهله مصر ﴿ آوَى إِلَيْـهِ أَبَوَيْـهِ وَقَالَ ادْخُلُوْا مِصْرَ إِنْ شَاءَ الله آمنين وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ وَخَرُّوْا لَهُ سُجَّدا وَقَال يَـا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيْلُ رُؤياي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلها رَبِّي حَقَّاً ﴾ [4] .

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٦ وأجمع العلماء أن ذلك في تأويل الرؤ يا . قـال عبد الله بن شداد بن الهاد : كان تفسير رؤ يا يوسف ﷺ ـ بعد أربعين سنة ، وذلك منتهى الـرؤ يا وعنى بـالأحاديث مـا يراه النـاس في المنام ، وهي معجـزة له ، فـإنه لم يلحقـه فيها خـطأ . وكان يـوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها وكان نبينا ـ ﷺ ـ نحو ذلك ، وكـان الصديق ـ رضي الله عنـه ـ من أعبـر الناس لهـا ، وحصل لابن سيـرين فيها التقـدم والعظم ، والـطبع والإحسـان ، ونحو أو قريب منه كان سعيد بن المسيب فيما ذكروا .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣٦ ـ ٣٧ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٤٤ ـ ٤٥ .

(٤) سـورة يـوسف آية رقم ٩٩ ـ ١٠٠ قـال سعيـد بن جبيـر عن قتـادة عن الحسن ـ في قـولـه : ﴿ وخروا له سجدا ﴾ قال : لم يكن سجوداً لكنه سنة كانت فيهم ، يؤمنون برءوسهم إيمـاء ، كـذلك كـانت تحيتهم ، وقال الثـوري والضحاك وغيـرهم ، كان سجـوداً كـالسجـود المعهـود عندنا ـ وهو كان تحيتهم ، وقيل : كان انحنـاء كالـركوع ولم يكن خـروراً على الأرض وهكذا كان سلامهم بـالتكفي والإنحناء ، وقـد نسخ الله ذلـك كله في شرعنـا وجعل الكـلام بدلاً من

فتأويل الأحاديث التي هي رؤ يا المنام هي نفس مدلولها التي تؤ ول إليه كما قال يوسف : ﴿ هَذَا تَأْوِيْلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (١)

والعالم بتأويلها الذي يخبر به ، كما قال يوسف : ﴿ لا يَأتيكُما طَعَامٌ تُرْزَقَانهِ ﴾ - أي في المنام - ﴿ إلا نبَّأتكما بتأوِيْله قَبْلَ أنْ يَأتيكُمَا ﴾ (٢) أي قبل أن يأتيكما التأويل .

وقال الله تعالى ﴿ فَإنْ تَنازَعْتُمْ في شَيءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله والرَّسُوْلِ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُوْنَ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيْلاً ﴾ (٣) قالوا : أحسن عاقبة ومصيرا ، فالتأويل هنا تأويل فعلهم الذي هو الرد إلى الكتاب والسنة والتأويل في سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤ يا والتأويل في الأعراف ويونس تأويل القرآن وكذلك في سورة آل عمران .

« اشتقاق التأويل »

وقال تعالى في قصة موسى والعالم ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْني وَبينكَ سَأُنبِئُكَ بِتَأْوِيْلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيهِ صَبْرا ﴾ - إلى قوله - ﴿ وَمَا فَعَلْتُه عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيْلُ مَا لَم تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ (٤) .

= الإنحناء ، وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أي وجه كان فيما بينهم تحية لا عبادة ، قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم .

(١) سورة يوسف آية رقم ١٠٠ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣٧ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٥٩ .

(٤) سورة الكهف آية رقم ٧٨ - ٨٢ قال الامام القرطبي عند تفسيره لهذه الآية : قال شيخنا الإمام أبو العباس : ذهب قوم من زنادقة الباطنية الى سلوك طريق تلزم منه هذه الأحكام الشرعية فقالوا : هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة ، وأما الأولياء وأهل =

فالتأويل هنا تأويل الأفعال التي فعلها العالم من خرق السفينة بغير إذن صاحبها ، ومن قتل الغلام ، ومن إقامة الجدار ، فهو تأويل عمل لا تأويل قول ، وإنما كان كذلك لأن التأويل مصدر أوله يؤوله تأويلاً ، مثل حول تحويلا وعول تعويلا ، وأول يؤول تعديه آل يؤول أولاً ، مثل : حال يحول حولاً .

وقولهم : آل يؤول ، أي : عاد إلى كذا ورجع إليه ومنه المآل ، وهو ما يؤول إليه الشيء ويشاركه في الاشتقاق الأكبر « الموئل » فإنه من وأل وهذا من أول . والموئل المرجع ، قال تعالى ﴿ **لَنْ يَجِدُوْا مِنْ دُوْنِه مَوْئِلا** ﴾ (١) ومما يوافقه في اشتقاقه الأصغر « الآل » فإن آل الشخص من يؤول إليه ، ولهذا لا يستعمل إلا في عظيم ، بحيث يكون المضاف إليه أعظم من المضاف يصلح أن يؤول إليه الآل ، كآل ابراهيم وآل لوط وآل فرعون ، بخلاف الأهل ، والأول أفعل ؛ لأنهم قالوا في تأنيثه أولى . كما قالوا جمادى الأولى ومن القصص ﴿ **لَهُ الحمْدُ في الأُوْلَى والآخِرَةِ** ﴾ (٢) ومن الناس من يقول : فوعل ، ويقول : أولة ، إلا أن هذا يحتاج إلى شاهد من كلام العرب : بل عدم صرفه يدل على أنه أفعل لا فوعل ، فإن فوعل مثل كوثر وجوهر مصروف ، سمي المتقدم أول ـ والله أعلم ـ لأن ما بعده يؤول إليه ،

= الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص ، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم ، وقالوا : وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار وخلوها عن الأغيار فتتجلى لهم العلوم الإلهية ، والحقائق الربانية ، فيقفون على أسرار الكائنات ، ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع والكليات ـ كما اتفق للخضر ، فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم وقد جاء فيما ينقلون ـ استفت قلبك وإن أفتاك المفتون » قال شيخنا ـ رضي الله عنه ـ وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب ، لأنه إنكار ما علم من الشرائع . [تفسير القرطبي ١١ : ٤٠] .

(١) سورة الكهف آية رقم ٥٨ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٧٠ .

ويبنى عليه ، فهو أس لما بعده وقاعدة لـه ، والصيغة صيغـة تفضيل لا صفـة مثل : أكبر وكبرى وأصغر وصغرى ، لا من باب أحمر وحمراء ، ولهذا يقولون جئتـه أول من أمـس ، وقـال : ﴿ **لَمَسْجِـدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْـوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ** ﴾ (١) ﴿ **وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ (٢) ﴿ **وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ** ﴾ (٣) .

فإذا قيل : هذا أول هؤلاء فهو الـذي فضل عليهم في الأول ، لأن كـل واحد يرجع إلى ما قبله فيعتمـد عليه وهـذا السابق كلهم يؤول إليـه ، فإن من تقدم في فعل فاستـن به من بعده كان السابق الذي يؤول الكل إليه ، فـالأول له وصف السؤدد والاتباع .

ولفظ « الأول » مشعر بالرجوع والعود ، والأول مشعر بـالابتداء والمبتـدأ خلاف العائد لأنه إنما كان أولاً لما بعده ، فإنه يقال « أول المسلمين » و« أول يوم » فما فيه من معنى الرجوع والعود هو للمضاف إليه لا للمضاف .

وإذا قلنا : آل فلان ، فالعود إلى المضـاف ، لأن ذلك صيغة تفضيل في كونه مآلاً ومرجعاً لغيره ، لأن كونه مفضـلاً دل على أنه مـآل ومرجـع ، لا آيل راجع : إذ لا فضل في كون الشيء راجعاً إلى غيـره آيلاً إليـه ، وإنما الفضـل في كونه هو الذي يرجع إليـه ويؤول إليه ، فلمـا كانت الصيغـة صيغة تفضيـل أشعرت بأنه مفضل في كونه مـآلا ومرجعـا والتفضيل المـطلق في ذلك يقتضي أن يكون هو السابق المبتدىء ، والله أعلم .

فتأويل الكلام ما أوله اليه المتكلم ، أو ما يؤول إليه الكـلام أو ما تـأوله المتكلم ، فإن التفعيل يجري على غير فعل كقوله ﴿ **وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا** ﴾ (٤)

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٨ وتكملة الآية ﴿ **أحق أن تقوم فيه** ﴾

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٦٣ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٤١ .

(٤) سورة المزمل آية رقم ٨ والتبتل : الانقطاع الى عبادة الله عز وجـل أي انقطع بعبـادتك إليـه ،= ،

فيجوز أن يقال : تأول الكلام إلى هذا المعنى تأويلا وتأولت الكلام تأويلاً ، وأولت الكلام تأويلاً والمصدر واقع موقع الصفة ، إذ قد يحصل المصدر صفة بمعنى الفاعل ، كعدل وصوم وفطر ، وبمعنى المفعول كدرهم ضرب الأمير ، وهذا خلق الله .

فالتأويل : هو ما أول إليه الكلام أو يؤول إليه أو تأول هو إليه ، والكلام إنما يرجع ويعود ويستقر ويؤول إلى حقيقته التي هي عين المقصود به ، كما قال بعض السلف في قوله ﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ (١)

قال : حقيقة ، فإنه إن كان خبراً فإلى الحقيقة المخبر بها يؤول ويرجع ، وإلا لم تكن له حقيقة ولا مآل ولا مرجع بل كان كذبا ، وإن كان طلباً فإلى الحقيقة المطلوبة يؤول ويرجع ، وإن لم يكن مقصوده موجوداً ولا حاصلاً ومتى كان الخبر وعداً أو وعيدا فإلى الحقيقة المطلوبة المنتظرة يؤول ، كما روي عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية ﴿ قُل هُو الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَليكُمْ عَذاباً من فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ (٢) قال : إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد » .

وعن عبد الله قال : خمس قد مضين : البطشة واللزام والدخان والقمر والروم .

= ولا تشرك به غيره ، يقال : بتلت الشيء أي قطعته ، ومنه قولهم طلقها بتة بتلة ، وهذه صدقة بتة بتلة أي بائنة منقطعة عن صاحبها أي قطع ملكه عنها بالكلية ، ومنه مريم البتول لانقطاعها الى الله تعالى ، ويقال للراهب متبتل لانقطاعه عن الناس وانفراده بالعبادة : قال :

تضيء الظلام بالعشاء كأنها ... منارة مُمْسٍ راهب مُتَبتِّل

وفي الحديث : النهي عن التبتل ـ وهو الانقطاع عن الناس والجماعات وقيل : إن أصله عند العرب : التفرد قاله ابن عرفه ، والأول أقوى .

(١) سورة الأنعام آية رقم ٦٧ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٦٥ .

فصل
اختلاف العلماء في أن أسماء الله وصفاته من المتشابه أم لا . . ؟

وأما إدخال أسماء الله وصفاته ، أو بعض ذلك في المتشابه [1] الذي لا يعلم تأويله إلا الله أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله ، كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم ، فإنهم وإن أصابوا في كثير مما يقولونه ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم فالكلام على هذا من وجهين :

الأول : من قال : إن هذا من المتشابه وأنه لا يفهم معناه ، فنقول :

أما الدليل على بطلان ذلك فإني ما أعلم من أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة ، لا أحمد بن حنبل ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية ، ونفى أن يعلم أحد معناه وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم أحد معناه ، وإنما قالوا كلمات لها معان صحيحة ، قالوا في أحاديث الصفات تمر كما جاءت ، ونهوا عن تأويلات

---

(١) اختلف العلماء في المحكمات والمتشابهات على أقوال عديدة ، فقال جابر بن عبد الله ، وهو مقتضى قول الشعبي ، وسفيان الثوري وغيرهما والمحكمات من آي القرآن ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره ، والمتشابه ما لم يكن لأحد الى علمه سبيل مما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه . قال بعضهم ، وذلك مثل وقت قيام الساعة وخروج يأجوج ومأجوج . والدجال ، وعيسى عليه السلام ، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور .

الجهمية وردوها وأبطلوها التي مضمونها تعطيل النصوص عما دلت عليه .

ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة في أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية ، ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها ، ويفهمون منها بعض ما دلت عليه ، كما يفهمون ذلك في سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك .

وأحمد قد قال في غير أحاديث الصفات تمر كما جاءت ، وفي أحاديث الوعيد مثل قوله :
« من غشنا فليس منا » [1] .

وأحاديث الفضائل ، ومقصوده بذلك أن الحديث لا يحرف كلمه عن مواضعه ، كما يفعله من يحرفه ويسمى تحريفه تأويلاً بالعرف المتأخر .

فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل وكذلك نص أحمد في كتاب « الرد على الزنادقة والجهمية » أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن ، وتكلم أحمد على ذلك المتشابه ، وبيَّن معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية وجرى في ذلك على سنن الأئمة قبله ـ فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه ، وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره بل يبين ويفسر باتفاق الأئمة من غير تحريف له عن مواضعه ، أو إلحاد في أسماء الله وآياته

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة ، وفيه ومن حمل علينا السلاح فليس منا وعنده أيضاً عنه مرفوعاً « من غشَّ فليس مني » قاله حين مرَّ على صبرة من طعام وأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً ، فقال : ما هذا يا صاحب الطعام . .؟ قال أصابه السماء يا رسول الله ، قال : هلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس فذكره ، ورواه ابن عنبسة عن العلاء بلفظ الترجمة ، وزاد قيل يا رسول الله ما معنى قولك ليس منا . .؟ فقال : ليس مثلنا ، وفي الباب عن أنس ، وبريدة ، وحذيفة ، وابن عباس ، وابن عمر ، وابن مسعود ، وعلي ، وغيرهم . ولفظ حديث علي عند السكري : ليس منا من غشَّ مسلماً أو ضاره أو ماكره ، ولفظ حديث ابن عمر عند القضاعي : يا أيها الناس لا غش بين المسلمين من غش فليس منا ، ولفظ حديث أنس عند الدارقطني في الإفراد بسند ضعيف : من غشَّ أمتي فعليه لعنة الله » .

ومما يوضح لك ما وقع هنا من الاضطراب أن أهل السنة متفقون على إبطال تأويلات الجهمية ونحوهم من المنحرفين الملحدين .

والتأويل المردود هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره ، فلو قيل : إن هذا هو التأويل المذكور في الآية وأنه لا يعلمه إلا الله لكان في هذا تسليم للجهمية أن للآية تأويلاً يخالف دلالتها ، لكن ذلك لا يعلمه إلا الله .

وليس هذا مذهب السلف والأئمة ، وإنما مذهبهم نفي هذه التأويلات وردها ، لا التوقف فيها ، وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها ، وتمر كما جاءت دالة على المعاني ، لا تحرف ولا يلحد فيها .

والدليل على أن هذا ليس بمتشابه لا يعلم معناه أن نقول : لا ريب أن الله سمى نفسه في القرآن بأسماء مثل : الرحمن ، والودود ، والعزيز والجبار والعليم والقدير والرءوف ، ونحو ذلك ، ووصف نفسه بصفات مثل : سورة الإخلاص ، وآية الكرسي ، وأول الحديد ، وآخر الحشر . وقوله ﴿ **إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شيءٍ عَلِيْمٌ** ﴾ [1] و ﴿ **عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [2] وأنه ﴿ **يُحِبُّ المُتَّقِيْنَ** ﴾ [3] .

و ﴿ **المقسطين** ﴾ و ﴿ **المحسنين** ﴾ وأنه يرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

﴿ **فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ** ﴾ [4]

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١١٥ .

(٢) سورة التغابن آية رقم ١ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٧٦ والآية ﴿ **بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين** ﴾

(٤) سورة الزخرف آية رقم ٥٥ .

﴿ ذَلِك بأَنَّهُم اتَّبعُوا مَا أَسْخَطَ الله ﴾ [1]

﴿ وَلكِنْ كَرِهَ الله انْبِعَاثَهُمْ ﴾ [2]

﴿ الرَّحمْنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [3]

﴿ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى العَرْشِ ﴾ [4]

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ في الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْها وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيْها وَهُوَ مَعَكُمْ أينما كُنْتُمْ ﴾ [5]

﴿ وَهُوَ الَّذي في السَّماءِ إِلَهٌ وَفي الأَرْضِ إِلَه وَهُوَ الحَكيمُ العَلِيْمُ ﴾ [6]

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلِمُ الطَّيبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [7]

﴿ إِنَّني مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [8]

﴿ وَهُوَ الله في السَّموات وَفي الأَرْضِ ﴾ [9]

﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [10]

﴿ بَلْ يَداهُ مَبْسُوْطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [11] .

---

(1) سورة محمد آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٤٦ .

(٣) سورة طه آية رقم ٥ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ٥٤ .

(٥) سورة الحديد آية رقم ٤ .

(٦) سورة الزخرف آية رقم ٨٤ .

(٧) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

(٨) سورة طه رقم ٤٦ .

(٩) سورة الأنعام آية رقم ٣ وتكملتها (يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون)

(١٠) سورة ص آية رقم ٧٥ .

(١١) سورة المائدة آية رقم ٦٤ .

﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُوْ الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [1]

﴿ يُرِيْدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [2]

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ [3]

إلى أمثال ذلك .

فيقال لمن ادعى في هذا أنّه متشابه لا يعلم معناه أتقول هذا في جميع ما سمى الله ووصف به نفسه أم في البعض ؟

فإن قلت : هذا في الجميع كان هذا عناداً ظاهراً وجحداً لما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام بل كفر صريح ، فإنا نفهم من قوله ﴿ إنّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ ﴾ [4] معنى .

ونفهم من قوله ﴿ إنَّ الله عَلَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ ﴾ [5] معنى ليس هو الأول .

ونفهم من قوله ﴿ وَرَحْمَتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ ﴾ [6] معنى .

---

(١) سورة الرحمن آية رقم ٢٧ .

(٢) هذا جزء من آية من سورة الانعام ٥٢ وصدرها ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾

(٣) سورة طه آية رقم ٣٩ .

(٤) سورة العنكبوت آية رقم ٦٢ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٢٠ وصدر الآية﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

(٦) سورة الأعراف آية رقم ١٥٦ وصدر الآية ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة ، وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ﴾ .

ونفهم من قوله ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُوْ انْتِقَام ﴾ [1] معنى وصبيان المسلمين ، بل وكل عاقل يفهم هذا وقد رأيت بعض من ابتدع وجحد من أهل المغرب ـ مع انتسابه إلى الحديث لكن أثرت فيه الفلسفة الفاسدة ـ من يقول : إنا نسمى الله الرحمن العليم القدير علماً محضاً من غير أن نفهم منه معنى يدل على شيء قط ، وكذلك في قوله ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾ [2] يطلق هذا اللفظ من غير أن نقول له علم .

وهذا الغلو في الظاهر من جنس غلو القرامطة [3] في الباطن ، لكن هذا أيبس ، وذاك أكفر .

ثم يقال لهذا المعاند : فهل هذه الأسماء دالة على الآله المعبود ، وعلى حق موجود أم لا ؟

فإن قال : لا . كان معطلاً محضاً .

وما أعلم مسلماً يقول هذا .

وإن قال : نعم . قيل له : فلم فهمت منها دلالتها على نفس الرب ،

---

(١) سورة ابراهيم آية رقم ٤٧ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٣) القِرامطة : فرقة تنسب الى حمدان بن الأشعث ، الملقب بقرمط تتلمذ على حسين الأهوازي ، رسول عبد الله بن ميمون القداح ، واتخذ لنفسه داراً للهجرة قريباً من الكوفة ، ويشترك مع الباطنية في كثير من العقائد الباطلة ، وكثيراً ما شنَّ الغارات على المسلمين بقصد اضعاف دولتهم ، وكان لدعوة القرامطة أثر كبير في إثارة الفتنة في العالم الإسلاميّ ، ويكفي أن يعلم أنهم سرقوا الحجر الأسود من مكانه في مكة ونقلوه الى مكان آخر في البحرين في القرن الثالث الهجري ، ليبطلوا بذلك فريضة الحج الى مكة ـ هذا بالاضافة الى مبادئهم المسفة في الضلال من إباحة المحرمات ، واغتصابهم للأعراض وتعطيلهم لشعائر الله . [راجع مقالات الاسلاميين ١ : ٢٦ والفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٦٩ ـ ١٧٣ ودائرة المعارف الاسلامية مادة : حمدان قرمط ، ومشكاه الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار ليحيى بن حمزة العلوي (المقدمة) وبغية المرتاد في الرد على القرامطة أهل الالحاد لابن تيمية] .

ولم تفهم دلالتها على ما فيها من المعاني من الرحمة والعلم ، وكلاهما في الدلالة سواء فلا بد أن يقول : نعم ، لأن ثبوت الصفات محال في العقل ، لأنه يلزم منه التركيب أو الحدوث بخلاف الذات ، فيخاطب حينئذ بما يخاطب به الفريق الثاني كما سنذكره ، وهو من أقر بفهم بعض معنى هذه الأسماء والصفات دون بعض .

فيقال له : ما الفرق بين ما أثبته وبين ما نفيته أو سكت عن إثباته ونفيه [١] ، فإن الفرق إما أن يكون من جهة السمع لأن أحد النصين دال دلالة قطعية أو ظاهرة بخلاف الآخر ، أو من جهة العقل بأن أحد المعنيين يجوز أو يجب إثباته دون الآخر ، وكلا الوجهين باطل في أكثر المواضع [٢] ؟ .

أما الأول : فدلالة القرآن على أنه رحمن ، رحيم ، ودود ، سميع ، بصير ، على عظيم كدلالته على أنه عليم ، قدير ، ليس بينهما فرق من جهة النص ، وكذلك ذكره لرحمته ومحبته وعلوه مثل ذكره لمشيئته وإرادته وأما الثاني فيقال لمن أثبت شيئا ونفى آخر : لم نفيت مثلاً [٣] حقيقة رحمته ، ومحبته ، وأعدت ذلك إلى إرادته ؟ فإن قال : لأن المعنى المفهوم من الرحمة في حقنا هي رقة تمتنع على الله ، قيل له : والمعنى المفهوم من الإرادة في حقنا هي ميل يمتنع على الله .

فإن قال : ارادته من جنس إرادة خلقه .

قيل له : ورحمته ليست من جنس رحمة خلقه وكذلك محبته [٤] .

وإن قال : ـ وهو حقيقة قوله ـ لم أثبت الإرادة وغيرها بالسمع ، وإنما

---

(١) سقط من (ب) لفظ (ونفيه)
(٢) في (أ) بزيادة جملة (في أكثر المواضع)
(٣) سقط من (ب) لفظ (مثلا) .
(٤) سقط من (ب) جملة (وكذلك محبته)

أثبت العلم ، والقدرة ، والإرادة ، بالعقل ، وكذلك السمع [1] ، والبصر ، والكلام ، على إحدى الطريقتين ، لأن الفعل دل على القدرة والإحكام دل على العلم ، والتخصيص دل على الإرادة قيل له : الجواب من ثلاثة أوجه :

« أحدها » [2] أن الإنعام ، والإحسان ، وكشف الضر ، دل أيضاً على الرحمة كدلالة التخصيص على الإرادة والتقريب والإدناء ، وأنواع التخصيص التي لا تكون إلا من المحب تدل على المحبة ، أو مطلق التخصيص يدل على الإرادة ، وأما التخصيص بالإنعام فتخصيص خاص ، والتخصيص بالتقريب والاصطفاء تقريب خاص وما سلكه في مسلك الإرادة يسلك في مثل هذا .

« الثاني » يقال له : هب أن العقل لا يدل على[3] هذا فإنه لا ينفيه إلا بمثل ما ينفي به الإرادة والسمع دليل مستقل بنفسه [4] ، بل الطمأنينة إليه في هذه المضايق أعظم [5] ، ودلالته أتم .

فلأي شيء نفيت مدلوله ، أو توقفت [6] وأعدت هذه الصفات كلها إلى الإرادة مع أن النصوص لم تفرق ؟ فلا يذكر حجة إلا عورض بمثلها في اثباته الارادة زيادة على الفعل .

« الثالث » يقال له : إذا قال لك الجهمي : الإرادة لا معنى لها إلا عدم الإكراه ، أو نفس الفعل والأمر به وزعم أن إثبات الإرادة تقتضي محذوراً إن قال بقدمها ، ومحذوراً إن قال بحدوثها .

---

(١) سقط من (ب) جملة (السمع والبصر) .
(٢) في (ب) الأول بدلاً من (أحدها) .
(٣) في (ب) لا يدل عليه بدلاً من (لا يدل على هذا) .
(٤) سقط من (ب) لفظ (بنفسه) .
(٥) في (ب) أكبر بدلاً من (أعظم) .
(٦) سقط من (ب) لفظ (أو توقفت) .

وهنا اضطربت المعتزلة [1] ، فإنهم لا يقولون بإرادة قديمة لامتناع صفة قديمة عندهم ، ولا يقولون بتجدد صفة له لامتناع حلول الحوادث عند أكثرهم مع تناقضهم .

فصاروا حزبين : البغداديون وهم أشد غلواً في البدعة في الصفات وفي القدر نفوا حقيقة الإرادة وقال الجاحظ [2] : لا معنى لها إلا عدم الإكراه .

وقال الكعبي [3] : لا معنى لها إلا نفس الفعل إذا تعلقت بفعله ، ونفس الأمر إذا تعلقت بطاعة عباده والبصريون كأبي [4] علي وأبي هاشم [5]

---

(١) راجع ما كتبه الامام الأشعري في هذه النقطة في كتابه مقالات الاسلاميين الجزء الأول .

(٢) هو عمر بن بحر بن محبوب الكناني بالولاد ، أبو عثمان الشهير بالجاحظ رئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ، مولده عام ١٦٣ هـ في البصرة ، ووفاته بها عام ٢٥٥ هـ فلج في آخر عمره ، وكان مشوه الخلقة ، ومات والكتاب على صدره . من كتبه : الحيوان ، والبيان والتبيين، ومسائل القرآن « وفضيلة المعتزلة » . [راجع الوفيات ١ : ٣٨٨ ولسان الميزان ٤ : ٣٥٥ وتاريخ بغداد ١٢ : ٢١٢ ودائرة المعارف الاسلامية ٦ : ٢٣٥]

(٣) الكعبي : هو عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي من بني كعب البلخي الخراساني أحد أئمة المعتزلة ، كان رأس طائفة منهم تسمى « الكعبية » وله آراء ومقالات في الكلام انفرد بها وهو من أهل بلخ أقام ببغداد مدة طويلة وتوفي بها عام ٣١٩ هـ من كتبه « التفسير » وتأييد مقالة أبو الهذيل » « وأدب الجدل » والطعن على المحدثين . قال السمعاني : من مقالته أن الله تعالى ليس له إرادة وأن جميع أفعاله واقعة منه بغير إرادة ولا مشيئة منه لها » وهذا تجديف وتضليل . [راجع تاريخ بغداد ٩ : ٣٨٤ والمقريزي ٢ : ٣٤٨ ولسان الميزان ٣ : ٢٥٥ ووفيات الأعيان ١ : ٢٥٢]

(٤) هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي : من أئمة المعتزلة ورئيس علماء الكلام في عصره ، وإليه نسبة الطائفة الجبائية ، له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب نسبته الى جبى (من قرى البصرة) اشتهر في البصرة ودفن بجبى عام ٣٠٣ هـ له تفسير حافل مطول : رد عليه الأشعري : [راجع المقريزي ٢ : ٣٤٨ ووفيات الأعيان ١ : ٤٨٠ والبداية والنهاية ١١ : ١٢٥ ومفتاح السعادة ٢ : ٣٥ ودائرة المعارف الإسلامية ٦ : ٢٧٠ ـ ٢٧٤]

(٥) هو عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي ، من أبناء أبان مولى عثمان ، عالم بالكلام، من كبار المعتزلة ، له آراء انفرد بها وتبعته فرقة سميت « البهشمية » نسبة الى كنيته =

قالوا : تحدث إرادة لا في محل فلا إرادة ، فالتزموا حدوث حادث غير مراد ، وقيام صفة بغير محل . وكلاهما عند العقلاء معلوم الفساد بالبديهة .

كان جوابه : أن ما ادعى إحالته من ثبوت الصفات ليس بمحال ، والنص قد دل عليها والعقل أيضاً فإذا أخذ الخصم ينازع في دلالة النص أو العقل جعله مسفسطاً أو مقرمطاً ، وهذا بعينه موجود في الرحمة والمحبة ، فإن خصومه ينازعونه في دلالة السمع والعقل عليها على الوجه القطعي .

ثم يقال لخصومه : بم أثبتم أنه عليم قدير ؟
فما أثبتوه به من سمع وعقل فبعينه تثبت الإرادة .
وما عارضوا به من الشبه عورضوا بمثله في العليم القدير وإذا انتهى الأمر إلى ثبوت المعاني وأنها تستلزم الحدوث أو التركيب والافتقار كان الجواب ما قررناه في غير هذا الموضع ؛ فإن ذلك لا يستلزم حدوثاً ولا تركيباً مقتضيا حاجة إلى غيره .

ويعارضون أيضاً بما ينفي به أهل التعطيل الذات من الشبه الفاسدة ، ويلزمون بوجود الرب الخالق المعلوم بالفطرة الخلقية ، والضرورة العقلية ، والقواطع العقلية واتفاق الأمم وغير ذلك من الدلائل .

ثم يطالبون بوجود من جنس ما نعهده ، أو بوجود يعلمون كيفيته ، فلا بد أن يفروا إلى إثبات ما لا تشبه حقيقته الحقائق .

فالقول في سائر ما سمي ووصف به نفسه كالقول في نفسه سبحانه وتعالى .

ونكتة هذا الكلام : أن غالب من نفى وأثبت شيئاً مما دل عليه الكتاب

= « أبي هاشم » وله مصنفات في الاعتزال كما لأبيه قبله مولده عام ٢٤٧ هـ ووفاته ببغداد عام ٣٢١ هـ . [راجع المقريزي ٢ : ٣٤٨ ووفيات الأعيان ١ : ٢٩٢ والبداية والنهاية ١١ : ١٧٦ وميزان الاعتدال ٢ : ١٣١ وتاريخ بغداد ١١ : ٥٥]

والسنّة لا بد أن يثبت الشيء لقيام المقتضى وانتفاء المانع ، وينفي الشيء لوجود المانع أو لعدم المقتضى ، أو يتوقف إذا لم يكن له عنده مقتضى ولا مانع ، فيبين له أن المقتضى فيما نفاه قائم ، كما أنه فيما أثبته قائم . إما من كل وجه أو من وجه يجب به الإثبات .

فإن كان المقتضى هناك حقاً فكذلك هنا ، وإلا فدرء ذاك المقتضى من جنس درء هذا .

وأما المانع فيبين أن المانع الذي تخيله فيما نفاه من جنس المانع الذي تخيله فيما أثبته ، فإذا كان ذلك المانع المستحيل موجودا على التقديرين لم ينجح من محذوره بإثبات أحدهما ونفي الآخر ، فإنه إن كان حقاً نفاهما وإن كان باطلاً لم ينف واحداً منهما ، فعليه أن يسوي بين الأمرين في الإثبات والنفي ، ولا سبيل إلى النفي ، فتعين الإثبات .

فهذه نكتة الإلزام لمن أثبت شيئاً ، وما من أحد إلا ولا بد أن يثبت شيئاً أو يجب عليه إثباته فهذا يعطيك من حيث الجملة أن اللوازم التي يدعي أنها موجبة النفي خيالات غير صحيحة ، وإن لم يعرف فسادها على التفصيل

وأما من حيث التفصيل فيبين فساد المانع وقيام المقتضى كما قرر هذا غير مرة .

فإن قال من أثبت هذه الصفات التي هي فينا أعراض كالحياة ، والعلم ، والقدرة ، ولم يثبت ما هو فينا أبعاض كاليد ، والقدم ، هذه أجزاء وأبعاض تستلزم التركيب ، والتجسيم .

قيل له : وتلك أعراض [1] تستلزم التجسيم والتركيب العقلي كما

---

(١) العرض : ضد الجوهر ، لأن الجوهر هو ما يقوم بذاته ولا يفتقر الى غيره ليقوم به ، على حين أن العرض هو الذي يفتقر الى غيره ليقوم به ، فالجسم جوهر يقوم بذاته ، أما اللون فهو =

استلزمت هـذه عنـدك التـركيب الحسي فـإن أثبت تلك على وجـه لا تكـون أعراضاً أو تسميتها أعراضاً لا يمنع ثبوتها .

قيل له : وأثبت هذه على وجه لا تكون تركيباً وأبعاضاً أو تسميتها تـركيباً وأبعاضاً لا يمنع ثبوتها .

فإن قيل : هذه لا يعقل منها إلا الأجزاء .

قيل له : وتلك لا يعقل منها إلا الأعراض .

فإن قال : العرض ما لا يبقى وصفات الرب باقية قيل : والبعض ما جاز انفصاله عن الجملة ، وذلـك في حق الله محال ، فمفـارقة الصفـات القديمـة مستحيلة في حق الله تعـالى مـطلقاً ، والمخلوق يجـوز أن تفـارقـه أعـراضـه وأبعاضه .

فإن قال : ذلك تجسيم ، والتجسيم منتف .

قيل : وهذا تجسيم ، والتجسيم منتفٍ .

فإن قال : أنـا أعقل صفـة ليست عرضـاً بغير متحيـز وإن لم يكن له في الشاهد نظير .

قيـل له : فـأعقل صفـة هي لنـا بعض لغيـر متحيـز وإن لم يكن لـه في الشاهد نظير ، فإن نفى عقل هـذا نفى عقل ذاك ، وإن كـان بينهما نـوع فرق لكنه فرق غير مؤثر في موضع النزاع .

ولهـذا كانت المعـطلة الجهمية تنفي الجميـع ، لكن ذاك أيضـا مستلزم

= عـرض لأنه لا قيام له الا بـالجسم ، وكل مـا يعرض في الجـوهـر من لـون ، وطعم وذوق ، ولمس ، وغيره ، فهو عرض لاستحالة قيامه بذاته والعرض : ضد الماهية ، وهو مـا لا يدخـل في تقـويم طبيعة الشيء لـلإنسان ، فهمـا لا يدخـلان في تقـويم مـاهيتـه . ومنهم من يجعـل الأعراض على نوعين : قار الذات ، وهو الذي تجتمـع أجزاؤه في الـوجود كـالبياض والسـواد وغيره ، وغير قار الذات وهو الذي لا تجتمع أجزاؤه في الوجود كالحركة والسكون والعـرض : هو المنسوب الى العرض ، وهو ضد الجوهري ، والذاتي والضروري .

لنفي الذات .

ومن أثبت هذه الصفات الخبرية من نظير هؤلاء صرح بأنها صفة قائمة به كالعلم والقدرة ، وهذا أيضاً ليس هو معقول النص . ولا مدلول العقل وإنما الضرورة ألجأتهم إلى هذه المضايق .

« السبب الذي ألجأ أهل البدع الى النفي والتعطيل »

وأصل ذلك أنهم أتوا بألفاظ ليست في الكتاب ولا في السنّة ، وهي ألفاظ مجملة مثل : متحيز ومحدود ، و« جسم » [1] و« مركب » [2] ونحو ذلك ونفوا مدلولها ، وجعلوا ذلك مقدمة بينهم مسلمة ومدلولاً عليها بنوعَ قياس ، وذلك القياس أوقعهم فيه مسلك سلكوه في إثبات حدوث العالم بحدوث الأعراض ، أو إثبات إمكان الجسم بالتركيب من الأجزاء فوجب طرد الدليل بالحدوث والإمكان لكل ما شمله هذا الدليل ، إذ الدليل القطعي لا يقبل الترك لمعارض راجح ، فرأوا ذلك يعكر عليهم من جهة النصوص ، ومن جهة العقل من ناحية أخرى ، فصاروا أحزاباً ، تارة يغلبون القياس الأول ، ويدفعون ما عارضه وهم المعتزلة وتارة يغلبون القياس الثاني ويدفعون الاول كهشام بن الحكم [3] الرافضي ، فإنه قد قيل : أول ما تكلم في الجسم نفياً

---

(١) الجسم في بادىء النظر : هو هذا الجوهر الممتد القابل للأبعاد الثلاثة : الطول ، والعرض ، والعمق ، وهو ذو شكل ووضع وله مكان إذا شغله منع غيره من التداخل فيه معه ، فالامتداد وعدم التداخل هما إذن المعنيان المقومان للجسم ، ويضاف إليهما معنى ثالث ، وهو الكتلة .

(٢) المركب هو المؤلف من أجزاء كثيرة ، ويقابله البسيط كالجسم ، فإنه إذا كان مؤلفاً منَ أجزاء كثيرة كان مركباً وإذا لم يكن كذلك كان بسيطاً .

(٣) هو هشام بن الحكم الكوفي ، متكلم مناظر ، كان شيخ الإمامية في وقته ، ولد بالكوفة ، ونشأ بواسط ، وسكن بغداد ، وانقطع الى يحيى البرمكي ، فكان القيم بمجالس كلامه ونظره ،

وإثباتاً من زمن هشام بن الحكم ، وأبي الهذيل العلاف [1] ، فإن أبا الهذيل ونحوه من قدماء المعتزلة نفوا الجسم لما سلكوا من القياس فعارضهم هشام ، وأثبت الجسم لما سلكوه من القياس ، واعتقد الأولون إحالة ثبوته .

واعتقد هذا إحالة نفيه ، وتارة يجمعون بين النصوص والقياس بجمع يظهر فيه الإحالة والتناقض . فما أعلم أحداً من الخارجين عن الكتاب والسنّة من جميع فرسان الكلام والفلسفة إلا ولا بد أن يتناقض فيحيل ما أوجب نظيره ، ويوجب ما أحال نظيره ، إذ كلامهم من عند غير الله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوْا فِيْهِ اخْتِلَافاً كَثِيْراً ﴾ [2] .

والصواب ما عليه أئمة الهدى ، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله . لا يتجاوز القرآن والحديث ، ويتبع في ذلك سبيل السلف الماضين أهل العلم والإيمان ، والمعاني المفهومة من الكتاب والسنّة لا ترد بالشبهات ، فتكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، ولا يعرض عنها فيكون من باب « الذين إذا ذكروا بآيات ربهم يخرون عليها صماً وعمياناً » .

= وصنف كتباً منها « الامامة » و« القدر » و« الشيخ والغلام » و« الدلالات على حدوث الأشياء » و« الرد على المعتزلة في طلحة والزبير » و« الرد على الزنادقة » و« الرد على هشام الجواليقي » و« الرد على شيطان الطاق » وغير ذلك توفي عام ١٩٠ هـ . [راجع منهج المقال ٣٥٩ ، وسفينة البحار ٢ : ٧١٩]

(١) هو أبو الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي ، مولى عبد القيس أبو الهذيل العلاف ، من أئمة المعتزلة ، ولد في البصرة عام ١٣٥ هـ واشتهر بعلم الكلام . قال المأمون : أطل أبو الهذيل على الكلام كاطلال الغمام على الأنام ، له مقالات في الاعتزال ، ومجالس ، ومناظرات كف بصره في آخر عمره وتوفي بسامرا له كتب كثيرة منها كتاب سماه (ميلاس) على اسم مجوس أسلم على يده ، وللأستاذ علي مصطفى الغرابي « أبو الهذيل العلاف » في سيرته وأقواله . [راجع وفيات الأعيان ١ : ١٨٠ ، ولسان الميزان ٥ : ٤١٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٩٨ ، وتاريخ بغداد ٣ : ٣٦٦ ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٤١٦ ونكت الهميان ٢٧٧ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٨٢ .

ولا يترك تدبر القرآن فيكون من باب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني .

فهذا أحد الوجهين ، وهو منع أن تكون هذه من المتشابه .

« الوجه الثاني » أنه إذا قيل : هذه من المتشابه أو كان فيها ما هو من المتشابه ، كما نقل عن بعض الأئمة أنه سمى بعض ما استدل به الجهمية متشابهاً ، فيقال الذي في القرآن أنه لا يعلم تأويله إلا الله .

إما المتشابه ، وإما الكتاب كله ما تقدم .

ونفي علم تأويله ليس نفي علم معناه ، كما قدمناه في القيامة وأمور القيامة .

وهذا الوجه قوي إن ثبت حديث ابن اسحاق في وفد نجران أنهم احتجوا على النبي ﷺ بقوله « إنا » و« نحن » ونحو ذلك .

ويؤيده أيضاً أنه قد ثبت أن في القرآن متشابهاً وهو ما يحتمل معنيين ، وفي مسائل الصفات ما هو من هذا الباب ، كما أن ذلك في مسائل المعاد وأولى ، فإن نفي المشابهة بين الله وبين خلقه أعظم من نفي المشابهة بين موعود الجنة وموجود الدنيا .

وإنما نكتة الجواب هو ما قدمناه أولاً أن نفي علم التأويل ليس نفياً لعلم المعنى .

ونزيده تقريراً : أن الله سبحانه يقول : ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا للنَّاسِ في هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتذكَّرُوْنَ . قُرآنَا عَرَبيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ** ﴾ [1] وقال تعالى ﴿ **آلـر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِيْن إنَّا أَنـزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعلكم**

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٧ ـ ٢٨ .

تَعْقِلُوْنَ ﴾ (1) فأخبر أنه أنزله ليعقلوه ، وأنه طلب تذكرهم . وقال أيضاً ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتفكَّرُوْنَ ﴾ (2) .

فحض على تدبره وفقهه والتذكر به ، والتفكر فيه ، ولم يستثن من ذلك شيئاً .

بل نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه مثل قوله : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُوْنَ الْقُرْآن أَمْ عَلَى قُلُوْبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (3) وقوله :

﴿ أَفَلاَ يَتدبَّرُوْن القُرآنَ وَلَوْ كَانَ مِن عند غَيْرِ الله لَوَجَدُوا فِيهِ اختلافاً كثيراً ﴾ (4)

ومعلوم أن نفي الاختلاف عنه لا يكون إلا بتدبره كله . وإلا فتدبر بعضه لا يوجب الحكم بنفي مخالفة ما لم يتدبر لما تدبر .

وقال علي رضي الله عنه لما قيل له : هل ترك عندكم رسول الله ﷺ شيئاً ؟ فقال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه ، وما في هذه الصحيفة ، فأخبر أن الفهم فيه مختلف في الأمة ، والفهم أخص من العلم والحكم ، قال الله تعالى ﴿ فَفَهَّمنَاها سُلَيْمانَ وكُلاًّ آتينا حُكماً وَعِلْماً ﴾ (5)

وقال النبي ﷺ : رب مبلغ أوعى من سامع (6) :

---

(1) سورة يوسف آية رقم 1 ـ 2 .
(2) سورة الحشر آية رقم 21 .
(3) سورة محمد آية رقم 24 .
(4) سورة النساء آية رقم 82
(5) سورة الأنبياء آية رقم 79 .
(6) هذا جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في كتاب الفتن 8 باب قول النبي - ﷺ (لا =

وقال : بلغوا عني ولو آية (١) .

« السلف فسروا آيات الصفات وتعلموا من النبي التفسير »

وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة قد تكلموا في جميع نصوص القرآن آيات الصفات وغيرها ، وفسروها بما يوافق دلالتها وبيانها ، ورووا عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة توافق القرآن ، وأئمة الصحابة في هذا أعظم من غيرهم مثل : عبد الله بن مسعود الذي كان يقول : لو أعلم أعلم بكتاب الله متى تبلغه آباط الإبل لأتيته ، وعبد الله بن عباس الذي دعا له النبي ﷺ (٢) ، وهو حبر الأمة ، وترجمان القرآن كانا هما وأصحابهما من أعظم

= ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) ٧٠٧٨ بسنده عن أبي بكرة أن رسول الله - ﷺ - خطب الناس فقال : أليس بيوم النحر . . ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : أي بلد هذا ؟ أليست بالبلد الحرام ؟ قلنا : بلى يا رسول الله قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم ، وأبشاركم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ قلنا : نعم قال : اللهم أشهد فليبغ الشاهد الغائب ، فإنه رب مبلغ يبلغه من هو أوعى له ، فكان كذلك . وأخرجه في العلم ٩ ، وفي كتاب الحج ١٣٢ وأخرجه الترمذي في العلم ٧ ، والدارمي في المقدمة ٢٤ وابن ماجه في المقدمة ١٨ باب من بلغ علماً ٢٣٣ بسنده عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه وذكره وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٧٢ (حلبي)

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب العلم باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل ٢٦٦٩ - عن ابن ثوبان - هو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن حسان بن عطية عن كبشة السلولي عن عبد الله بن عمرو قال . قال رسول الله - ﷺ وذكره وفيه زيادة [وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح] .
وأخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ٥٠ والدارمي في المقدمة ٤٦ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٥٩ ، ٢٠٢ ، ٢١٤ (حلبى)

(٢) قال الرسول - ﷺ - (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) والحديث عند مسلم في كتاب فضائل الصحابة ٣٠ باب فضائل عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - ١٣٨ (٢٤٧٧) بسنده عن عبيد الله بن أبي يزيد يحدث عن ابن عباس - وذكره وعند البخاري في كتاب =

الصحابة والتابعين اثباتاً للصفات ، ورواية لها عن النبي ﷺ ، ومن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا .

وما في التابعين أجل من أصحاب هذين السيدين بل وثالثهما في علية التابعين من جنسهم أو قريب منهم ، ومثلهما في جلالته جلالة أصحاب زيد بن ثابت [1] لكن أصحابه مع جلالتهم ليسوا مختصين به ، بل أخذوا عن غيره مثل : عمر وابن عمر ، وابن عباس ولو كان معاني هذه الآيات منفياً أو مسكوتا عنه لم يكن ربانيو الصحابة أهل العلم بالكتاب والسنّة أكثر كلاماً فيه .

ثم إن الصحابة نقلوا عن النبي ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع من تفسير آية .

قال أبو عبد الرحمن السلمي [2] : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل .

= الوضوء ١٠ وعند أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٦٦ ، ٣١٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥ .

(١) هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي ، أبو خارجة صحابي من أكابرهم ، كان كاتب الوحي ، ولد في المدينة عام ١١ ق . هـ ونشأ بمكة ، وقتل أبوه وهو ابن ست سنين ، وهاجر مع النبي - ﷺ - وهو ابن ١١ سنة ، وتعلم وتفقه في الدين ، فكان رأساً بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض ، وكان ابن عباس على جلالة قدره وسعة علمه يأتيه الى بيته للأخذ منه ، ويقول العلم يؤتى ، ولا يأتي ، وأخذ ابن عباس بركاب زيد فنهاه زيد فقال ابن عباس هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا ، فأخذ زيد كفه وقبلها وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا ، وكان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي - ﷺ - من الأنصار وعرضه عليه ، وهو الذي كتبه في المصحف لأبي بكر ، ثم لعثمان حين جهز المصاحف الى الأمصار له في كتب الحديث ٩٢ حديثاً . [راجع غاية النهاية ١ : ٢٩٦ وصفة الصفوة ١ : ٢٩٤]

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

وكذلك الأئمة كانوا إذا سئلوا عن شيء من ذلك لم ينفوا معناه ، بل يثبتون المعنى ، وينفون الكيفية كقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالى ﴿ الرَّحمنُ عَلَى العَرشِ اسْتَوىٰ ﴾ (١)
كيف استوى ؟

فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وكذلك ربيعة قبله .

وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول فليس في أهل السنة من ينكره .

وقد بين أن الاستواء معلوم ، كما أن سائر ما أخبر به معلوم ، ولكن الكيفية لا تعلم ولا يجوز السؤال عنها ، لا يقال : كيف استوى ؟

ولم يقل مالك (١) : الكيف معدوم ، وإنما قال : الكيف مجهول .

وهذا فيه نزاع بين أصحابنا وغيرهم من أهل السنّة غير أن أكثرهم يقولون : لا تخطر كيفيته ببال . ولا تجري ماهيته في مقال .

ومنهم من يقول : ليس له كيفية ، ولا ماهية .

---

(١) سورة طه آية رقم ٥ .

(٢) هو الامام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري ، أبو عبد الله إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه تنسب المالكية ، مولده ووفاته في المدينة ، كان صلباً في دينه ، بعيداً عن الأمراء والملوك ، وشى به إلى جعفر عم المنصور العباس فضربه بالسياط ووجه اليه الرشيد العباس ليأتيه فيحدثه فقال : العلم يؤتى فقصد الرشيد منزله . سأله المنصور أن يضع كتاباً للناس يحملهم على العمل به فصنف « الموطأ » وله رسالة في الوعظ ، ورسالة في الرد على القدرية ، وكتاب في النجوم ، وتفسير غريب القرآن توفي عام ١٧٩ هـ . [راجع الديباج المذهب ١٧ ـ ٣٠ والوفيات ١ : ٤٣٩ وتهذيب التهذيب ١٠ : ٥ وصفة الصفوة ٢ : ٩٩ وحلية ٦ : ٣١٦ وذيل المذيل ١٠٦ والخميس ٢ : ٣٣٢] .

فإن قيل : معنى قوله الاستواء معلوم .

أن ورود هذا اللفظ في القرآن معلوم ، كما قاله بعض أصحابنا الذين يجعلون معرفة معانيها من التأويل الذي استأثر الله بعلمه .

قيل : هذا ضعيف ، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل فإن السائل قد علم أن هذا موجود في القرآن وقد تلا الآية .

وأيضاً : فلم يقل : ذكر الاستواء من القرآن ولا إخبار الله بالاستواء ، وإنما قال : الاستواء معلوم ، فأخبر عن الاسم المفرد أنه معلوم ، ولم يخبر عن الجملة .

وأيضاً فإنه قال : « والكيف مجهول » ولو أراد ذلك لقال : معنى الاستواء مجهول ، أو تفسير الاستواء مجهول ، أو بيان الاستواء غير معلوم فلم ينف إلا العلم بكيفية الاستواء لا العلم بنفس الاستواء وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه لو قال غي قوله : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [(١)] .

كيف يسمع ، وكيف يرى ؟

لقلنا : السمع والرؤ يا معلوم ، والكيف مجهول .

ولو قال : كيف كلم موسى تكليما ؟

---

(١) سورة طه آية رقم ٤٦ وهذه الآية ترد على من قال : إنه لا يخاف ، والخوف من الأعداء سنة الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم . ولقد أحسن البصري رحمه الله حين قال للمخبر عن عامر بن عبد الله أنه نزل مع أصحابه في طريق الشام على ماء فحال الأسد بينهم وبين الماء . فجاء عامر الى الماء فأخذ منه حاجته . فقيل له : قد خاطرت بنفسك فقال : لأن تختلف الأسنة في جوفي أحب إليَّ من أن يعلم الله أني أخاف شيئاً سواه . فقد خاف من كان خيراً من عامر ، موسى عليه السلام حين قال له الرجل : إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج إني لك من الناصحين . فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين » وقال : « فأصبح في المدينة خائفاً يترقب » وقال حين ألقى السحرة حبالهم وعصيهم « فأوجس في نفسه خيفة موسى . قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى » . وغير ذلك كثير والله أعلم .

لقلنا : التكليم معلوم ، والكيف غير معلوم .

وأيضاً : فإن من قال هذا من أصحابنا وغيرهم من أهل السنة ، يقرون بأن الله فوق العرش حقيقة ، وأن ذاته فوق ذات العرش ، لا ينكرون معنى الاستواء ، ولا يرون هذا من المتشابه الذي لا يعلم معناه بالكلية .

ثم السلف متفقون على تفسيره بما هو مذهب أهل السنة قال بعضهم : ارتفع على العرش ، علا على العرش .

وقال بعضهم عبارات أخرى ، وهذه ثابتة عن السلف قد ذكر البخاري في صحيحه بعضها في آخر كتاب « الرد على الجهمية » وأما التأويلات المحرفة مثل استوى وغير ذلك ، فهي من التأويلات المبتدعة لما ظهرت الجهمية .

« فعل الصحابة بمن اتبع المتشابه »

وأيضاً : قد ثبت أن اتباع المتشابه ليس في خصوص الصفات ، بل في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال لعائشة : يا عائشة إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله ، فاحذريهم [1] . وهذا عام ، وقصة صبيغ ابن عسل مع عمر بن الخطاب من أشهر القضايا فإنه بلغه أنه يسأل عن متشابه القرآن حتى رآه عمر فسأل عمر عن ﴿ **الذاريات ذروا** ﴾ فقال : ما اسمك ؟

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٣ سورة آل عمران ١ باب منه آيات محكمات ٤٥٤٧ عن ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها : وقد سمع ابن أبي مليكة عن عائشة كثيراً وكثيراً أيضاً ما يدخل بينها وبينه واسطة ، وقد اختلف عليه في هذا الحديث، فأخرجه الترمذي من طريق أبي عامر الجزار عن ابن أبي مليكة عن عائشة، ومن طريق زيد بن ابراهيم كما في الباب بزيادة القاسم ، ثم قال : روى غير واحد هذا الحديث عن ابن أبي مليكة عن عائشة ولم يذكروا القاسم ، وقد أخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي الوليد الطيالسي عن يزيد بن ابراهيم ، وحماد بن سلمة جميعاً عن ابن أبي مليكة عن القاسم ، وممن رواه عن ابن أبي مليكة بغير ذكر القاسم أيوب أخرجه ابن ماجه من طريق ، ونافع بن عمر ، وابن جريج وغيرهما .

قال : عبد الله صبيغ ، فقال : وأنا عبد الله عمر وضربه الضرب الشديد [١] .

وكان ابن عباس إذا ألح عليه رجل في مسألة من هذا الجنس ، يقول : ما أحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بصبيغ .

وهذا لأنهم رأوا أنه غرض السائل ابتغاء الفتنة لا الاسترشاد والاستفهام ، كما قال النبي ﷺ إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة فعاقبوهم على هذا القصد الفاسد ، كالذي يعارض بين آيات القرآن .

وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك وقال : لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض [٢] ، فإن ذلك يوقع الشك في قلوبهم ومع ابتغاء الفتنة ابتغاء تأويله الذي لا يعلمه إلا الله فكان مقصودهم مذموماً ومطلوبهم متعذراً مثل أغلوطات المسائل التي نهى رسول الله ﷺ عنها ومما يبين الفرق بين المعنى والتأويل أن صبيغاً سأل عمر عن « الذاريات » وليست من الصفات ، وقد تكلم الصحابة في تفسيرها مثل علي بن أبي طالب مع ابن الكواء لما سأله عنها كره سؤاله لما رآه من قصده ، لكن علي كانت رعيته ملتوية عليه لم يكن

---

(١) الأثر : أخرجه الدارمي في المقدمة ـ أخبرنا أبو النعمان ، ثنا حماد بن زيد ثنا يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار وذكره ، وفي رواية أخرى أخبرنا عبد الله بن صالح ، حدثني الليث أخبرني ابن عجلان عن نافع مولى عبد الله أن صبيغ العراقي جعل يسأل عن أشياء من القرآن في أخبار المسلمين حتى قدم مصر . فبعث به عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما الخ .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه في المقدمة ١٠ باب في القدر ٨٥ عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده ، قال : خرج رسول الله ـ ﷺ ـ على أصحابه وهم يختصمون في القدر فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب فقال : بهذا أمرتم ، أو لهذا خلقتم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعضه . بهذا هلكت الأمم قبلكم » .
قال : فقال عبد الله بن عمرو : ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ـ ﷺ ـ ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه .
في الزوائد : هذا إسناد صحيح ، ورجاله ثقات .

مطاعاً فيهم طاعة عمر حتى يؤدبه و﴿ الذاريات ﴾ و ﴿ الحاملات ﴾ و ﴿ الجاريات ﴾ و ﴿ المقسمات ﴾ فيها اشتباه ؛ لأن اللفظ يحتمل الرياح والسحاب والنجوم والملائكة ، ويحتمل غير ذلك ، إذ ليس في اللفظ ذكر الموصوف والتأويل الذي لا يعلمه إلا الله هو أعيان الرياح ومقاديرها وصفاتها ، ومتى تهب ، وأعيان السحاب وما تحمله من الأمطار ، ومتى ينزل المطر ، وكذلك في ﴿ الجاريات ﴾ و ﴿ المقسمات ﴾ فهذا لا يعلمه إلا الله .

وكذلك في قوله ﴿ إنا ﴾ و ﴿ نحن ﴾ ونحوهما من أسماء الله التي فيها معنى الجمع كما اتبعه النصارى ، فإن معناه معلوم ، وهو الله سبحانه ، لكن اسم الجمع يدل على تعدد المعاني ، بمنزلة الأسماء المتعددة مثل العليم والقدير والسميع والبصير فإن المسمى واحد ، ومعانيْ الأسماء المتعددة ، فهكذا الاسم الذي لفظه الجمع .

وأما التأويل الذي اختص الله به فحقيقة ذاته وصفاته كما قال مالك : والكيف مجهول .

فإذا قالوا : ما حقيقة علمه وقدرته وسمعه وبصره .

قيل : هذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله .

وما أحسن ما يعاد التأويل إلى القرآن كله .

فإن قيل : فقد قال النبي ﷺ لابن عباس : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل [1] .

قيل : أما تأويل الأمر والنهي فذاك يعلمه ، واللام هنا للتأويل

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الوضوء ١٠ باب وضع الماء عند الخلاء ١٤٣ - حدثنا هاشم بن القاسم ، قال حدثنا ورقاء عن عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس - أن النبي - ﷺ دخل الخلاء ، فوضعت له وضوءاً . قال : من وضع هذا . . ؟ فأخبر فقال : وذكره . وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ٣. باب من فضائل عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما ، وعند احمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٦٦ ، ٣١٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٥ (حلبي)

المعهود ، لم يقل : تأويل كل القرآن ، فالتأويل المنفي هو تأويل الأخبار التي لا يعلم حقيقة مخبرها إلا الله ، والتأويل المعلوم هو الأمر الذي يعلم العباد تأويله ، وهذا كقوله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ [1]

وقوله ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [2] فإن المراد تأويل الخبر الذي أخبر فيه عن المستقبل ، فإنه هو الذي « ينتظر » و« يأتي » و﴿ لما يأتهم ﴾ وأما تأويل الأمر والنهي فذاك في الأمر ، وتأويل الخبر عن الله وعمن مضى إن أدخل في التأويل لا ينتظر .

والله سبحانه أعلم ، وبه التوفيق .

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٥٣ .

(٢) سورة يونس آية رقم ٣٩ : أي ولم يأتهم حقيقة عاقبة التكذيب من نزول العذاب بهم ، أو كذبوا بما في القرآن من ذكر البعث ، والجنة ، والنار ، ولم يأتهم تأويله ، أي حقيقة ما وعدوا في الكتاب . قاله الضحاك وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد في القرآن ﴿ من جهل شيئاً عاداه ﴾ قال نعم ، في موضعين ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ وقوله : ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ .

فصل
القرآن آية صدق النبي

قال شيخ الاسلام ابن تيمية :

لما كان محمد ﷺ رسولاً إلى جميع الثقلين جنهم وإنسهم عربهم وعجمهم ، وهو خاتم الأنبياء لا نبي بعده ـ كان من نعمة الله على عباده ومن تمام حجته على خلقه ، أن تكون آيات نبوته ، وبراهين رسالته ، معلومة لكل الخلق ، الذين بعث إليهم ، وقد يكون عند هؤلاء من الآيات والبراهين على نبوته ما ليس عند هؤلاء . وكان يظهر لكل قوم من الآيات النفسية والأفقية ، ما يبين به ان القرآن حق كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّن هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِم[1] حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّه عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ** ﴾[2] أخبر سبحانه أنه سيرى العباد الآيات في أنفسهم ، وفي الآفاق ،

---

(١) انشد ابن ابي الدنيا في كتابه التفكر والاعتبار عن شيخه ابي جعفر القرشي حيث قال :

وإذا نظرت تريد معتبراً	فانظر إليك ففيك معتبر
أنت الذي تمس وتصبح في	الدنيا وكل أموره عبر
أنت المصرف كان في صغر	ثم استقل بشخصك الكبر
أنت الذي تنعاه خلقته	ينعاه منه الشعر والبشر
أنت الذي تعطي وتسلب لا	ينجيه من أن يسلب الحذر
أنت الذي لا شيء منه له	وأحق منه بماله القدر

(٢) سورة فصلت آية رقم ٥٢ ـ ٥٣ .

حتى يتبين لهم أن القرآن حق ، فإن الضمير عائد إليه ، إذ هو الذي تقدم ذكره كما قال : ﴿ قُل أرَأيْتُمْ إنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ الله ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أضلُّ مِمَّن هُوَ في شِقاقٍ بَعِيدٍ ﴾[1] والضمير في كان عائد الى معلوم يقول : أرأيتم إن كان القرآن من عند الله ثم كفرتم به ، من أضل ممن هو في شقاق بعيد .

فإنه على هذا التقدير. يكون الكافر في شقاق بعيد ، قد شاق الله ورسوله ولا أحد أضل ممن هو في مثل هذا الشقاق ، حيث كان في شق ، والله ورسوله في شق ، كما قال تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بالله وَمَا أُنْزِلَ إلَيْنا وَمَا أُنْزِلَ إلَىٰ إبْراهِيمَ وَإسمَاعِيلَ وَإسحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاط وَمَا أُوْتِيَ مُوسَى وَعِيسى وَمَا أُوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهم لاَ نُفَرِّق بَيْنَ أحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدوا وَإنْ تَوَلُّوا فَإنَّمَا هُمْ في شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾[2] بين أن من تولى عن ذلك لم يكن متبعاً للحق قاصداً له ، فإن هذا الذي قلتموه لا يتولى عنه من أهل الكتاب ، من قصده الحق ، وإنما يتولى عنه من قصده المشاقة والمعاداة لهوى نفسه ، وهذا يكفيك الله أمره .

والقرآن إن كان من عند الله ، ثم كفر به من كفر ، فلا أحد أضل ممن هو في مثل حاله ، إذ هو في شقاق بعيد ، وإن قدر أنه لم يعلم أنه حق ، فهوْ ضال ، والشقاق قد يكون مع العناد وقد يكون مع الجهل .

فإن الآيات إذا ظهرت ، فأعرض عن النظر الموجب للعلم كان مشاقاً ، ولهذا قال عقيب ذلك : ﴿ سَنُرِيهم آيـاتِنَا في الآفـاقِ وفي أنْفُسهِم حَتىٰ يتبَين لهم أنّه الحقُّ ﴾[3] .

فأخبر أنه سيرى عباده من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين أنه حق ، ثم

---

(١) سورة فصلت آية رقم ٥٢ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٣٦ ـ ١٣٧ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ٥٣

قال : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ . فإن شهادته وحده كافية بدون ما ينتظر من الآيات كما قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتابِ ﴾[1] وشهادته للقرآن ولمحمد ، تكون بأقواله التي انزلها قبل ذلك على أنبيائه كما قال تعالى عن أهل الكتاب ، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ ﴾[2] وتكون بأقواله التي أنزلها على محمد ﷺ ، فإن القرآن نفسه آية بينة ومعجزة قاهرة . وتكون بأفعاله وهو ما يحدثه من الآيات والبراهين الدالة على صدق رسله فإنه صدقهم بها فيها أخبروا به عنه ، وشهد لهم بأنهم صادقون . والقرآن نفسه هو قول الله ، وفيه شهادة الله بما أخبر به الرسول وإنزاله على محمد ﷺ ، وإتيان محمد به هو آية وبرهان وذلك من فعل الله إذ كان البشر لا يقدرون على مثله ، ولا يقدر عليه أحد من الأنبياء ولا الأولياء ولا السحرة ولا غيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ لئن اجْتَمَعَتِ الأنْسُ والجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القرآن لَا يأتونَ بِمِثْلِهِ وَلَو كانَ بَعْضُهُمْ لبعضٍ ظهيراً ﴾[3] ومحمد ﷺ أخبر بهذا في أول أمره إذ كانت هذه الآية في سورة « سبحان » وهي مكية صدرها بذكر الإسراء الذي كان بمكة باتفاق الناس .

وقد أخبر خبراً وأكّده بالقسم عن جميع الثقلين ، إنسهم وجنهم ، أنهم إذا اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، بل يعجزون عن ذلك ، وهذا فيه آيات لنبوته .

ومنها إقدامه على هذا الخبر العظيم عن جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة ، بأنهم لا يفعلون هذا ، بل يعجزون عنه .

وهذا لا يقدم عليه من يطلب من الناس أن يصدقوه إلا وهو واثق بأن الأمر كذلك ، إذ لو كان عنده شك في ذلك لجاز أن يظهر كذبه في هذا الخبر

---

(١) سورة الرعد آية رقم ٤٣ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٤٠ .

(٣) سورة الإسراء آية رقم ٨٨ .

فيفسد عليه ما قصده ، وهذا لا يقدم عليه عاقل مع اتفاق الأمم ، المؤمن بمحمد والكافر به ، على كمال عقله ومعرفته وخبرته إذ ساس العالم سياسة لم يسهم أحد بمثلها ، ثم جعله هذا في القرآن المتلو المحفوظ إلى يوم القيامة ، الذي يقرأ به في الصلوات ، وسمعه العام والخاص ، والولي والعدو دليل على كمال ثقته بصدق هذا الخبر ، وإلا لو كان شاكاً في ذلك ، لخاف أن يظهر كذبه عند خلق كثير ، بل عند أكثر من اتبعه ومن عاداه ، وهذا لا يفعله من يقصد أن يصدقه الناس ولا يقول مثل هذا ويظهره هذا الإظهار ، ويشيعه هذه الإشاعة ، وقصد أن يخلده هذا التخليد إلا وهو جازم عند نفسه بصدقه . ولا يتصور أن بشراً يجزم بهذا الخبر إلا أن يعلم أن هذا مما يعجز عنه الخلق ، إذ علم العالم بعجز جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة ، هو من أعظم دلائل كونه معجزاً وكونه آية على نبوته ، فهذا من دلائل نبوته في أول الأمر عند من سمع هذا الكلام ، وعلم أنه من القرآن الذي أمر ببلاغه إلى جميع الخلق وهو - وحده - كاف في العلم بأن القرآن معجز دع ما سوى ذلك من الدلائل الكثيرة على أنه معجز ، مثل عجز جميع الأمم من معارضته مع كمال الرغبة والحرص على معارضته .

وعدم الفعل مع كمال الداعي يستلزم عدم القدرة .

فلما كان دواعي العرب وغيرهم على المعارضة ، تامة وانتفت المعارضة علم عجز جميع الأمم عن معارضته ، وهذا برهان بين يعلم به صدق هذا الخبر ، وصدق هذا الخبر آية لنبوته ، غير العلم بأن القرآن معجز ، فذلك آية مستقلة لنبوته ، وهي آية ظاهرة باقية إلى آخر الدهر ، معلومة لكل أحد ، وهي من أعظم الآيات فإن كونه معجزاً يعلم بأدلة متعددة ، والإعجاز فيه من وجوه متعددة ، فتنوعت دلائل إعجازه ، وتنوعت وجوه إعجازه ، وكل وجه من الوجوه فهو دليل إعجازه وهذه جمل ، لبسطها تفصيل طويل ، ولهذا قال تعالى :

﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ**

أَوَلَمْ يكفِهِمْ أَنّا أنْزَلْنا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ ﴾[1] فهو كاف في الدعوة والبيان وهو كاف في الحجج والبرهان .

---

(1) سورة العنكبوت آية رقم ٥٠ - ٥١ .
قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا ليث ، حدثني سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ما من نبي إلا قد اعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ فأرجو أن اكون اكثرهم تابعاً يوم القيامة » . أخرجاه من حديث الليث .

فصل
في إظهار معجزاته

والآيات والبراهين الدالـة على نبـوة محمد ﷺ كثيـرة متنوعـة ، وهي أكثر وأعـظم من آيات غيـره من الأنبياء ويسميهـا من يسميها من النـظار معجزات ، وتسمى دلائل النبوة ، وأعلام النبوة ونحو ذلك . وهـذه الألفاظ إذا سميت بهـا آيات الأنبياء ، كانت أدل على المقصـود من لفظ المعجزات ، ولهـذا لم يكن لفظ المعجـزات مـوجـوداً في الكتـاب والسنـة وإنمـا فيــه لفظ (الآيـة) و (البينــة) و (البرهان) كما قال تعالى في قصة موسى ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّـكَ ﴾[1] في العصا واليد وقال الله تعالى في حق محمد ﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ قَـدْ جَاءكُمْ بُـرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ﴾[2] وقد قال في مـطالبة أهـل الدعـاوى الكاذبـة بالبرهان ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّة إلاّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُـلْ هَـاتُوا بُـرْهانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صـادِقِينَ ﴾[3] وقـال تعالى : ﴿ أَمْ مَنْ يَبْـدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ أإِلَهٌ مَعَ الله ؟ قُلْ هَـاتُوا بُـرْهانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾[4] وقال : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَـعَ الله إِلَهاً آخَـرَ لا بُرْهَـانَ لَهُ بِـهِ فإِنَّمـا

---

(١) سورة القصص آية رقم ٣٢ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٧٤ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١١١ .

(٤) سورة النمل آية رقم ٦٤ .

حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ : أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ . وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الحَقَّ لله وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾[2] .

وأما لفظ الآيات فكثير في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ، وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤمِنَ حَتّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾[5] وقول فرعون له : ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[6] وقال قوم صالح : ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[7] ﴿ قَالَ : هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾[8] وقال : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً ﴾[9] .

وقال المسيح : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[10].

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم ١١٧ .
(٢) سورة القصص آية رقم ٧٤ ـ ٧٥ .
(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٢٣ ـ ١٢٤ .
(٤) سورة الإسراء آية رقم ١٠١ .
(٥) سورة طه آية رقم ٢٢ .
(٦) سورة الشعراء آية رقم ١٥٤ .
(٧) سورة الشعراء آية رقم ١٥٤ .
(٨) سورة الشعراء آية رقم ١٥٥ .
(٩) سورة الأعراف آية رقم ٧٣ .
(١٠) سورة آل عمران آية رقم ٤٩ .

وقال في حق محمد : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ من آياتِ رَبِّهِمْ إلاّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِين فَقَدْ كَذَّبوا بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾[1] وقال : ﴿ أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بني إِسْرائِيل ﴾.[2] وقال :﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعةُ وانْشَقّ القَمرُ وإنْ يَرَوْا آيةً يُعْرِضُوا وَيقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ ﴾[3] .

وقال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلَى قُلوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يفْقَهُوهُ وفي آذَانِهِمْ وَقْراً وإنْ يَرَوْا كُلَّ آيةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ هَذَا إلاَّ أساطِيرُ الأوَّلِين ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآياتُ عِنْدَ الله وإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يكْفِهِمْ أَنَا أنزَلْنا عَلَيكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِم إنَّ في ذَلك لَرَحمَةً وَذِكرىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون ﴾[5] .

وقال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا في الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّه الحَقُّ ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ في فِئَتيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقَاتِلُ في سَبِيلِ الله وأُخرَى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ العَيْنِ والله يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إنَّ في ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصارِ ﴾[7] .

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ٤ ـ ٥ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ١٩٧ .

(٣) سورة القمر آية رقم ١ ـ ٢ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ٢٥ .

(٥) سورة العنكبوت آية رقم ٥٠ ـ ٥١ وقد جاءت هذه الآية محرفة في المطبوعة حيث قال (يأتينا بآية) بدلاً من ﴿ أنزل عليه آيات) .

(٦) سورة فصلت آية رقم ٥٣ .

(٧) سورة آل عمران آية رقم ١٣ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قال الَّذِينَ لَا يَرْجُون لِقَاءَنا ائْتِ بِقُرآنٍ غيرِ هَذَا أوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ قُلِ انْظُروا مَاذَا فِي السَّمَواتِ والأرضِ وما تُغْنِي الآياتُ والنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2] وقال لما ذكر قصص الأنبياء في سورة الشعراء قال في آخر كل قصة : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيْزُ الرَّحِيمُ ﴾[3] .

وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ للسَّائِلينَ ﴾[4] إلى أن قال في آخرها : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُون ﴾[5] إلى قوله : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ والأرْضِ يَمُرُّون عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ وَعَدَكُمْ الله مَغَانِمَ كَثِيرةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ولِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[7] وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ ﴾[8] .

وأما لفظ المعجزة فإنما يدل على أنه أعجز غيره كما قال تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾[9] وقال : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرْضِ وَلَا فِي السَّماءِ ﴾[10] ومن لا يثبت فعلاً إلا لله ، يقول : المعجز هو الله وإنما سمي غيره معجزاً مجازاً .

وهذا اللفظ لا يدل على كون ذلك آية ودليلاً إذا فسر المراد به ، وذكر

---

(1) سورة يونس آية رقم ١٥ .
(2) سورة يونس آية رقم ١٠١ .
(3) سورة الشعراء آية رقم ٨ ـ ٩ .
(4) سورة يوسف آية رقم ٧ .
(5) سورة يوسف آية رقم ١٠٢ .
(6) سورة يوسف آية رقم ١٠٥ .
(7) سورة الفتح آية رقم ٢٠ .
(8) سورة المؤمنون آية رقم ٥٠ .
(9) سورة الزمر آية رقم ٥١ .
(10) سورة العنكبوت آية رقم ٢٢ .

شرائطه، ولهذا كان كثير من أهل الكلام لا يسمى معجزاً إلا ما كان للأنبياء فقط ، وما كان للأولياء إن أثبت لهم خرق عادة سماها كرامة .

والسلف ـ كأحمد وغيره ـ كانوا يسمون هذا وهذا معجزاً ، ويقولون لخوارق الأولياء : إنها معجزات ، إذا لم يكن في اللفظ ما يقتضي اختصاص الأنبياء بذلك .

بخلاف ما كان آية وبرهاناً على نبوة النبي ، فإن هذا يجب اختصاصه وقد يسمون الكرامات آيات لكونها تدل على نبوة المدلول ، فكذلك ما كان آية وبرهاناً وهو الدليل والعلم على نبوة النبي يمتنع ان يكون لغير النبي .

وقد يقال : إنهم سموها معجزات لأن كرامات الأولياء دليل على نبوة النبي الذي اتبعوه ، ولهذا سموها آيات أيضاً ، أو لأنها تعجز غيرهم ، وهي آية على صحة طريقهم ، وبسط هذا له موضع آخر والمقصود هنا أن دلائل نبوة محمد ﷺ كثيرة ومتنوعة كما قد تكلمنا على ذلك في غير هذا الكتاب وبينا أن من يخصص دلائل النبوة بنوع فقد غلط ، بل هي أنواع كثيرة لكن الآيات نوعان : منها : ما مضى وصار معلوماً بالخبر كمعجزات موسى وعيسى . ومنها ما هو باق إلى اليوم ، كالقرآن الذي هو من أعلام نبوة محمد ﷺ وكالعلم والايمان اللذين في اتباعه فإنه من أعلام نبوته ، وكشريعته التي أتى بها ، فإنها أيضاً من أعلام نبوته ، وكالآيات التي يظهرها الله وقتاً بعد وقت من كرامات الصالحين من أمته ووقوع ما أخبر بوقوعه ، كقوله : (لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك)[1] . وقوله : (لا تقوم الساعة حتى تخرج نار بأرض الحجاز

---

(1) الحديث رواه البخاري في كتاب الجهاد ٩٥ باب قتال الترك ٢٩٢٨ حدثني سعيد بن محمد ،حدثنا يعقوب ، حدثنا ابي عن صالح عن الأعرج قال : قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، قال رسول الله ﷺ وذكره وفيه زيادة (صغار الأعين حمر الوجوه ، ذلف الأنوف ، كأن وجوههم المجان المطرقة ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعر . ورواه أيضاً في الزكاة ٩ ، والحج ٤٧ ، والمناقب ٢٥،٧ والاعتصام ١٤ والفتن٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥ تفسير سورة ٦ ، ٢ رقاق ٤٠ ورواه مسلم في الإيمان ٢٤٨ والترمذي في الزهد ٢٤ واحمد بن حنبل في المسند ١ : ٨٩ ، ٩٣ ، ٣٧٦ ، ٢ : ١٦٢ (حلبي) .

تضيء لها أعناق الإبل ببصرى)[1] .

وقد خرجت هذه النار سنة خمس وخمسين وستمـاية وشـاهد النـاس أعناق الإبل في ضوء النهار ببصرى .

وظهـور دينه وملتـه بالمحجـة والبرهـان واليـد والسنـان ، ومثـل المثـلات والعقوبات التي تحيق بأعدائه وغير ذلك ، وكنعته الموجود في كتب الأنبياء قبله ، وغير ذلك .

---

(١) الحديث عند البخـاري في كتاب الفتن ٢٤ بـاب خروج النـار ٧١١٨ حدثنـا أبو اليمـان أخبرنـا شعيب عن الزهري عن سعيد بن المسيب ، أخبرني ابو هريرة عن رسول الله ﷺ وذكره . ورواه مسلم في الفتن ٤٢ واحمد بن حنبل في المسند ٥ : ١٤٤ .

فصل
في معجزات القرآن

القرآن كلام الله وفيه الدعوة والحجة ، فله به اختصاص على غيره ، كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال : (ما مِنْ نبيٍ من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمَن على مِثْله البشر ، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)[1] والقرآن يظهر كونه آية وبرهاناً له ، من وجوه ، جملة وتفصيلاً . أما الجملة ، فإنه قد علمت الخاصة والعامة من عامة الأمم ، علماً متواتراً أنه هو الذي أتى بهذا القرآن ، وتواترت بذلك الأخبار أعظم من تواترها بخبر كل أحد من الأنبياء والملوك والفلاسفة وغيرهم .

تحدي أهل مكة

والقرآن نفسه ، فيه تحدي الأمم بالمعارضة والمتحدي هو أن يحدوهم (أي يدعوهم ويبعثهم) إلى أن يعارضوه .

فيقال فيه : حدائي على هذا الأمر (أي بعثني عليه) ومنه سمي حادي العيس ، لأنه بحداه يبعثها على السير .

---

(١) الحديث رواه الامام أحمد بن حنبل في المسند : حدثنا حجاج حدثنا ليث ، حدثني سعيد بن ابي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ وذكره وأخرجاه من حديث الليث .

وقد يريد بعض الناس بالتحدي دعوى النبوة ولكن أصله الأول ، قال تعالى في سورة الطور ﴿ **أَمْ يَقُولونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ فَلْيأتُوا بِحَديثٍ مِثْله إنْ كَانُوا صَادِقِين** ﴾[1] فهنا قال : ﴿ **فَلْيَأتُوا بِحَدِيثٍ مِثله إن كَانُوا صَادِقِين** ﴾ في أن تقوله، فإنه إذا كان محمد قادراً على أن يتقوَّله كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به من نظم ونثر ، كان هذا ممكناً للناس ، الذين هم من جنسه فأمكن الناس أن يأتوا بمثله .

ثم إنه تحداهم بعشر سور مثله فقال تعالى : ﴿ **أَمْ يَقُولون افْتَرَاهُ قُلْ فأْتُوا بِعشْر سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وادْعوا من اسْتَطَعتُمْ مِنْ دُونِ الله إنْ كُنْتُم صادِقِين** ﴾[2] ثم تحداهم بسورة واحدة منه فقال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ هَذَا القرآنُ أنْ يُفْترى مِنْ دُونِ الله ولَكِنْ تصدِيق الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الكِتَابِ لَا رَيْب فِيه مِنْ رَبِّ العَالَمِين . أَمْ يَقُولون افْتراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورةٍ مِثْلِهِ وَادعُوا مِن اسْتَطَعْتُمْ منْ دُونِ الله إنْ كُنْتُمْ صادِقِين** ﴾[3] ثم تحداهم بسورة واحدة هم ومن استطاعوا قال : ﴿ **فَإن لَمْ يَسْتَجِيبوا لَكُمْ فاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلمِ الله وأنْ لا إلَهَ إلَّا هُوَ** ﴾[4] وهذا أصل دعوته وهو الشهادة بأن محمداً رسول الله وقال تعالى : ﴿ **فَإنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْم الله** ﴾[5] كما قال : ﴿ **لَكِن الله يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالملائِكَةُ يَشْهَدُونَ وكَفَى بالله شَهِيداً** ﴾[6] أي هو يعلم أنه منزل لا يعلم أنه مفترى كما قال : ﴿ **وَمَا كَانَ هَذَا القُرآنُ أنْ يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ الله** ﴾[7] أي ما كان لأن يُفترى ، يقول : ما كان ليفعل هذا ،

---

(١) سورة الطور آية رقم ٣٣ ـ ٣٤ .
(٢) سورة هود آية رقم ١٣ .
(٣) سورة يونس آية رقم ٣٧ ـ ٣٨ .
(٤) سورة هود آية رقم ١٤ .
(٥) سورة هود آية رقم ١٤ .
(٦) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .
(٧) سورة يونس آية رقم ٣٧ .

فلم ينف مجرد فعله ، بل نفى احتمال فعله ، وأخبر بأن هذا لا يقع بل يمتنع وقوعه ، فيكون المعنى ما يمكن ، ولا يحتمل ، ولا يجوز أن يفترى هذا القرآن من دون الله ، فإن الذي يفتريه من دون الله مخلوق ، والمخلوق لا يقدر على ذلك ، وهذا التحدي كان بمكة ، فإن هذه السور مكية ، سورة يونس ، وهود ، والطور .

تحدي أهل المدينة

ثم أعاد التحدي في المدينة بعد الهجرة ، فقال في « البقرة » وهي سورة مدنية ﴿ **وإنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فأتُوا بِسُورةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعوا شُهَدَاءكُمْ مِنْ دُونِ الله إن كُنْتُمْ صادِقِين** ﴾[1] ثم قال : ﴿ **فَإِنْ لَمْ تَفْعَلوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ التي وَقُودُها النَّاسُ وَالحِجَارةُ أُعِدَّتْ للكافِرين** ﴾[2] فذكر أمرين :

أحدهما : قوله : ﴿ **فإن لم تَفْعَلُوا ولن تَفعلوا فاتَّقُوا النَّار** ﴾ يقول : إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق ، فخافوا الله أن تكذبوه ، فيحيق بكم العذاب الذي وعد به المكذبين ، هذا دعاء إلى سبيل ربه بالموعظة الحسنة بعد أن دعاهم بالحكمة ، وهو جدالهم بالتي هي أحسن .

والثاني : قوله ﴿ **ولن تفعلوا** ﴾ و ﴿ **لن** ﴾ لنفي المستقبل ، فثبت بالخبر أنهم فيما يستقبل من الزمان لا يأتون بسورة من مثله ، كما أخبر قبل ذلك وامره أن يقول في سورة « سبحان » وهي سورة مكية افتتحها بذكر الإسراء وهو كان

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٤ ﴿ **وقودها الناس والحجارة** ﴾ **قال عبد الملك بن ميسرة الزراد عن عبد الرحمن بن سابط عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود : هي حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق السموات والأرض في السماء الدنيا يعدها للكافرين . رماه ابن جرير وهذا لفظه ،** وابن أبي حاتم ، والحاكم في مستدركه وقال : على شرط الشيخين .

بمكة بنص القرآن والخبر المتواتر ، وذكر فيها من مخاطبة للكفار بمكة ما يبين ذلك بقوله : ﴿ قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾[1] فعم بأمره له أن يخبر بالخبر جميع الخَلق معجزاً لهم ، قاطعاً بأنهم إذا اجتمعوا كلهم ، لا يأتون بمثل هذا القرآن ، ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك ، وهذا التحدي والدعاء ، هو لجميع الخلق ، وهذا قد سمعه كل من سمع القرآن ، وعرفه الخاص والعام ، وعلم مع ذلك أنهم لم يعارضوه ولا أتوا بسورة مثله ، ومن حين بعث وإلى اليوم الأمر على ذلك ، مع ما علم من أن الخلق كلهم كانوا كفاراً قبل أن يبعث ولما بعث إنما تبعه قليل .

وكان الكفار من أحرص الناس على ابطال قومه ، مجتهدين بكل طريق يمكن . تارة يذهبون إلى أهل الكتاب فيسألونهم عن أمور من الغيب حتى يسألوه عنها ، كما سألوه عن قصة يوسف ، وأهل الكهف ، وذي القرنين كما تقدم .

وتارة يجتمعون في مجمع بعد مجمع على ما يقولونه فيه ، وصاروا يضربون له الأمثال ، فيشبهونه بمن ليس بمثله لمجرد شبه ما ، مع ظهور الفرق .

فتارة يقولون : مجنون[2] . وتارة يقولون : ساحر[3]، وتارة يقولون : كاهن[4] ، وتارة يقولون : شاعر[5] . إلى أمثال ذلك من الأقوال ، التي

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ٨٨ .

(٢) قال تعالى حاكياً قولهم : ﴿ **وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون** ﴾ [سورة الحجر آية ٦] .

﴿ **ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون** ﴾ [سورة الدخان آية ١٤] .

(٣) قال تعالى : ﴿ **فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون** ﴾ [سورة الذاريات آية ٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ **كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون** ﴾ [سورة الذاريات آية ٥٢] .

(٤) قال تعالى رداً على قولهم : ﴿ **فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون** ﴾ [سورة الطور آية ٢٩] .

(٥) قال تعالى حاكياً قولهم : ﴿ **بل قالوا أضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر** ﴾ [سورة الأنبياء آية ٥] . =

يعلمونها هم وكل عاقل سمعها أنها افتراء عليه .

فإذا كان قد تحداهم بالمعارضة ، مرة بعد مرة ، وهي تبطل دعوته ، فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها لفعلوها ، فإنه ، مع وجود هذا الداعي التام المؤكد ـ إذا كانت القدرة حاصلة ، وجب وجود المقدور ، ثم هكذا القول في سائر أرض الأرض .

فهذا القدر ، يوجب علما بيننا لكل أحد يعجز عن جميع أهل الأرض ، عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، بحيلة وبغير حيلة ، وهذا أبلغ من الآيات التي يكرر جنسها كاحياء الموتى ، فإن هذا لم يأت أحد بنظيره .

وجه إعجاز القرآن

وكون القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط ، أو نظمه وأسلوبه فقط ، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط ، ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط ، ولا من جهة سلب قدرتهم عن معارضته فقط بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة ، من جهة اللفظ ، ومن جهة النظم ، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى ، ومن جهة معانيه التي أمر بها ، ومعانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته ، وغير ذلك .

ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي ، وعن الغيب المستقبل .

ومن جهة ما أخبر به عن المعاد ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية ، التي هي الأمثال المضروبة كما قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وكَانَ الإنسانُ أَكْثَرَ شَيءٍ جَدَلاً** ﴾[1] .

= وقال تعالى : ﴿ ويقولون ائنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ [سورة الصافات آية ٣٦] .

(١) سورة الكهف آية رقم ٥٤ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفنَا للنَّاسِ فِي هَذَا القُرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إلَّا كُفُوراً ﴾[1] وقال : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرونَ ، قُرْآناً عَرَبياً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُون ﴾[2] .

وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن ، هو حجة على إعجازه ولا يناقض ذلك ، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له .

ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام : إنه معجز بصرف الدواعي مع قيام الموجب لها ، أو بسلب القدرة الجازمة ، وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضى التام ، أو سلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاماً ، مثل قوله تعالى لزكريا : ﴿ آيَتُكَ ألاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ ليالٍ سَوِياً ﴾[3] . فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل ، وهو أنه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله ، فامتناعهم - جميعهم - عن هذه المعارضة مع قيام الدواعي العظيمة إلى المعارضة - من أبلغ الآيات الخارقة للعادات ، بمنزلة من يقول : إني آخذ أموال جميع أهل هذا البلد العظيم وأضربهم جميعهم ، وأجوعهم ، وهم قادرون على أن يشكو إلى الله أو إلى ولي الأمر وليس فيهم - مع ذلك - من يشتكي ، فهذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة .

ولو قدر أن واحداً صنف كتاباً ، يقدر أمثاله على تصنيف مثله ، أو قال شعراً ، يقدر أن يقولوا مثله وتحداهم كلهم ، فقال : عارضوني وإن لم تعارضوني فأنتم كفار ، مأواكم النار ، ودماؤكم لي حلال ، امتنع في العادة أن لا يعارضه أحد .

فإذا لم يعارضوه ، كان هذا من العجائب الخارقة للعادة .

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ٨٩ .
(٢) سورة الزمر آية رقم ٢٧ - ٢٨ .
(٣) سورة مريم آية رقم ١٠ .

والذي جاء بالقرآن ، قال للخلق كلهم : أنا رسول الله إليكم جميعاً ، ومن آمن بي دخل الجنة ، ومن لم يؤمن بي دخل النار ، وقد أبيح لي قتل رجالهم وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم ووجب عليهم - كلهم - طاعتي ومن لم يطعني ، كان من أشقى الخلق ، ومن آياتي هذا القرآن ، فإنه لا يقدر أحد على أن يأتي بمثله وأنا أخبركم أن أحداً لا يأتي بمثله .

فيقال : لا يخلو إما أن يكون الناس قادرين على المعارضة أو عاجزين فإن كانوا قادرين ، ولم يعارضوه ، بل صرف الله دواعي قلوبهم ومنعها أن تريد معارضته مع هذا التحدي العظيم أو سلبهم القدرة التي كانت فيهم قبل تحديه ، فإن سلب القدرة المعتادة ان يقول رجل : معجزتي أنكم كلكم لا يقدر أحد منكم على الكلام ولا على الأكل والشرب فإن المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد . فهذا من أبلغ الخوارق .

وإن كانوا عاجزين ، ثبت أنه خارق للعادة ، فثبت كونه خارقاً للعادة على تقدير النقيضين ، النفي والاثبات ، فثبت أنه من العجائب الناقضة للعادة في نفس الأمر .

فهذا غاية التنزيل ، وإلا فالصواب المقطوع به ، أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته ، لا يقدرون على ذلك ، ولا يقدر محمد نفسه من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن ، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلام لكل من له أدنى تدبر ، كما قد أخبر في قوله : ﴿ **قُلْ لَئِنْ اجتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ علىٰ أنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لا يَأْتونَ بمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعضٍ ظهيراً** ﴾[1] .

وأيضاً فالناس يجدون دواعيهم إلى المعارضة حاصلة ، ولكنهم يحسون من أنفسهم العجز عن المعارضة ، ولو كانوا قادرين لعارضوه . وقد انتدب غير واحد لمعارضته ، لكن جاء بكلام فضح به نفسه ، وظهر به تحقيق ما أخبر به

---

(١) سورة الإسراء اية رقم ٨٨ .

القرآن من عجز الخلق عن الإتيان بمثله مثل قرآن مسيلمة الكذاب[1] كقوله : « يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي كم تنقين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين ، رأسك في الماء وذنبك في الطين » .

وكذلك أيضاً يعرفون أنه لم يختلف حال قدرتهم قبل سماعه وبعد سماعه فلا يجدون أنفسهم عاجزين عما كانوا قادرين عليه ، كما وجد زكريا عجزه عن الكلام بعد قدرته عليه .

وأيضاً فلا نزاع بين العقلاء المؤمنين بمحمد والمكذبين له ، أنه كان قصده أن يصدقه الناس لا يكذبوه ، وكان ـ مع ذلك ـ من أعقل الناس وأخبرهم وأعرفهم بما جاء به ، ينال مقصوده ، سواء قيل : إنه صادق أو كاذب ، فإن من دعا الناس إلى مثل هذا الأمر العظيم ، ولم يزل حتى استجابوا له طوعاً وكرهاً ، وظهرت دعوته وانتشرت ملته هذا الانتشار هو من عظماء الرجال على أي حال كان ، فإقدامه ـ مع هذا القصد ـ في أول الأمر وهو بمكة وأتباعه قليل على أن يقول خبراً ، يقطع به أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله لا في ذلك العصر ، ولا في سائر الأعصار المتأخرة لا يكون إلا مع جزمه بذلك وتيقنه له ، وإلا ، فمع الشك والظن ، لا يقول ذلك من يخاف أن يظهر كذبه فيفتضح ، فيرجع الناس عن تصديقه .

---

(١) هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي متنبىء من المعمرين وفي الأمثال « أكذب من مسيلمة » ولد ونشأ باليمامة بوادي حنيفة في نجد وتلقب في الجاهلية « بالرحمن » وعرف برحمان اليمامة ، ولما ظهر الإسلام وفتحت مكة جاء وفد من بني حنيفة قيل كان مسيلمة معهم إلا أنه تخلف مع الرحال خارج مكة فأسلم الوفد ، ولما رجعوا إلى ديارهم كتب مسيلمة الى النبي ﷺ من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . . . الخ فاجابه الرسول ﷺ « بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب : السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » . فلما توفي الرسول ﷺ وارتدت العرب أرسل اليه ابو بكر جيشاً بقيادة خالد فقتل عام ١٢ هـ .
راجع ابن هشام ٣ : ٧٤ والروض الأنف ٢ : ٣٤٠ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٣٧ ـ ١٤٠ .

وإذا كان جازماً بذلك ، متيقناً له ، لم يكن ذلك إلا عن إعلام الله له بذلك ، وليس في العلوم المعتادة أن يعلم الإنسان أن جميع الخلق لا يقدرون أن يأتوا بمثل كلامه ، إلا إذا علم العالم أنه خارج عن قدرة البشر .

والعلم بهذا يستلزم كونه معجزاً ، فإنا نعلم ذلك ، وإن لم يكن علمنا بذلك خارقاً للعادة ، ولكن يلزم من العلم ثبوت المعلوم ، وإلا كان العلم جهلاً - فثبت أنه - على كل تقدير - يستلزم كونه خارقاً للعادة ولو قال مُفتر : بل أنا أقول الذي أخبر بهذه الغيوب وأتى بهذه العجائب كان جاهلاً أخرق ، ولا يدري ما يقول .

وقيل له فهذا أبلغ في الإعجاز ، وخرق العادة أن يكون مجنوناً ، قد أتى بهذه الغيوب والعجائب التي لا يقدر عليها أحد من العقلاء ولا المجانين .

الدليل التفصيلي

وأما التفصيل ، فيقال : نفس نظم القرآن وأسلوبه ، عجيب بديع ، ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة ، ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب ، فإنه ليس من جنس الشعر ، ولا الرجز ، ولا الرسائل ، ولا الخطابة ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس ، عربهم وعجمهم ، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هنا ، عجيب خارق للعادة ليس له نظير في كلام جميع الخلق ، وبسط هذا وتفصيله طويل ، يعرفه من له نظر وتدبر ونفس ما أخبر به القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته ، أمر عجيب خارق للعادة ، لم يوجد مثل ذلك في كلام بشر لا نبي ولا غير نبي وكذلك ما أخبر به عن الملائكة ، والعرش ، والكرسي ، والجن ، وخلق آدم وغير ذلك ، ونفس ما أمر به القرآن ، من الدين والشرائع كذلك ونفس ما أخبر به من الأمثال وبينه من الدلائل هو أيضاً كذلك ومن تدبر ما صنفه جميع العقلاء في العلوم الإلهية والخلقية ، والسياسية وجد بينه وبين ما جاء في الكتب الإلهية ، التوراة والإنجيل والزبور ، وصحف

الأنبياء تفاوتاً عظيماً ووجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت أعظم مما بين لفظه ونظمه ، وبين سائر ألفاظ العرب ونظمهم ، فالإعجاز في معناه ، أعظم من الإعجاز في لفظه ، وجميع عقلاء بني آدم ـ عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه ، أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه .

وما في التوراة والإنجيل ، لو قدر أنه مثل القرآن ، لا يقدح في المقصود ، فإن تلك كتب الله أيضاً ، ولا يمتنع أن يأتي نبي بنظير آية نبي ، كما أتى المسيح بإحياء الموتى ، وقد وقع إحياء الموتى على يد غيره ، فكيف وليس ما في التوراة والإنجيل مماثلاً لمعاني القرآن ، لا في الحقيقة ، ولا في الكيفية ، ولا في الكمية ؟ بل يظهر التفاوت لكل من تدبر القرآن ، وتدبر الكتب .

وهذه الأمور من ظهرت له من أهل العلم والمعرفة وظهر له إعجازه من هذا الوجه .

ومن لم يظهر له ذلك ، اكتفى بالأمر الظاهر الذي يظهرله ولأمثاله كعجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله مع تحدي النبي وإخباره بعجزهم فإن هذا أمر ظاهر لكل أحد .

ودلائل النبوة من جنس دلائل الربوبية ، فيها الظاهر البين لكل أحد كالحوادث المشهودة ، مثل خلق الحيوان والنبات والسحاب وإنزال المطر وغير ذلك . وفيها يختص به من عرفه ، مثل دقائق التشريح ، ومقادير الكواكب وحركاتها وغير ذلك ، فإن الخلق كلهم محتاجون إلى الإقرار بالخالق والإقرار برسله ، وما اشتدت الحاجة إليه في الدين والدنيا ، فإن الله يجود به على عباده جوداً عاماً ميسراً . فلما كانت حاجتهم إلى التنفس أكثر من حاجتهم إلى الماء وحاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى الأكل ، كان سبحانه قد جاد بالهواء جوداً عاماً في كل زمان ومكان ، لضرورة الحيوان إليه ثم الماء دونه ولكنه يوجد أكثر مما يوجد القوت وأيسر لأن الحاجة إليه أشد فكذلك دلائل الربوبية حاجة الخلق إليها في دينهم أشد الحاجات ثم دلائل النبوة .

فلهذا يسرها الله وسهلها أكثر مما يحتاج اليه العامة مثل تماثل الأجسام واختلافها ، وبقاء الأعراض أو فنائها ، وثبوت الجوهر الفرد أو انتفاؤه ، ومثل مسائل المستحاضة وفوات الحج وفساده ونحو ذلك مما يتكلم فيه بعض العلماء .

فصل

وسيرة الرسول ﷺ ، من آياته وأخلاقه وأقواله وأفعاله ، وشريعته من آياته ، وأمته من آياته ، وعلم أمته ودينهم من آياته وكرامات صالح أمته من آياته ، وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد إلى أن بعث ، ومن حين بعث إلى أن مات ، وتدبر نسبه وبلده ، وأصله وفصله ، فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسباً : من صميم سلالة ابراهيم الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب فلم يأت نبي من بعد ابراهيم إلا من ذريته وجعل له ابنين : اسماعيل وإسحاق وذكر في التوراة هذا وهذا ، وبشر في التوراة بما يكون من ولد اسماعيل ، ولم يكن في ولد اسماعيل من ظهر فيما بشرت به النبوات غيره ، ودعا ابراهيم ، ثم من بني هاشم صفوة قريش ، ومن مكة أم القرى ، وبلد البيت الذي بناه ابراهيم ، ودعا الناس الى حجه ، ولم يزل محجوجاً من عهد ابراهيم ـ مذكوراً في كتب الأنبياء بأحسن وصف .

وكان من أكمل الناس تربية ونشأة ، لم يزل معروفاً بالصدق والبر والعدل ومكارم الأخلاق ، وترك الفواحش والظلم ، وكل وصف مذموم ، مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة ، وممن آمن به وكفر بعد النبوة ، لا يعرف له شيء يعاب به ، لا في أقواله ، ولا في أفعاله ، ولا في أخلاقه ، ولا جرت عليه كذبة قط ، ولا ظلم ، ولا فاحشة ، وكان خلقه ، وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله ، وكان أُمياً من قوم أميين ، لا يعرف ، لا هو ، ولا هم ، ما يعرفه أهل الكتاب ، التوراة والإنجيل ، ولم يقرأ شيئاً عن علوم الناس ، ولا جالس أهلها ، ولم يدّع نبوة إلى أن أكمل الله له

أربعين سنة ، فأتى بأمر وهو أعجب الأمور وأعظمها ، وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره ، وأخبرنا بأمر ، لم يكن في بلده وقومه ، من يعرف مثله ، ولم يعرف قبله ولا بعده لا في مصر من الأمصار ، ولا في عصر من الأعصار ، من أتى بمثل ما أتى به ، ولا من ظهر كظهوره ولا مَن أتى من العجائب والآيات بمثل ما أتى به ولا من دعا إلى شريعة أكمل من شريعته ، ولا من ظهر دينه على الأديان كلها بالعلم والحجة وباليد والقوة كظهوره .

ثم إنه اتبعه أتباع الأنبياء ، وهم ضعفاء الناس ، وكذبه أهل الرياسة وعادوه وسعوا في هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم .

والذين اتبعوه لم يتبعوه لرغبة ولا لرهبة ، فإنه لم يكن عنده مال يعطيهم ولا جهات يوليهم إياها ولا كان له سيف ، بل كان السيف والمال والجاه مع أعدائه .

وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى وهم صابرون محتسبون ، لا يرتدون عن دينهم لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة .

وكانت مكة يحجها العرب من عهد ابراهيم ، فتجتمع في الموسم قبائل العرب فيخرج اليهم يبلغهم الرسالة ، ويدعوهم إلى الله صابراً على ما يلقاه من تكذيب للكذب ، وجفاء الجافي وإعراض المعرض إلى أن اجتمع بأهل يثرب ، وكانوا جيران اليهود قد سمعوا أخباره منهم ، وعرفوه ، فلما دعاهم علموا أنه النبي المنتظر ، الذي تخبرهم به اليهود ، وكانوا قد سمعوا من أخباره ما عرفوا به مكانته ، فإن أمره كان قد انتشر وظهر في بضع عشرة سنة ، فآمنوا به وتابعوه على هجرته وهجرة أصحابه إلى بلدهم ، وعلى الجهاد معه ، فهاجر هو ومن اتبعه الى المدينة ، وبها المهاجرون والأنصار ، ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية ولا برهبة إلا قليلاً من الأنصار أسلموا في الظاهر ، ثم حسن إسلام بعضهم ، ثم أذن له في الجهاد ، ثم أمر به ، ولم يزل قائماً بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها

من الصدق والعدل ، والوفاء لا يحفظ له كذبة واحدة ، ولا ظلم لأحد، ولا غدر بأحد ، بل كان أصدق الناس وأعدلهم وأوفاهم بالعهد ، مع اختلاف الأحوال عليه ، من حرب وسلم وأمن وخوف ، وغنى وفقر ، وقلة وكثرة وظهوره على العدو تارة وظهور العدو عليه ، وهو ـ على ذلك كله ـ ملازم لأكمل الطرق وأتمها ، حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان ، ومن أخبار الكهان ، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق ، وسفك الدماء المحرمة وقطيعة الأرحام ، لا يعرفون آخرة ولا معاداً ، فصاروا أعلم أهل الأرض ، وأدينهم ، وأعدلهم ، وأفضلهم .

حتى إن النصارى لما رأوهم ـ حين قدموا الشام ـ قالوا : ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء .

وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض ، وآثار غيرهم ، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين وهو ﷺ ـ مع ظهور أمره وطاعة الخلق له وتقديمهم له على الأنفس والأموال ـ مات ﷺ ولم يخلف درهماً ولا ديناراً ولا شاة ولا بعيراً له إلا بغلته وسلاحه ، ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير ، ابتاعها لأهله .

وكان بيده عقار ينفق منه على أهله ، والباقي يصرفه في مصالح المسلمين فحكم بأنه لا يورث ، ولا يأخذ ورثته شيئاً من ذلك .

وهو في كل وقت يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه ، ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويشرع الشريعة شيئاً بعد شيء حتى أكمل الله دينه الذي بُعث به ، وجاءت شريعته أكمل شريعة لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلاّ أمر به ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه ، لم يأمر بشيء فقيل : ليته لم يأمر به ، ولا نهى عن شيء فقيل : ليته لم ينه عنه ، وأحل الطيبات فلم يحرم شيئاً منها كما حرم في شرع

غيره ، وحرم الخبائث لم يحل منها شيئاً كما استحله غيره ، وجمع محاسن ما عليه الأمم ، فلا يذكر في التوراة والإنجيل ، والزبور ، نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه ، وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب .

فليس في تلك الكتب إيجاب لعدل ، وقضاء بفضل ، وندب إلى الفضائل وترغيب في الحسنات إلا وقد جاء به وبما هو أحسن منه . وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شرعها وعبادات غيره من الأمم ظهر فضلها ورجحانها ، وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع . وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة ، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم ، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدْيَن من غيرهم .

وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله ، وصبرهم على المكاره في ذات الله ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجع قلوباً .

وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم ، وسماحة أنفسهم بغيرهم ، تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم .

وهذه الفضائل به نالوها ، ومنه تعلموها ، وهو الذي أمرهم بها ، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء بتكميله ، كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة .

فكانت فضائل اتباع المسيح وعلومهم ، بعضها من التوراة ، وبعضها من الزبور ، وبعضها من النبوات ، وبعضها من المسيح ، وبعضها ممن بعده كالحواريين ومن بعد الحواريين ، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا ـ لما غيروا دين المسيح ـ في دين المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح .

وأما أمة محمد ﷺ ، فلم يكونوا قبله يقرأون كتاباً ، بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود ، والتوراة ، والإنجيل والزبور إلا من جهته فهو الذي

أمرهم بأن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويقروا بجميع الكتب المنزلة من عند الله ، ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل ، فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمؤمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرانَكَ رَبَّنَا وإِلَيْكَ المَصِيرُ * لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تؤاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا واغْفِر لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فانْصُرْنَا عَلَىٰ القَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾[2] .

وأمته لا يستحلون أن يأخذوا شيئاً من الدين من غير ما جاء به ولا يبتدعون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ولا يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله لكن ما قصَّه علينا من أخبار الأنبياء وأممهم واعتبروا به ، وما حدثهم به أهل الكتاب ، موافقاً لما عندهم ، صدقوه ، وما لم يعلموا صدقه ولا كذبه أمسكوا عنه ، وما عرفوا أية باطل ، كذبوه ، ومن أدخل في الدين ما ليس منه من أقوال متفلسفة الهند والفرس أو اليونان أو غيرهم ، كان ـ عندهم ـ من أهل الإلحاد والابتداع ، وهذا هو الدين الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون ، وهو الذي عليه أئمة المسلمين الذين لهم في الأمة لسان صدق ، وعليه جماعة

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٣٦ ـ ١٣٧ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ ـ ٢٨٦ .

المسلمين ، وهو مذهب أهل السنة والجماعة وهم الظاهرون إلى قيام الساعة الذين قال فيهم النبي ﷺ : (لا تزالُ طائفةٌ مِن أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا مَنْ خذلهم حتى تقوم الساعة)[1] وقد تنازع بعض المسلمين ، مع اتفاقهم على هذا الأصل الذي هو دين الرسل عموماً ، ودين محمد خصوصاً .

ومن خالف هذا الأصل كان ـ عندهم ـ ملحداً مذموماً ليسوا كالنصارى الذين ابتدعوا ديناً قام به أكابر علمائهم وعبادهم وقاتل عليه ملوكهم وكان به جمهورهم ، وهو دين مبتدع ، ليس هو دين المسيح ولا دين غيره من الأنبياء والله سبحانه وتعالى أرسل رسله بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، فمن اتبع الرسل حصل له سعادة الدنيا والآخرة .

وإنما دخل في البدع ، من قصر في اتباع الأنبياء علماً وعملاً .

ولما بعث الله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ، تلقى ذلك عنه أصحابه المسلمون أمته .

فكل علم نافع وعمل صالح ، عليه أمة محمد ﷺ آخذوه عن نبيهم ، مع ما يظهر لكل عاقل أن أمته أكمل الأمم في جميع الفضائل العلمية والعملية .

ومعلوم أن كل كمال في الفرع المتعلم ، فهل من الأصل المعلم . وهذا يقتضي أنه كان أكمل الناس علماً وديناً ، وهذه الأمور توجب العلم الضروري

---

(١) الحديث عند الامام البخاري كتاب التوحيد ٢٩ باب قول الله تعالى : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه ﴾ .

٧٤٦٠ ـ حدثنا الحميدي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا ابن جابر حدثني عمير بن هانىء أنه سمع معاوية قال : سمعت النبي ﷺ يقول : وذكره . ورواه الامام مسلم في ايمان ٢٤٧ وفي الامارة ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، وأبو داود في الفتن ١ ، والجهاد ٤ والترمذي في الفتن ٥١ ، وابن ماجة في المقدمة أو الدارمي في الجهاد ٣٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ :٩٣ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ٢٤٤ ، ٢٥٢ (حلبي) .

بأنه كان صادقاً في قوله : إني رسول الله إليكم جميعاً لم يكن كاذباً مفترياً ، فإن هذا القول لا يقوله إلا من هو من خيار الناس وأكملهم إن كان صادقاً ، أو هو من شر الناس وأخبثهم ، إن كان كاذباً . وما ذكر من كمال علمه ودينه ، يناقض الشر والخبث والجهل ، فتبين أنه متصف بغاية الكمال في العلم والدين ، وهذا يستلزم أنه كان صادقاً في قوله :

(إني رسول الله) لأن الذي لم يكن صادقاً ، إما أن يكون متعمداً للكذب أو مخطئا والأول يوجب أنه كان ظالماً غاوياً ، والثاني يقتضي أنه كان جاهلاً ضالاً ، وكمال عمله ينافي جهله ، وكمال دينه ينافي تعمد الكذب فالعلم بصفاته يستلزم العلم بأنه لم يكن متعمداً للكذب ، ولم يكن جاهلاً يكذب بلا علم ، وإذا انتفى هذا أو ذاك تعين أنه كان صادقاً عالماً بأنه صادق ، ولهذا نزهه الله عن هذين الأمرين بقوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غوى . وَمَايَنْطِقُ عَنِ الهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[1] .

وقال تعالى عن الملك الذي جاء به :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾[2] .

ثم قال عنه :

﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَىٰ الغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾[3] . أي بمتهم ، أو بخيل كالذي لا يعلِّم إلا بجعل أو لمن يكرمه ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾[4]

---

(١) سورة النجم الآيات رقم ١ ـ ٤ .
(٢) سورة التكوير آية رقم ١٩ ـ ٢١ .
(٣) سورة التكوير آية رقم ٢٢ ـ ٢٤ .
(٤) سورة التكوير آية رقم ٢٥ ـ ٢٧ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيْلُ رَبِّ العَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ * بِلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبين ﴾[1] إلى قوله : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّل الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبون ﴾[2] بين سبحانه أن الشيطان إنما ينزل على من يناسبه ليحصل به غرضه ، فإن الشيطان يقصد الشر (وهو الكذب والفجور) لا يقصد الصدق والعدل فلا يقترن إلا بمن فيه كذب وفجور ، إما عمداً وإما خطأً فإن الخطأ في الدين من الشيطان أيضاً ، كما قال ابن مسعود[3] ـ لما سئل عن مسألة ـ « أقول فيها برأي فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه » . فالرسول بريء من تنزل الشيطان عليه في العمد والخطأ ، بخلاف غير الرسول فإنه قد يخطىءُ ويكون خطأه من الشيطان ، وإن كان خطأه مغفوراً له ، فإذا لم يعرف له خبر أخبر به كان فيه مخطئاً ، ولا أمر به كان فيه فاجراً علم أن الشيطان لم ينزل عليه وإنما ينزل عليه مَلَكٌ كريم ، ولهذا قال في الآية الأخرى عن النبي :

﴿ إِنَّهُ لَقَولُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾[4] إلى آخر الآية .

في ترجمة القرآن

قال شيخ الاسلام ابن تيمية :

الترجمة والتفسير ثلاث طبقات :

---

(1) سورة الشعراء آية رقم ١٩٢ ـ ١٩٥ .

(2) سورة الشعراء آية رقم ٢٢١ ـ ٢٢٣ .

(3) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي أبو عبد الرحمن توفي عام ٣٢ .
راجع الإصابة ت ٤٩٥٥ وصفة الصفوة ١ : ١٥٤ وحلية الأولياء ١ : ١٢٤ وتاريخ الخميس ٢ : ٢٥٧

(4) سورة التكوير آية رقم ١٩ .

أحدها : ترجمة مجرد اللفظ مثل نقل اللفظ بلفظ مرادف ففي هذه الترجمة تريد أن تعرف أن الذي يعني بهذا اللفظ عند هؤلاء هو بعينه الذي يعني باللفظ عند هؤلاء فهذا علم نافع إذ كثير من الناس يفيد المعنى باللفظ فلا يجرده عن اللفظين جميعاً .

والثاني : ترجمة المعنى وبيانه ، بأن يصور المعنى للمخاطب فتصوير المعنى له وتفهيمه إياه قدر زائد على ترجمة اللفظ كما يشرح للعربي كتاباً عربياً قد سمع ألفاظه العربية لكنه لم يتصور معانيه ولا فهمها ، وتصوير المعنى يكون بذكر عينه أو نظيره إذ هو تركيب صفات من مفردات يفهمها المخاطب يكون ذلك المركب صور ذلك المعنى إما تحديداً وإما تقريباً .

الدرجة الثالثة : بيان صحة ذلك وتحقيقه بذكر الدليل والقياس الذي يحقق ذلك المعنى إما بدليل مجرد وإما بدليل يبين علة وجوده وهنا قد يحتاج الى ضرب أمثلة ومقاييس تفيده التصديق بذاك المعنى ، كما يحتاج في الدرجة الثانية إلى أمثلة تصور ذلك المعنى ، وقد يكون نفس تصوره مفيداً للعلم بصدقه ، وإذا كفى تصور معناه في التصديق به لم يحتج إلى قياس ومثل ودليل آخر . وإذا عرف القرآن هذه المعرفة فالكلام الذي يوافقه أو يخالفه من كلام أهل الكتاب والصابئين والمشركين لا بد فيه من الترجمة للفظ والمعنى أيضاً ، وحينئذٍ فالقرآن فيه تفصيل كل شيء كما قال تعالى : ﴿ **مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْترى ولكِنْ تَصْدِيقَ الذِي بين يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شيءٍ** ﴾ [1] وقال : ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شيءٍ** ﴾[2] ومعلوم أن الأمة مأمورة بتبليغ القرآن لفظه ومعناه

(١) سورة يوسف آية رقم ١١١ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٨٩ .

كما أمر بذلك الرسول ، ولا يكون تبليغ رسالة الله إلا كذلك ، وأن تبـليغـه إلى العجم قد يحتاج إلى ترجمته لهم ، فيترجم لهم بحسب الإمكان والترجمة قـد تحتاج إلى ضرب أمثال لتصويـر المعاني فيكون ذلك من تمام الترجمة .

هل يترجم القرآن في الصلاة

وقـد اختلف الفقهاء في أذكـار الصلاة : هـل تقال بغـير العـربيـة ؟ وهي ثلاث درجات أعلاها القرآن ثم الذكر الواجب غـير القرآن كـالتحريمـة بالإجمـاع وكـالتحليل والتشهـد عند من أوجبـه . ثم الذكـر الواجب من دعـاء وتسبيح أو تكبير وغير ذلك . فأما القرآن فلا يقرأه بغير العربيـة (في الصلاة) سـواء قدر عليها أو لم يقدر عند الجمهور . وهو الصواب الذي لا ريب فيه بل قد قـال غير واحد أنه يمتنع أن يترجم سورة أو ما يقوم به الإعجاز .

واختلف أبو حنيفة وأصحابه في القادر على العربية ، وأما الأذكار الـواجبة فاختلف في منع ترجمة القرآن ، هل تتـرجم للعاجـز عن العربيـة وعن تعلمها ؟ وفيه لأصحاب أحمد وجهان : أشبههما بكلام احمد أنه لا يترجم وهو قول مالـك وإسحاق[1]

والثاني يترجم وهو قول أبي يوسف ومحمد والشافعي .

وأما سائر الأذكار ، فالمنصوص من الـوجهين أنـه لا يترجمهـا . ومتى فعل

---

(١) هـو اسحـاق بن ابـراهيم بن مخلد الحـنظلي التميمي المـروزي أبـو يعقـوب بن راهـويـه . عـالم خـراسان ، وهـو أحد كبـار الحفاظ أخـذ عنه الامـام احمـد بن حنبـل ، والبخـاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي وغيرهم له تصانيف منها (المسند) توفي عام ٢٣٨ هـ

راجـع تهذيب ابن عسـاكر ٢ : ٤٠٩ ـ ٤١٤ وتهـذيب التهذيب ١ : ٢١٦ وميـزان الاعتدال ١ : ٨٥ وابن خلكان ١ : ٦٤ .

بطلت صلاته . وهو قول مالك وإسحاق وبعض أصحاب الشافعي ، والمنصوص عن الشافعي أنه يكره ذلك بغير العربية ولا يبطل .

ومن أصحابنا من قال : له ذلك إذا لم يحسن العربية .

فصل
في معنى الصراط المستقيم

الصراط في لغة العرب : هو الطريق . يقال : هو الطريق الواضح . ويقال هو الطريق المحدود بجانبين الذي لا يخرج عنه ، ومنه الصراط المنصوب على جهنم ، وهو الجسر الذي يعبر عليه المؤمنون إلى الجنة وإذا عبر عليه الكفار سقطوا في جهنم .

ويقال : فيه معنى الاستواء والاعتدال الذي يوجب سرعة العبور عليه ، وفيه ثلاث لغات هي ثلاث قراءات : الصراط ، والسراط ، والزراط . وهي لغة عربية عرباء ليست من المعرب ولا مأخوذة من لغة الروم كما زعموا .

ويقال : أصله من سرطت الشيء أسرطه سرطاً إذا ابتلعته ، واسترطته ابتلعته ، فإن المبتلع يجري بسرعة في مجرى محدود .

ومن أمثال العرب : لا تكن حلواً فتسترط ولا مراً فتعفى من قولهم (عفت الشيء) إذا أزلته من فيك لمرارته .

ويقال : فلان يسترط ما يأخذ من الدين .

وحكي عن يعقوب بن السكيت[1] الأخذ سريط ، والفضاء صرايط

---

(١) هو يعقوب بن اسحاق ، أبو يوسف بن السكيت امام في اللغة والأدب أصله من خوزستان (بين البصرة وفارس) تعلم ببغداد واتصل بالمتوكل العباسي فعهد اليه بتأديب أولاده وجعله في عداد ندمائه ، ثم قتله لسبب مجهول عام ٢٤٤ هـ من كتبه اصلاح المنطق ، والألفاظ ، والأضداد ، وسرقات الشعراء وغير ذلك كثير . راجع ابن خلكان ٢ : ٣٠٩ وابن النديم ٧٢ - ٧٣ .

والسرطاط الفالوذج لأنه يسترط استراطاً ، وسيف سراطي أي قاطع فإنه ماضٍ سريع المذهب في مضربه .

فالصراط هو الطريق المحدود المعتدل الذي يصل سالكه إلى مطلوبه بسرعة وقد ذكر الله لفظ الصراط في كتابه في غير موضع ، ولم يسم الله سبل الشيطان سراطاً بل سماها سبلاً ، وخص طريقه باسم الصراط ، كقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِراطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعوهُ وَلاَ تَتَّبِعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾(1) .

وفي المسند عن عبد الله بن مسعود قال « خط لنا رسول الله ﷺ خطاً ، وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذا سبيل الله ، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، من أجابه قذفه في النار ، ثم قرأ ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِراطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾(2) فسمى سبحانه طريقه صراطاً وسمى تلك سُبلاً ولم يسمها صراطاً كما سماها سبيلاً وطريقه يسميه سبيلاً كما يسميه صراطاً . وقال تعالى عن موسى وهرون : ﴿ وآتَيناهُمَا الكِتَابَ المسْتَبِينَ وَهَدَيناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾(3) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبيناً لِيَغْفرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّر وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِراطاً مُسْتَقيماً وَيَنْصُرَكَ الله نَصْراً عَزِيزاً ﴾(4) .

وهذه الهداية الخاصة التي أعطاه إياها بعد فتح الحديبية أخص مما تقدم ،

---

(1) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ .
(2) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ .
(3) سورة الصافات آية رقم ١١٧ ـ ١١٨ .
(4) سورة الفتح آية رقم ١ ـ ٣ .

فإن السالك إلى الله لا يزال يتقرب إليه بشيء بعد شيء ويزيده الله هدىً بعد هدى ، وأقوم الطريق وأكملها الطريق التي بعث الله بها نبيه محمداً ﷺ .

كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[1] .

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ٩ .

فصل
في
أقسام القرآن

وهو سبحانه يقسم بأمور على أمور ، وإنما يقسم بنفسه المقدسة ، الموصوفة بصفاته ، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته ، وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته .

فالقسم إما على جملة خبرية ، وهو الغالب ، كقوله تعالى ﴿ **فَوَرَبِّ السَّماءِ والأَرْضِ إنَّهُ لَحقٌّ** ﴾ (١)

وإما على جملة طلبية كقوله تعالى ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُوْنَ** ﴾ (٢) مع أن هذا القسم قد يراد به تحقيق المقسم عليه ، فيكون من باب الخبر وقد يراد به محض القسم ، والمقسم عليه ، يراد بالقسم توكيده وتحقيقه ، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية ، إذا أقسم على ثبوتها .

فأما الأمور المشهودة الظاهرة كالشمس والقمر ، والليل والنهار والسماء

---

(١) سورة الذاريات آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٩٢-٩٣ روى الترمذي الحكيم قال : حدثنا الجارود بن معاذ ، قال : حدثنا الفضل بن موسى عن شريك ، عن ليث عن بشير بن نهيك عن أنس بن مالك عن رسول الله - ﷺ - في قوله : « فوربك لنسألهم أجمعين . عما كانوا يسألون » قال : عن قول « لا إله إلا الله » قال أبو عبد الله : معناه عن صدق لا إله إلا الله ووفائها .

والأرض، فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها ، وما أقسم عليه الرب عز وجل فهو من آياته ، فيجوز أن يكون مقسما به ، ولا ينعكس .

وهو سبحانه يذكر جواب القسم تارة وهو الغالب ، وتارة يحذفه كما يحذف جواب لو كثيراً كقوله تعالى ﴿ لَوْ تَعْلَمُوْنَ عِلْمَ الْيَقِيْنِ ﴾ (١)

وقوله ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ ﴾ (٢)

﴿ وَلَوْ ترى إِذْ يَتوفَّى الَّذِيْنَ كَفرُوْا المَلائِكَةُ ﴾ (٣)

﴿ وَلَوْ ترى إِذْ فَزِعُوْا فَلا فَوْتَ ﴾ (٤)

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوْا عَلَى النَّارِ ﴾ (٥)

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوْا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ (٦)

ومثل هذا حذفه من أحسن الكلام ، لأن المراد أنك لو رأيته لرأيت هولاً عظيما ، فليس في ذكر الجواب زيادة على ما دل المحرم ، وهو أيضا تنبيه .

فإذا أقسم به وفيه الحلال ، فإذا كان فيه الحرام كان أولى بالتعظيم ، وكذلك إذا أريد الحلول فإنه هو السلبي فالمعنى واحد .

---

(١) سورة التكاثر آية رقم ٥ .

(٢) سورة الرعد آية رقم ٣١ .

(٣) سورة الأنفال آية رقم ٥٠ وعجز الآية ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ .

(٤) سورة سبأ آية رقم ٥١ .

(٥) سورة الأنعام آية رقم ٢٧ .

(٦) سورة الأنعام آية رقم ٣٠ .

« القسم بالتين والزيتون »

وقد أقسم بـ ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ [1] و ﴿ البَلَدِ الأَمِينِ ﴾ [2] والجواب مذكور في قوله تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ في كَبَدٍ ﴾ [3] وهو مكابدة أمر الدنيا والآخرة ، وهذه المكابدة تقتضي قوة صاحبها وكثرة تصرفه واحتياله .

فقال تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُوْلُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ [4] فهذا الإنسان من جنس أولئك الأمم ، ومن جنس الذي قال ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ ﴾ [5] له قوة يُكابِدُ بها الأُمُوْر، وكل أهلكه ، أفيظن مع هذا أنه لن يقدر عليه أحد فيجازيه بأعماله ؟ ويحسب أن ما أهلكه من المال لم يره أحد ، فيعلم ما أفعل .

والقدرة والعلم بهما يحصل الجزاء ، بل بهما يحصل كل شيء وإخباره تعالى بأنه قادر وأنه عالم يتضمن الوعيد والتهديد فإنه إذا كان قادرا أمكن الجزاء ، وإذا كان عالماً أمكن الجزاء ، فبالعدل يقدر ما عمل ، ومن لم يكن قادرا عالماً لم يمكنه الجزاء ، فإن العاجز عن الشخص لا يمكنه جزاؤه ،

---

(١) سورة التين آية رقم ١ .

(٢) سورة التين آية رقم ٣ .

(٣) سورة البلد آية رقم ٤ .

(٤) سورة البلد آية رقم ٥ ـ ٧ .

(٥) سورة الحاقة آية رقم ٢٨ ـ ٢٩ تبدأ الآيات بقوله تعالى : ﴿ **يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية** ﴾ وفي حديث أبي موسى ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ، ومعاذير ، وأما الثالثة فعندها تتطاير الصحف في الأيدي . فآخذ بيمينه وآخذ بشماله ، وكان عمر بن الخطاب يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا ، وتزينوا للعرض الأكبر ، وهلك عني سلطانية » . فيه قولان . أحدهما : ضلت عني حجتي ، قاله مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، والسدي . والثاني : زال عني ملكي ، قاله أبو زيد .

والذي له قدرة لكن لا يرى ما فعل إن جازاه بلا علم كان ظالماً معتدياً ، فلا بد له من العلم بما فعل .

ولهذا كان الحاكم يحتاج إلى الشهود ، والملوك يحتاجون إلى أهل الديوان ، يخبرونهم بمقادير الأموال وغيرها ليكون عملهم بعلم .

ذكر أنه خلق الإنسان في كبد أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ، « ولن » لنفي المستقبل .

يقول « أيحسب أن لن يقدر عليه في المستقبل أحد ولهذا كان ذلك الخائف من ربه ، الذي أمر أهله بإحراقه وذريانه يعلم أن الجزاء متعلق بالقدرة فقال « لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين » [1] .

وهو سبحانه يهدد بالقدرة لكون المقدور يقترن بها ، كما يهدد بالعلم لكون الجزاء يقع معه ، كما في قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أو مِنْ تَحْت أَرْجُلِكُمْ ﴾ [2] فقال النبي ﷺ لما نزلت :

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٥٤ باب ٣٤٦٦-٣٤٧٨ -عن قتادة عن عقبة بن عبد الغفار عن أبي سعيد - رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - أن رجلاً كان قبلكم رزقه الله مالاً فقال لبنيه لما حُضر : أي أب كنت لكم . . ؟ قالوا خير أب . قال : فإني لم أعمل خير قط فإذا مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في يوم عاصف ففعلوا . فجمعه الله عز وجل فقال : ما حملك . . ؟ قال : مخافتك فتلقاه برحمته » وقال معاذ : حدثنا شعبة عن قتادة قال : سمعت عقبة بن عبد الغفار ، سمعت أبا سعيد الخدري عن النبي - ﷺ .
وأخرجه أيضاً في التوحيد ٣٥ - وأخرجه الامام مسلم في كتاب التوبة ٤ باب سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه ٢٤ (٢٧٥٦ حدثنا روح ، حدثنا مالك عن أبي الزناد ، عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ . وذكره)
وأخرجه النسائي في الجنائز ١١٧ ، وابن ماجه في الزهد ٣٠ وصاحب الموطأ في الجنائز ٥١ ، واحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦٩ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٦٥ .

أعوذ بوجهك ، أعوذ بوجهك

﴿ **أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأسَ بَعْضٍ** ﴾ فقال : هاتان أهون [١] . وذلك لأنه تكلم في ذكر القدرة ونوع المقدور .

كما يقول القائل : أين تهرب مني ؟ أنا أقدر أن أمسكك .

وكذلك في العلم بالرؤية ، كقوله هنا : ﴿ **أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ** ﴾ [٢]

وقوله تعالى في الذي ينهي عبداً إذا صلى :

﴿ **أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى** ﴾ [٣]

وقوله تعالى ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوْا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُوْلُهُ والمُؤْمِنُوْنَ** ﴾ [٤]

وقوله ﴿ **أَمْ يَحْسَبُوْنَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُوْن** ﴾ [٥] وقوله تعالى ﴿ **وَكُل شَيْءٍ فَعَلُوْهُ في الزُّبُرِ وكُل صَغِيْرٍ وَكَبِيْرٍ مُسْتَطَرُ** ﴾ [٦]

وأمثال ذلك ، فذكر رؤيته الأعمال وعلمه بها وإحصائه لها يتضمن

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ٦٥ .

(٢) سورة البلد آية رقم ٧ .

(٣) سورة العلق آية رقم ١٤ .

(٤) سورة التوبة آية رقم ١٠٥ .

(٥) سورة الزخرف آية رقم ٨٠ .

(٦) سورة القمر آية رقم ٥٢ ـ ٥٣ .

يقول الامام القرطبي « وكل شيء فعلوه في الزبر » أي جميع ما فعلته الأمم قبلهم من خير أو شر كان مكتوباً عليهم ـ وهذا بيان قوله تعالى ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ ﴿ **في الزبر** ﴾ أي في اللوح المحفوظ، وقيل في كتب الحفظة وقيل في أم الكتاب . [تفسير القرطبي ١٧ : ١٤٩] .

الوعيد بالجزاء عليها ، كما يقول القائل قد علمت ما فعلت ، وقد جاءتني أخبارك كلها وأمثال ذلك ، فليس المراد الأخبار بقدرة مجردة وعلم مجرد ، لكن بقدرة وعلم يقترن بهما الجزاء إذ كان مع حصول العلم والقدرة يمكن الجزاء ، ويبقى موقوفا على مشيئة المجازى ، لا يحتاج معه إلى شيء حينئذ ، فيجب طلب النجاة بالاستغفار والتوبة إليه ، وعمل الحسنات التي تمحو السيئات

فصل

وهو سبحانه وتعالى لما أقسم بـ ﴿ **الصَّافات** ﴾ و﴿ **الذّارِيات** ﴾ و﴿ **المُرْسلات** ﴾ ذكر المقسم عليه فقال تعالى ﴿ **إنَّ إلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ** ﴾ [(١)] وقال تعالى ﴿ **إنَّما تُوْعَدُوْنَ لَصَادِقٌ وَإنَّ الدِّيْنَ لَواقِعٌ** ﴾ [(٢)] .

وقال تعالى ﴿ **إنَّما تُوْعَدُوْن لوَاقِعٌ** ﴾ [(٣)] ولم يذكره في النازعات ، فإن الصافات هي الملائكة ، وهو لم يقسم على وجودها ، كما لم يقسم على وجود نفسه إذ كانت الأمم معترفة بالصافات ، وكانت معرفته ظاهرة عندهم لا يحتاج إلى أقسام ، بخلاف التوحيد فإنه كما قال تعالى ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أكْثَرُهُمْ بالله إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُوْنَ** ﴾ [(٤)] .

وكذلك الملائكة يقربها عامة الأمم ، كما ذكر الله عن قوم نوح وعاد

---

(١) سورة الصافات آية رقم ٤ .

(٢) سورة الذاريات آية رقم ٥ ـ ٦ .

(٣) سورة المرسلات آية رقم ٧ .

وهذه الآية جواب ما تقدم من أول السورة . أي ما توعدون من أمر القيامة لواقع بكم ونازل عليكم ، ثم بين وقت وقوعه فقال : فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت . قال المبرد : نسفت الشيء وانسفته إذا أخذته كله بسرعة ، وكان ابن عباس والكلبي يقول : سُويت بالأرض .

(٤) سورة يوسف آية رقم ١٠٦ .

وثمود وفرعون ، مع شركهم وتكذيبهم بالرسل ، إنهم كانوا يعرفون الملائكة .

قال قوم نوح : ﴿ مَا هَذَا إلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيْدُ أنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَو شَاءَ الله لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً ﴾ [1] وقال : ﴿ أَنْذَرْتُكُم صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُود ، إذ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِـمْ ألَّا تَعْبُـدوا إلَّا الله قَالُـوا لَوْ شَـاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً ﴾ [2] .

وقـال فرعـون : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْـرٌ مِنْ هَذَا الَّـذي هُوَ مهِيْنٌ وَلاَ يَكـادُ يُبِيْنُ . فلولا أُلقِي عليه أسورة من ذَهَب أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِيْنَ ﴾ [3] .

وكذلك مشركو العرب ، قال تعالى ﴿ وَقَالُوْا لَوْلا أُنْزِلَ عليهِ مَلَكٌ وَلَو أَنْزَلْنَا مَلَكَاً لقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُوْنَ ﴾ [4] وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُوْلِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي في الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِل إِلَيْهِ مَلَك فيكُوْنَ مَعه نَذِيْراً ﴾ [5] وقال تعالى عن الأمم مطلقا ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إذ جَاءَهُمُ الهُدَى إلَّا أَنْ قَالُوْا أَبَعَثَ الله بشراً رَسُوْلاً . قُلْ لَوْ كَانَ في الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ

---

(1) سورة المؤمنون آية رقم ٢٤ .

(2) سورة فصلت الآيات ١٣ ـ ١٤ .

(3) سورة الزخرف آية رقم ٥٢ ـ ٥٣ إنما قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزي أهل الشرف . وقرأ حفص « أسورة » جمع سوار ، كخمار وأخمرة وقرأ أبي « أساور » جمع إسوار ، وابن مسعود « أساوير » الباقون « أساورة » جمع الأسورة فهو جمع الجمع ، ويجوز أن يكون « أساورة » جمع إسوار ، وألحقت الهاء في الجمع عوضاً عن الياء فهو مثل زناديق وزنادقة ، وبطاريق وبطارقة ، وشبهه .

(4) سورة الأنعام آية رقم ٨ .

(5) سورة الفرقان آية رقم ٧ .

يمشُوْنَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزَّلنَا عَلَيْهم من السَّماءِ مَلكاً رسُولاً ﴾ [1] فكانت هذه الأمم المكذبة للرسل المشركة بالرب مقرة بالله وملائكته ، فكيف بمن سواهم ؟ .

فعلم أن الإقرار بالرب وملائكته معروف عند عامة الأمم فلهذا لم يقسم عليه ، وإنما أقسم على التوحيد ؛ لأن أكثرهم مشركون .

وكذلك ﴿ الذاريات ﴾ و ﴿ الحاملات ﴾ و﴿ الجاريات ﴾ هي أمور مشهودة للناس ، و ﴿ المقسمات أمرا ﴾ هم الملائكة ، فلم يكن فيما أقسم به ما أقسم عليه فذكر المقسم عليه ، فقال تعالى ﴿ إنَّما تُوْعَدُوْن لَصَادِقٌ وَإنَّ الدِّيْنَ لَواقِعٌ ﴾ [2]

و ﴿ المرسلات ﴾ سواء كانت هي الملائكة النازلة بالوحي ، والمقسم عليه الجزاء في الآخرة أو الرياح ، أو هذا وهذا ، فهي معلومة أيضا وأما « النازعات غرقا » فهي الملائكة القابضة للأرواح وهذا يتضمن الجزاء ، وهو من أعظم المقسم عليه قال تعالى ﴿ قُلْ يَتوفَّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُوْنَ ﴾ [3]

وقال تعالى ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وهُمْ لاَ يُفَرِّطُوْنَ ثُمَّ رُدُّوا إلى الله مَوْلاَهُمُ الحقِ ﴾ [4] .

هو ولا يعين على عبادته إلا هو ، وهذا يقين يعطي الاستعانة والتوكل ، وهو يعين بالقدر الذي لم يقع ، فإن الاستعانة والتوكل إنما يتعلق بالمستقبل فأما ما وقع فإنما فيه الصبر والتسليم والرضى ، كما جاء في حديث عمار بن ياسر [5] رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ « أسألك الرضا بعد

---

(1) سورة الاسراء آية رقم ٩٤ ـ ٩٥ .
(2) سورة الذاريات آية رقم ٥ ـ ٦ .
(3) سورة السجدة آية رقم ١١ .
(4) سورة الأنعام آية رقم ٦١ ـ ٦٢ .
(5) هو عمار بن ياسر بن عامر الكناني المذحجي ، العنسي القحطاني أبو اليقظان صحابي من

القضاء »[1] .

وقول « لا حول ولا قوة إلا بالله » يوجب الإعانة ولهذا سنها النبي ﷺ إذا قال المؤذن : حي على الصلاة ، فيقول المجيب لا حول ولا قوة إلا بالله [2] .

فإذا قال : حي على الفلاح ، قال المجيب : لا حول ولا قوة إلا بالله .

= الولاة الشجعان ذوي الرأي ، وهو أحد السابقين الى الإسلام والجهر به . هاجر الى المدينة ، وشهد بدراً واحداً، والخندق ، وبيعة الرضوان وكان النبي - ﷺ - يلقبه « الطيب المطيَّب » وفي الحديث : ما خير عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما ، وهو أول من بنى مسجداً في الاسلام (بناه في المدينة وسماه قباء ، وولاه عمر الكوفة ، فأقام زمناً وعزله عنها ، وشهد الجمل ، وصفين مع علي ، وقتل في الثانية وعمره ثلاث وتسعون سنة له ٦٢ حديثاً . توفي عام ٣٧ هـ . [راجع الاستيعاب بهامش الاصابة ٢ : ٤٦٩ والاصابة ت ٥٧٠٦ والمحبر ٢٨٩ و ٢٩٦ والطبري ٦ : ٢١ وحلية الأولياء ١ : ١٣٩ وذيل المذيل ١١ وصفة الصفوة ١ : ١٧٥ وخلاصة تهذيب الكمال ١٣٧] .

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد في المسند ٥ : ١٩١ - حدثني أبي ، ثنا أبو المغيرة ثنا أبو بكر ، ثنا خمرة بن حبيب بن صهيب عن أبي الدرداء عن زيد بن ثابت أن رسول الله - ﷺ - علمه دعاء وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم - وهو حديث طويل وبعد هذا [وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر الى وجهك ، وشوقاً الى لقائك ، من غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، أعوذ بك اللهم أن أظلم أو أظلم أو اعتدي أو يعتدى علي الخ . .] [وأخرجه النسائي في السورة ٦٢]

(٢) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الصلاة ٧ باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي - ﷺ - ثم يسأل الله له الوسيلة ، ١٢ (٣٨٥) عن عمارة بن غزية عن خبيب بن عبد الرحمن بن إساف ، عن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب عن أبيه عن جده عمر بن الخطاب . قال . قال رسول الله - ﷺ - وذكره وأخرجه البخاري في كتاب الآذان ٧ باب ما يقول إذا سمع المنادي ، ٦١٣ - قال يحيى وحدثني بعض اخواننا أنه قال : لما قال حي على الصلاة قال : لا حول ولا قوة إلا بالله وقال : هكذا سمعنا نبيكم - ﷺ - يقول »

وقال المؤمن لصاحبه : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء الله لَا قُوَةَ إِلَّا بالله ﴾ [١] .

ولهذا يؤمر بهذا من يخاف العين على شيء فقوله : ﴿ مـا شَـاءَ اللهُ ﴾ ، تقديره : ما شاء الله كان فلا يأمن ، بل يؤمن بالقدر ويقول : ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ﴾ .

وفي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه المتفق عليه أن النبي ﷺ قال : هي كنز من كنوز الجنة [٢] .

و« الكنز » مال مجتمع لا يحتاج إلى جمع ، وذلك أنها تتضمن التوكل والافتقار إلى الله تعالى . ومعلوم أنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله وقدرته وأن الخلق ليس منهم شيء إلا ما أحدثه الله فيهم فإذا انقطع طلب القلب للمعونة منهم وطلبها من الله فقد طلبها من خالقها الذي لا يأتي بها إلا هو . قال تعالى ﴿ مَا يَفْتَح اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فلا ممسك لها وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [٣] .

وقال تعالى ﴿ وَإِنْ يمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [٤] .

---

(١) سورة الكهف آية رقم ٣٩ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعاء ٥٠ باب الدعاء إذا علا عقبة ٦٣٨٤ بسنده عن أبي موسى وذكره بلفظ : يا عبد الله بن قيس : قل لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة » وأخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء ١٣ باب استحباب خفض الصوت بالذكر بسنده عن أبي موسى وذكره .

(٣) سورة فاطر آية رقم ٢ .

(٤) سورة يونس آية رقم ١٠٧ .

وقال تعالى ﴿ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيرٍ فَهُو عَلَى كُلِّ شَيء قَدِيْرٌ ﴾ (١)

وقال تعالى ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُوْن مِنْ دُوْنِ اللهِ إِنْ أَرادني الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ (٢) وقال صاحب يس ﴿ أأتَّخِذُ مِنْ دُوْنِهِ آلِهَةً إنْ يُرِدْن الرَّحمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنّي شَفَاعَتُهُم شَيئاً ولا ينقذون إنّي إذاً لفي ضَلالٍ مُبِيْنٍ ﴾ (٣) ولهذا يأمر الله بالتوكل عليه وحده في غير موضع وفي الأثر من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده (٤) .

قال تعالى ﴿ وَتَوكَّلْ عَلَى الْحَي الَّذِي لا يَمُوْتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِه بِذُنُوْبِ عِبَادِهِ خَبِيْراً ﴾ (٥) .

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٧ وقد جاءت هذه الآية محرفة في المطبوعة فقال (يردك) بدلاً من (يمسسك) .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٣٨ .

(٣) سورة يس آية رقم ٢٣ ـ ٢٤ .

(٤) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الزهد ٢٩ باب ما جاء في الزهادة في الدنيا بسنده عن أبي ذر عن النبي ـ ﷺ ـ بلفظ « الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في يدي الله ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك . قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وأبو إدريس الخولاني : اسمه عائذ الله بن عبد الله عمرو بن واقد منكر . وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ١ باب الزهد في الدنيا ٤١٠٠ بسند ٥ عن أبي ذر الغفاري وذكره .

قال هشام : قال أبو إدريس الخولاني . يقول : مثل هذا الحديث في الأحاديث كمثل الابريز في الذهب .

(٥) سورة الفرقان آية رقم ٥٨ .

والله تعـالى أمر بعبـادته والتـوكل عليـه ، قال تعـالى ﴿ فَاعْبُـدْهُ وَتَوكَّـلْ عَلَيْهِ ﴾ [١] .

وقال تعالى ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إله إلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإليه مَتَاب ﴾ [٢] .

وقـال مـوسى ﴿ يَـا قَـوْمِ إنْ كُنْتُم آمَنْتُم بِـالله فَعَلَيْـهِ تـوكَّلُوا إن كُنْتُم مُسْلِمِيْنَ ﴾ [٣] .

وقال شعيب : ﴿ وما تَوْفيقي إلاّ بالله عليه تَوَكّلْتُ وَإلَيْهِ أُنِيْبُ ﴾ [٤] .

وقال المؤمنون ﴿ رَبَّنَا عليك تَوَكَّلْنا وَإلْيكَ أَنَبْنا وَإلَيْكَ الْمَصِيْرُ ﴾ [٥] .

وقال تعالى ﴿ واذكُرْ اسْمَ رَبِّك وَتَبَتَّلْ إلَيْهِ تَبْتِيلاً رَبُّ المشْرِقِ وَالْمَغْـرِبِ لا إلَهَ إلا هو فَاتَّخِذْهُ وَكِيْلاً ﴾ [٦] .

وقـال تعـالى ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَـلْ لـه مَخْـرَجـاً وَيَـرْزُقْـهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتوكَّلْ عَلى الله فَهُوَ حَسْبُهُ إنَّ الله بَالِغُ أَمْـرِهِ قَدْ جعَـل الله لِكُلِ شَيءٍ قَدَرا ﴾ [٧] .

فافترق الناس هنا أربعة أصناف : صنف لا يعبدونه ولا يتـوكلون عليه ، وهم شرار الخلق . وصنف يقصدون عبـادته بفعـل ما أمـر ، وترك مـا حظر ، لكن لم يحققوا التوكل والاستعانة فيعجزون عن كثير مما يطلبونه ، ويجزعـون

---

(١) سورة هود آية رقم ١٢٣ .
(٢) سورة الرعد آية رقم ٣٠ .
(٣) سورة يونس آية رقم ٨٤ .
(٤) سورة هود آية رقم ٨٨ .
(٥) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .
(٦) سورة المزمل آية رقم ٨ ـ ٩ .
(٧) سورة الطلاق آية رقم ٢ ـ ٣ .

في كثير من المصائب .

ثم من هؤلاء من يكذب بالقدر ، ويجعل نفسه هو المبدع لأفعاله فهؤلاء في الحقيقة لا يستعينونه ولا يطلبون منه صلاح قلوبهم ولا تقويمها ولا هدايتها وهؤلاء مخذولون كما هم عند الأمة كذلك .

وقوم يؤمنون بالقدر قولاً واعتقاداً لكن لم تتصف به قلوبهم علماً وعملاً ، كما اتصفت بقصد الطهارة والصلاة فهم أيضا ضعفاء عاجزون وصنف نظر إلى جانب القدرة والمشيئة ، وأن الله تعالى هو المعطي والمانع والخافض والرافع ، فغلب عليهم التوجه إليه من هذه الجهة ، والاستعانة به والافتقار إليه لطلب ما يريدونه ، فهؤلاء يحصل لأحدهم نوع سلطان وقدرة ظاهرة أو باطنة وقهر لعدوه ، بل قتل له ونيل لأغراضه ، لكن لا عاقبة لهم ، فإن العاقبة للتقوى ، بل آخرتهم آخرة ردية .

وليس الكلام في الكفار والظلمة المعرضين عن الله فإن هؤلاء دخلوا في القسم الأول الذين لا عبادة لهم ولا استعانة .

ولكن الكلام في قوم عندهم توجه إلى الله وتأله ونوع من الخشية والذكر والزهد ، لكن يغلب عليهم التوجه بإرادة أحدهم وذوقه ووجده وما يستحليه وما يستحبه لا بالأمر الشرعي وهم أصناف : منهم : المعرض عن التزام العبادات الشرعية مع ما يحصل له من الشياطين من كشف له أو تأثير ، وهؤلاء كثير ، منهم يموت على غير الإسلام .

ومنهم من يقوم بالعبادات الشرعية الظاهرة كالصلاة والصيام والحج ، وترك المحرمات ، لكن في أعمال القلوب لا يلتزم الأمر الشرعي بل يسعى لما يحبه ويريده .

والله تعالى يقول ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهؤلاء مِنْ عطَاءِ رَبِّكَ ﴾ [1] وهو

=

(١) سورة الإسراء آية رقم ٢٠ .

سبحانه يعطي السلطان والمال للبر والفاجر .

فقد يعطى أحد هؤلاء تصرفا إما بقهر عدوه وإما بنصر وليه ، كما تعطى الملوك ، وقد يعطى نوعاً من المكاشفة إما بإخبار بعض الجن له ، وقد يعرف أنه من الجن . وقد لا يعرف ، وإما بغير ذلك .

وقد يقول الواحد من هؤلاء : أنا آخذ من الله وغيري يأخذ من محمد ﷺ ، فيرى بحاله في ذلك وتفرده أن ما أوتيه من التصرف والمكاشفة يحصل له بغير طريق محمد ﷺ وهو صادق في ذلك ، لكن هذه في الحقيقة وبال عليه ، فإن من تصرف بغير أمر الرسول ﷺ ، وأخذ ما لم يبحه له الرسول فولى وعزل ، وأعطى ومنع بغير أمر الرسول ، وقتل وضرب بغير أمره ، وأكرم وأهان بغير أمره ، وجاءه خطاب في باطنه بالأمر والنهي ، فاعتقد أن الله أمره ونهاه من غير واسطة الرسول كانت حالته كلها من الشيطان وكان الشيطان هو الذي يأمره وينهاه فيأمره فيتصرف وهو يظن أنه يتصرف بأمر الله ، ولعمري هو يتصرف بأمر الله الكوني القدري بواسطة أمر الشيطان ، كما قال تعالى في السحرة ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّيْنَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلَّا بإذْنِ الله ﴾ (١) .

= قال الزجاج : « كلًا » منصوب بـ « نمد» « هؤلاء » بدل من « كل » والمعنى : نمد هؤلاء ، وهؤلاء من عطاء ربك ، قال المفسرون : كلًا نعطي من الدنيا ، البرّ والفاجر ، والعطاء ها هنا : الرزق ، والمحظور الممنوع ، والمعنى : أن الرزق يعم المؤمن والكافر ، والآخرة للمتقين خاصة .

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٢ .

« ما هم » إشارة الى السحرة ، وقيل : اليهود ، وقيل الى الشياطين . « بضارين به » أي بالسحر « من أحد » أي أحداً ، ومن زائدة « إلا باذن الله » أي باراداته وقضائه لا بأمره ، لأنه تعالى لا يأمر بالفحشاء ويقضي على الخلق بها ، وقال الزجاج « إلا بإذن الله » إلا بعلم الله قال النحاس : وقول أبي اسحاق « إلا بإذن الله » إلا بعلم الله غلط ، لأنه إنما يقال في العلم أذن ، وقد أذنت أذناً ، ولكن لما لم يحل فيما بينهم وبينه ، وظلوا يفعلونه كان كأنه أباحه مجازاً .

كمـا أن المؤمن يتصرف بـأمر الله الكـوني القدري ، لكن بـواسطة أمـر الرسول المبلغ لـه عن الله عز وجـل . فالحـلال عنده مـا أحله الله ورسولـه ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله بخلاف ذلك فإنه لا يأخذ عن الرسول الأمـر والنهي الباطن ولا مـا يفعله ويأمـر به ، وهـذا الضرب كثيـر في المشـايـخ أربـاب القلوب والأحـوال الـذين ضعف علمهم بـالكتـاب والسنة ، ومتابعة الرسول ، وغلب عليهم ما يجده أحدهم في قلبه ، وما يؤمـر به في باطنه ، سواء وافق الرسول أو خالفه .

ثم تفاوتوا في ذلك بحسب قربهم من الرسول وبعدهم منه ، فكثير منهم بعد عنه حتى صار يرى أنه يعاون الكفـار على قتال المسلمين ، ويـرى أن الله سبحانه أمره بذلك ، ويعتقد أن أهل الصفة [1] فعلوا ذلك .

ومنهم من يرى أن الرسول لم يرسل إليه وإلى أشكـاله وإنمـا أرسل إلى العوام .

ومنهم من يعتقد أن الرسـول كان خـاضعاً لأهـل الصفة وكـانوا مستغنين عنه .

---

(١) يقال أنهم الذين نزل فيهم قول الله تعالى : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي** ﴾ سـورة الأنعام آيـة رقم ٥٢ ، وأخرج هـذا المعنى ابن ماجـه في سننه عن خبـاب في قولـه عز وجل ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فتكون من الظالمين** ﴾ قال : جاء الأقرع بن حابس التميمي ، وعيينه بن حصن الفزاري ، فـوجدا رسـول الله ـ ﷺ ـ مع صهيب ، وبلال ، وعمار ، وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حوْل النبي ـ ﷺ ـ حقروهم ، فـأتوه فخلوا بـه ، وقالـوا : إنا نـريد أن تجعـل لنا منـك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العـرب مع هـذه الأعبد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ، قال : نعم قالوا فاكتب لنا عليك كتاباً قال : فدعا بصحيفه ودعـا علياً ـ رضي الله عنـه ـ ليكتب ونحن قعود في نـاحية فنـزل جبريـل عليه السـلام فقال : ولا تـطرد الذين يـدعـون ربهم بـالغـداة والعشي يـريـدون وجهه » .

إلى أمثال هذه الأصناف التي كثرت في هذه الأمة وهؤلاء كلهم يدعون علم الحقيقة [1] ، ويقولون : الحقيقة لون ، والشريعة [2] لون آخر ، ويجمعهم شيئان :

أن لهم تصرفاً وكشفاً خارجاً عن ما للعامة .

وأنهم معرضون عن وزن ذلك بالكتاب والسنة وتحكيم الرسول ﷺ في ذلك فهم بمنزلة الملوك لا يقول أحدهم إن الله أمرني بذلك ، ولا أني ولي الله ، ولا أن لي مادة من الله خارجة عن الرسول ، ولا أن الرسل لم تبعث إلى مثلي ، وإنما الملوك يقصدون أغراضهم ولا يجعلونها دينا .

وهؤلاء يجعلون أغراضهم التي هي من أعظم الظلم والفساد ، بل والكفر ، يجعلون ذلك دينا يدين به أولياء الله عندهم ، لأن هذه الأمور إنما تحصل لهم بنوع من الزهادة والعبادة ، ولكن ليس هو الزهد والعبادة التي بعث الله بها رسوله ، بل يشبهه حال أهل الكتاب والمشركين من عباد الهند والنصارى وأمثالهم .

ولهذا تظهر مشابهتهم لعباد المشركين وأهل الكتاب حتى إن من رأى عباد الهنود ثم رأى مولهي بيت الرفاعي [3] أنكر وجود هؤلاء في ديار الإسلام

---

(١) (٢) الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير مقبول ، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إتباع عن تعريف الحق ، فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قضى وقدر ، وأخفى وأظهر سمعت الأستاذ علي الدقاق رحمه الله يقول :

قوله : « إياك نعبد » حفظ للشريعة « وإياك نستعين » إقرار بالحقيقة واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث أنها وجبت بأمره ، والحقيقة ـ أيضاً ـ شريعة من حيث إن المعارف به ، سبحانه أيضاً وجبت بأمره .

(٣) هو أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسين أبو العباس ، مؤسس الطريقة الرفاعية ، ولد في =

وقال : هؤلاء مثل عباد المشركين من الهند سواء وأرفع من هؤلاء من يشبه عباد النصارى ورهبانهم (1) في أمور كثيرة خارجة عن شريعة الإسلام .

فلما كان فيهم دين مبتدع من جنس دين المشركين وأهل الكتاب ظنوا ما يظنه أولئك من أن هذا دين صحيح ، وأنه دين يقرب إلى الله ، وأن أهله أولياء الله .

فإن جميع طوائف العلماء والعباد من جميع أهل الملل يظنون .

قال شيخ الإسلام :

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسِّر وأعن برحمتك

لحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا

= قرية حسن (من أعمال واسط بالعراق) وتفقه وتأدب في واسط ، وتصوف ، فانضم إليه خلق كثير ، وكان يسكن قرية أم عبيدة بالبطائح وتوفي بها عام ٥٧٨ هـ صنف كتباً كثيرة : وفي كتاب « عجائب واسط » لابن المهذب أن عدد خلفاء الرفاعي وخلفائهم بلغ مئة وثمانين ألفاً في حال حياته ، وجمع بعض كلامه في رسالة سميت (رحيق الكوثر) [راجع ابن خلكان ١ : ٥٥ ومرآة الزمان ٨ : ٣٧٠ والشعراني ١ : ١٢١] .

(1) الرهبانية من الرهبان ، كالرضوانية من الرضوان وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع وذلك أن ملوكهم غيروا وبدلوا وبقي نفر قليل فترهبوا وتبتلوا . قال الضحاك : إن ملوكاً بعد عيسى عليه السلام ارتكبوا المحارم ثلثمائة سنة ، فأنكرها عليهم من كان بقي على منهاج عيسى فقتلوهم . فقال قوم بقوا بعدهم : نحن إذا نهيناهم قتلونا فليس يسعنا المقام بينهم ، فاعتزلوا الناس واتخذوا الصوامع وقال قتادة :الرهبانية التي ابتدعوها رفض النساء ، واتخاذ الصوامع ، وفي خبر مرفوع « هي لحوقهم بالبراري والجبال » وفي تفسير القاسمي ١٦ : ٥٦٩٨ « لم يقوموا بما التزموه منها حق القيام من التزهد والتخلي للعبادة وعلم الكتاب ، بل اتخذوها آلة للترؤس ، والسؤدد ، وإخضاع الشعب لأهوائهم .

إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم تسليما .

أما بعد :

فقد سألني بعض الإخوان أن أكتب له مقدمة تتضمن قواعد كلية ، تعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره ومعانيه والتمييز في منقول ذلك ومعقوله بين الحق وأنواع الأباطيل ، والتنبيه على الدليل الفاصل بين الأقاويل ، فإن الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغث والسمين ، والباطل الواضح ، والحق المبين .

والعلم إما نقل مصدق عن معصوم ، وإما قول عليه دليل معلوم ، وما سوى هذا فإما مزيف مردود ، وإما موقوف لا يعلم أنه بهرج ولا مفقود .

وحاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن الكريم الذي هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يخلق عن كثرة الترديد ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ، ومن تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله [١] . قال تعالى ﴿ **فإمّا يأتينكم مِنّي هُدىً فَمنْ اتَّبعَ**

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي بسنده عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : ستكون فتن كقطع الليل المظلم . قلت يا رسول الله وما المخرج منها . . ؟ قال كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وذكره .
قال الإمام القرطبي : الحارث : رماه الشعبي بالكذب وليس بشيء ولم يبن من الحارث كذب وإنما نقم عليه إفراطه في حب علي وتفضيله له على غيره ، ومن ها هنا ـ والله أعلم ـ كذبه الشعبي ، لأن الشعبي يذهب الى تفضيل أبي بكر ، والى أنه أول من أسلم . قال أبو =

هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أعمى ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُور بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ آلر . كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِراطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ (٣)

وقال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِن أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِراطٍ مُسْتَقِيم صِراط اللهِ الَّذِي لَهُ مَا في السَّمٰواتِ وَمَا في الأَرْضِ أَلا إلى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ (٤) .

وقد كتبت هذه المقدمة المختصرة بحسب تيسير الله تعالى من إملاء الفؤاد ، والله الهادي إلى سبيل الرشاد .

= عمر بن عبد البر وأظن الشعبي عوقب لقوله في الحارث الهمداني : حدثني الحارث وكان أحد الكذابين .

(١) سورة طه آيات من ١٢٣ ـ ١٢٦ .

(٢) سورة المائدة آيات من ١٥ ـ ١٦ .

(٣) سورة ابراهيم آية رقم ١ ، ٢ .

(٤) سورة الشورى آية رقم ٥٢ ـ ٥٣ .

فصل

يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معـاني القرآن ، كمـا بين لهم ألفاظه .

فقوله تعالى ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إليهم ﴾ [(١)] يتناول هذا وهذا .

وقـد قال أبـو عبد الـرحمن السلمي [(٢)] : حدثنـا الذين كـانوا يقـرئـوننـا القـرآن : كعثمان بن عفـان ، وعبد الله بن مسعـود وغيرهمـا ، أنهم كانـوا إذا تعلمـوا من النبي ﷺ عشر آيـات لم يجاوزوهـا حتى يتعلموا مـا فيها من العلم والعمل قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ، ولهذا كـانوا يبقـون مدة في حفظ السورة .

وقال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل في أعيننا .

وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدد سنين .

قيل : ثمان سنين . ذكره مالك .

وذلك أن الله تعالى قال ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبرُوْا آياتِه ﴾ [(٣)]

وقال ﴿ أَفَلَا يَتَدبرُونَ القُرْآنَ ﴾ [(٤)]

---

(١) سورة النحل آية رقم ٤٤ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء وراجع طبقات القراء لابن الجزري ١٠ : ٤١٣ وكثيراً ما يـذكر ابن تيميـة هذا النص عن السلمي ليستـدل به على أن السلف تعلمـوا القـرآن وتعلموا معه العمل به .

(٣) سورة ص آية رقم ٢٩ .

(٤) سورة النساء آية رقم ٨٢ ـ وسورة محمد آية رقم ٢٤ .

وقال ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ (1)

وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن .

وكذلك قال تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لعلَكُم تَعْقلون ﴾ (2) وعقل الكلام متضمن لفهمه .

ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه ، فالقرآن أولى بذلك ، وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم ، كالطب والحساب ولا يستشرحوه ، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم ودنياهم ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً ، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم .

وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر .

ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة كما قال مجاهد (3) : عرضت المصحف على ابن عباس أوقفه عند كل آيةٍ منه ، وأسأله عنها .

ولهذا قال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، ولهذا

---

(1) سورة المؤمنون آية رقم ٦٨

(2) سورة يوسف آية رقم ٢ .

(3) هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج المكي مولى بني محزوم : تابعي ، مفسر من أهل مكة ، قال الذهبي : شيخ القراء والمفسرين ، أخذ التفسير عن ابن عباس ، قرأه عليه ثلاث مرات يقف عند كل آية يسأله فيم نزلت ، وكيف نزلت . .؟ وتنقل في الأسفار ، واستقر في الكوفة . ذهب إلى « بئر برهوت » بحضرموت ، وذهب الى بابل يبحث عن هاروت وماروت أما كتابه في التفسير فيتقيه المفسرون ، وسئل الأعمش عن ذلك ، فقال : كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب ـ يعني اليهود والنصارى ويقال : إنه مات وهو ساجد عام ١٠٤هـ راجع طبقات الفقهاء ٤٥ ، وغاية النهاية ٢ : ٤١ ، وميزان الاعتدال ٣ : ٩ وحلية ٣ : ٢٧٩ .

يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري [1] وغيرهما من أهل العلم ، وكذلك الإمام أحمد وغيره ممن صنف في التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره .

والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم السنة ، وإن كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، كما يتكلمون في بعض السنن بالاستنباط والاستدلال .

---

(١) هو محمد بن إسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخاري ، أبو عبد الله : حبر الإسلام ، والحافظ لحديث رسول الله ـ ﷺ ـ صاحب الجامع الصحيح المعروف بصحيح البخاري ، والتاريخ ، والضعفاء ، وخلق أفعال العباد ، والأدب المفرد ولد في بخارى عام ١٩٤ هـ ونشأ يتيماً وقام برحلة طويلة سنة ٢١٠ في طلب الحديث فزار خراسان والعراق ومصر والشام وسمع من نحو ألف شيخ ، وجمع نحو ست مئة ألف حديث اختار منها صحيحه توفي عام ٢٥٦ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٢٢ وتهذيب التهذيب ٩ : ٤٧ وتهذيب الأسماء واللغات القسم الأول من الجزء الأول ٦٧ والسبكي ٢ : ٢ والخميس ٢ : ٣٤٢ وآداب اللغة ٢ : ٢١٠ ودائرة المعارف الاسلامية ٣ : ٤١٩ ـ ٤٢٦ وطبقات الحنابلة ١ : ٢٧١ ـ ٢٧٩ ومعجم المطبوعات ٥٣٤] .

فصل
« اختلاف السلف في التفسير قليل »

الخلاف بين السلف في التفسير قليـل ، وخلافهم في الأحكـام أكثر من خلافهم في التفسير ، وغـالب ما يصح عنهم من الخلاف يـرجع إلى اختـلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، وذلك صنفان :

« أحـدهمـا : أن يعبر كـل واحـد منهم عن المـراد بعبارة غير عبـارة صاحبه ، تـدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخـر مع اتحـاد المسمى بمنـزلة الأسمـاء المتكافئـة التي بين المترادفـة والمتباينـة ، كمـا قيـل في اسم السيف الصارم والمهند وذلك مثل أسمـاء الله الحسنى ، وأسماء رسـوله ﷺ ، وأسمـاء القرآن ، فـإن أسماء الله كلهـا تدل على مسمى واحـد ، فليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخـر ، بل الأمـر كما قـال تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحمٰنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (١)

وكـل اسم مـن أسمـائه يـدل على الذات المسمـاة وعلى الصفـة التي

---

(١) سورة الإسراء آيـة رقم ١١٠ سبب نزول هـذه الآية : أن المشركين سمعوا رسـول الله - ﷺ - يدعو (يا الله يا رحمن) فقالوا : كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد وهو يدعو إلهين ، قـاله ابن عباس ، وقال مكحول تهجد رسول الله - ﷺ ليلة فقال في دعائه : يا رحمن يا رحيم « فسمعه رجل من المشركين وكان باليمامة رجل يسمى « الرحمن » فقال ذلك السامع : مـا بال محمـد يدعو رحمان اليمامة فنزلت الآية مبينة أنهما اسمان لمسمى واحد فإن دعوتموه بـالله فهو ذاك ، وإن دعوتموه بالرحمن فهو ذلك .

تضمنها الاسم ، كالعليم ، يدل على الذات والعلم ، والقدير : يدل على الذات والقدرة ، والرحيم : يدل على الذات والرحمة .

ومن أنكر دلالة أسمائه على صفاته ممن يدعي الظاهر فقوله من جنس قول غلاة الباطنية القرامطة الذين يقولون : لا يقال : هو حي ، ولا ليس بحي ، بل ينفون عنه النقيضين ، فإن أولئك القرامطة الباطنية لا ينكرون اسماً هو علم محض كالمضمرات .

وإنما ينكرون ما في أسمائه الحسنى من صفات الإثبات .

فمن وافقهم على مقصودهم كان مع دعواه الغلو في الظاهر موافقاً لغلاة الباطنية في ذلك ، وليس هذا موضع بسط ذلك . وإنما المقصود أن كل اسم من أسمائه يدل على ذاته ، وعلى ما في الاسم من صفاته .

ويدل أيضاً على الصفة التي في الاسم الآخر بطريق اللزوم . وكذلك أسماء النبي ﷺ ، مثل محمد ، وأحمد ، والماحي والحاشر ، والعاقب [1] ، وكذلك أسماء القرآن مثل : القرآن ، والفرقان ، والهدى ، والشفاء ، والبيان ، والكتاب وأمثال ذلك .

فإذا كان مقصود السائل تعيين المسمى عبرنا عنه بأي اسم كان إذا عرف مسمى هذا الاسم ، وقد يكون الاسم علماً وقد يكون صفة كمن يسأل عن

---

(١) الحديث أخرجه صاحب الموطأ ٦١ كتاب أسماء النبي - ﷺ (١) باب أسماء النبي - ﷺ - حدثني مالك عن ابن شهاب ، عن محمد بن جبير بن مطعم أن النبي - ﷺ - قال : لي خمسة أسماء ، أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب » .
قال ابن عبد البر : كذا أرسله يحيى وأكثر الرواة وأخرجه البخاري في كتاب التفسير ١ باب (يأتي من بعدي اسمه أحمد) ٤٨٩٦ بسنده عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه - رضي الله عنه وذكره . وفي المسند للامام أحمد بن حنبل ١ : ٣٤٢ ، ٤ ؛ ٢٩١ ، ٢٩٨ .

قوله ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ [1] ما ذكره ؟

فيقال له : هو القرآن مثلاً ، أو هو ما أنزله من الكتب فإن الذكر مصدر ، والمصدر تارة يضاف إلى الفاعل ، وتارة إلى المفعول .

فإذا قيل : ذكر الله بالمعنى الثاني ، كان ما يذكر به مثل قول العبد سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر وإذا قيل بالمعنى الأول كان ما يذكره هو وهو كلامه ، وهذا هو المراد في قوله ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ لأنه قال قبل ذلك ﴿ فَإما يأتينكم مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴾ [2] وهداه هو ما أنزله من الذكر ، وقال بعد ذلك ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا ﴾ [3] والمقصود أن يعرف أن الذكر هو كلامه المنزل ، أو هو ذكر العبد له فسواء قيل : ذكري كتابي ، أو كلامي أو هداي ، أو نحو ذلك كان المسمى واحداً .

وإن كان مقصود السائل معرفة ما في الاسم من الصفة المختصة به فلا بد من قدر زائد على تعيين المسمى مثل أن يسأل عن القدوس ، السلام ، المؤمن ، وقد علم أنه الله . لكن مراده ما معنى كونه قدوساً ، سلاماً مؤمناً ونحو ذلك . إذا عرف هذا فالسلف كثيراً ما يعبرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه ، وإن كان فيها من الصفة ما ليس في الاسم الآخر ، كمن يقول : أحمد هو الحاشر والماحي والعاقب والقدوس هو الغفور والرحيم ، أي أن المسمى واحد لا أن هذه الصفة هي هذه الصفة .

ومعلوم أن هذا ليس اختلاف تضاد كما يظنه بعض الناس مثال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم .

---

(١) سورة طه آية رقم ١٢٤ .

(٢) سورة طه آية رقم ١٢٣ .

(٣) سورة طه آية رقم ١٢٥ ـ ١٢٦ .

فقال بعضهم هو « القرآن الكريم » أي اتباعه ، لقول النبي ﷺ في حديث علي الذي رواه الترمذي ، ورواه أبو نعيم من طرق متعددة هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم [1] وقال بعضهم : هو « الإسلام » لقوله ﷺ في حديث النواس بن سمعان الذي رواه الترمذي وغيره « ضرب الله مثلا صراطاً مستقيماً على جنبتي الصراط سوران ، وفي السورين أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وداعٍ يدعو من فوق الصراط وداع يدعو على رأس الصراط .

قال : فالصراط المستقيم هو الاسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، والداعي على رأس الصراط كتاب الله ، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن » [2] .

فهذان القولان متفقان ؛ لأن دين الاسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لفظ « صراط » يشعر بوصف ثالث .

وكذلك قول من قال : هو السنة والجماعة وقول من قال : هو طريق

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء فليرجع إليه .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الأمثال عن رسول الله ـ ﷺ ـ ٢٨٥٩ ـ حدثنا علي بن حجر السعدي ، حدثنا بقية بن الوليد عن بجير بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن النواس ابن سمعان الكلابي قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره وفيه « داران » بدلاً من « سوران » قال الترمذي : هذا حديث غريب . قال سمعت عبد الله بن عبد الرحمن يقول : سمعت زكريا بن عدي يقول : قال أبو اسحاق الفزاري ، خذوا عني بقية ما حدثكم عن الثقات ، ولا تأخذوا عن اسماعيل بن عياش ما حدثكم عن الثقات ولا غير الثقات . وأخرجه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٨٢ ، ١٨٣ ثنا الحسن بن سوار أبو العلا . ثنا ليث يعني ابن سعد عن معاوية بن صالح أن عبد الرحمن بن جبير حدثه عن أبيه عن النواس بن سمعان الأنصاري عن رسول الله ـ ﷺ قال : وذكره .

العبودية ، وقول من قال : هو طاعة الله ورسوله ﷺ ، وأمثال ذلك ، فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة ، لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها .

« الصنف الثاني » أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع ـ لا على سبيل الحد المطابق للحدود من عمومه وخصوصه ، مثل سائل أعجمي سأل عن مسمى « لفظ الخبز » فأري رغيفاً، وقيل له : هذا .

فالإشارة إلى نوع هذا لا إلى هذا الرغيف وحده ـ مثال ذلك ما نقل في قوله :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، ومِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ [1] ﴾

فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للمحرمات ، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات ، وتارك المحرمات ، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات فالمقتصدون هم أصحاب اليمين ﴿ وَالسَّابِقُوْنَ السَّابِقُوْنَ أُوْلَئِكَ المُقَرَّبُوْنَ ﴾ [2]

---

(1) سورة فاطر آية رقم ٣٢ وتكملة الآية ﴿ **بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ قد تكلم العلماء فيها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . قال النحاس فمن أصح ما روي في ذلك ما روي عن ابن عباس « فمنهم ظالم لنفسه » قال : الكافر رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس أيضاً وعن ابن عباس أيضاً فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ، قال نجت فرقتان ويكون التقدير في العربية ، فمنهم من عبادنا ظالم لنفسه ، أي كافر ، وقال الحسن : أي فاسق ، ويكون الضمير الذي في « يدخلونها » يعود على المقتصد والسابق لا على الظالم ، وعن عكرمة وقتادة والضحاك ، والفراء أن المقتصد المؤمن العاصي ، والسابق : التقي على الإطلاق ، قالوا : وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة الواقعة ﴿ **وكنتم أزواجاً ثلاثة** ﴾

(2) سورة الواقعة آية رقم ١٠ ـ ١١ .

ثم إن كلاً منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات ، كقول القائل : السابق الذي يصلي في أول الوقت ، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه ، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار .

ويقول الآخر : السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم في آخر سورة البقرة ، فإنه ذكر المحسن بالصدقة والظالم يأكل الربا ، والعادل بالبيع ، والناس في الأموال إما محسن ، وإما عادل ، وإما ظالم فالسابق المحسن باداء المستحبات مع الواجبات والظالم آكل الربا أو مانع الزكاة ، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفرُوضة ، ولا يأكل الربا وأمثال هذه الأقاويل ، فكل قول فيه ذكر نوع داخل في الآية ذكر لتعريف المستمع بتناول الآية له وتنبيهه به على نظيره ، فإن التعريف بالمثال قد يسهل أكثر من التعريف بالحد المطلق والعقل السليم يتفطن للنوع ، كما يتفطن إذا أشير له إلى رغيف ، فقيل له : هذا هو الخبز وقد يجيء كثيراً من هذا الباب قولهم هذه الآية نزلت في كذا ، لا سيما إن كان المذكور شخصاً كأسباب النزُول المذكورة في التفسير ، كقولهم إن آية الظهار (١) نزلت في امرأة أوس بن الصامت وإن آية اللعان (٢) نزلت في عويمر العجلاني ، أو هلال بن أمية .

وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله (٥) وإن قوله ﴿ وَأَنِ احْكُمْ

---

(١) قال تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير * الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللّائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزورا وإن الله لعفو غفور ﴾ .

(٢) آيات اللعان قال تعالى : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين ويدرؤا عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾ [سورة النور الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩]

بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ﴾ [1] نزلت في بني قريظة والنضير .

وإن قوله ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ﴾ [2] نزلت في بدر .

وإن قوله ﴿ شَهادةُ بَيْنِكُمْ إذَا حَضَر أَحَدَكُمُ الموتُ ﴾ [3] نـزلت في قضية تميم الداري [4] وعدي بن بداء .

وقول أبي أيوب إن قوله ﴿ وَلَا تُلْقُـوا بِأَيْـدِيْكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [5] نـزلت فينا معشر الأنصار ـ الحديث [6] ونظائر هذا كثير مما يذكـرون أنه نـزل في قوم من المشركين بمكة ، أو في قـوم من أهل الكتـاب اليهود والنصـارى ، أو في قوم من المؤمنين فالذين قالوا ذلك لم يقصـدوا أن حكم الآية مختص بـأولئك الأعيان دون غيرهم ، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق .

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٤٩ .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ١٦ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ١٠٦ .

(٤) هو تميم بن أوس بن خارجـة الداري أبـو رقية : صحـابي نسبته الى الـدار بن هانىء من لخم أسلم سنة ٩ هـ وأقطعه النبي ـ ﷺ ـ قرية (الخليل بفلسطين) وكان يسكن المدينة ، ثم انتقل الى الشام بعد مقتل عثمان . فنـزل بيت المقدس ، وهـو أول من أسرج السـراج بالمسجـد ، كان راهب أهل عصره ، وعابد أهل فلسطين . روى له البخاري ومسلم ١٨ حديثاً وللمقريزي فيه كتاب سماه « ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداري مات في فلسطين » [راجع تهذيب ابن عساكر ٢ : ٣٤٤ ، وكشف النقاب ـ خ ـ وصفة الصفوة ١ : ٣١٠] .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٩٥ .

(٦) الحديث أخرجـه مسلم والنسائي وأبـو داود والترمـذي وابن حبان والحـاكم من طريق أسلم بن عمران قال : كنا بالقسطنطينية ، فخرج صف عظيم من الروم فحمـل رجل من المسلمين على صف الـروم حتى دخل فيهم ثم رجـع مقبلاً ، فصـاح النـاس : سبحـان الله . ألقى بيـده الى التهلكة فقال أبو أيوب : أيها الناس إنكم تؤولون هذه الآية هذا التأويل وإنما نزلت هـذه الآية فينا معشر الأنصار إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا بيننا سراً : إن أموالنا قد ضاعت فلو أنا أقمنا فيها وأصلحنا ما ضاع منها فأنزل الله هذه الآية فكانت التهلكة الاقامة التي أردناها » .

والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا ؟ .

فلم يقل أحد من علماء المسلمين إن عمومات الكتاب والسنَّة تختص بالشخص المعين ، وإنما غاية ما يقال : إنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه ، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ والآية التي لها سبب معين وإن كانت أمراً ونهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزله ، وإن كانت خبرا بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضاً .

ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ، ولهذا كان أصح قولي الفقهاء : إنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وأثارها . وقولهم نزلت هذه الآية في كذا يراد به : تارة أنه سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية . وإن لم يكن السبب كما تقول : عنى بهذه الآية كذا . وقد تنازع العلماء في قول الصاحب : نزلت هذه الآية في كذا هل يجري مجرى المسند ، كما يذكر السبب الذي أنزلت لأجله ، أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند ، فالبخاري يدخله في المسند وغيره لا يدخله في المسند ، وأكثر المساند على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره ، بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه ، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند .

وإذا عرف هذا فقول أحدهم : نزلت في كذا لا ينافي قول الآخر: نزلت في كذا إذا كان اللفظ يتناولهما كما ذكرناه في التفسير بالمثال ، وإذا ذكر أحدهم لها سبباً نزلت لأجله ، وذكر الآخر سبباً فقد يمكن صدقهما بأن تكون نزلت عقب تلك الأسباب ، أو تكون نزلت مرتين مرة لهذا السبب ، ومرة لهذا السبب .

وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما في تنوع التفسير تارة لتنوع الأسماء

والصفات ، وتارة لذكر بعض أنواع المسمى وأقسامه كالتمثيلات هما الغالب في تفسير سلف الأمة الذي يظن أنه مختلف .

ومن المتنازع الموجود عنهم ما يكون اللفظ فيه محتملاً للأمرين ، إما لكونه مشتركاً في اللفظ كلفظ ﴿ قسورة ﴾ [١] الذي يراد به الرامي ، ويراد به الأسد .

ولفظ ﴿ عَسْعَسَ ﴾ [٢] الذي يراد به إقبال الليل وإدباره وإما لكونه متواطئاً في الأصل ، لكن المراد به أحد النوعين أو أحد الشيئين كالضمائر في قوله ﴿ ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ [٣] .

وكلفظ ﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ، وَالشَّفْعِ وَالوَتْرِ ﴾ [٤] وما أشبه ذلك .

فمثل هذا قد يجوز أن يراد به كل المعاني التي قالها السلف ، وقد لا يجوز ذلك . فالأول إما لكون الآية نزلت مرتين فأريد بها هذا تارة ، وهذا تارة وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه إذ قد جوز ذلك أكثر الفقهاء : المالكية والشافعية والحنبلية ، وكثير من أهل الكلام .

وإما لكون اللفظ متواطئاً فيكون عاماً إذا لم يكن لتخصيصه موجب ، فهذا النوع إذا صح فيه القولان كان من الصنف الثاني .

ومن الأقوال الموجودة عنهم ويجعلها بعض الناس اختلافاً أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة لا مترادفة فإن الترادف في اللغة قليل ، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر ، وإما معدوم ، وقل أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي

---

(١) قال تعالى : ﴿ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ سورة المدثر آية رقم ٥ ـ ٥١ .
(٢) سورة التكوير آية رقم ١٧ .
(٣) سورة النجم آية رقم٨ ـ ٩ .
(٤) سورة الفجر آية رقم ١ ـ ٣ .

جميع معناه ، بل يكون فيه تقريب لمعناه ، وهذا من أسباب إعجاز القرآن فإذا قال القائل ﴿ يَوْمَ تَمُوْرُ السَّماءُ مَوْرَاً ﴾ (١) إن المور هو الحركة كان تقريباً إذ المور حركة خفيفة سريعة وكذلك إذا قال ﴿ الوحي ﴾ الإعلام ، أو قيل ﴿ أوحينا إليك ﴾ ﴿ أنزلنا إليك ﴾ أوقيل ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي اسْرَائِيْلَ ﴾ (٢) أي أعلمنا ، وأمثال ذلك .

فهذا كله تقريب لا تحقيق ، فإن الوحي هو إعلام سريع خفي ، والقضاء إليهم أخص من الإعلام ، فإن فيه إنزالاً وإيحاءً إليهم .

والعرب تضمن الفعل معنى الفعل وتعديه تعديته ، ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض ، كما يقولون في قوله ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِك إلى نِعَاجِهِ ﴾ (٣)

أي : مع نعاجه .

---

(١) سورة الطور آية رقم ٩ قال أهل اللغة : مار الشيء يمور موراً أي تحرك وجاء وذهب كما تتكفأ النخلة العيدانة ، أي الطويلة والتمور مثله . وقال الضحاك : يموج بعضها في بعض . مجاهد : تدور دوراً ، أبو عبيدة والأخفش : تكفأ ، وأنشد الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها ... مور السحابة لا ريت ولا عجل

وقيل تجري جرياً ، ومنه قول جرير :

وما زالت القتلى تمور دماؤها ... بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

وقال ابن عباس : تمور السماء يومئذ بما فيها وتضطرب ، وقيل : يدور أهلها فيها ويموج بعضهم في بعض ، والمور أيضاً الطريق ، ومنه قول طرفة : فوق مور معبد .
والمور الموج ، وناقة موارة اليد أي سريعة ، والبعير يمور عضداه إذا ترددا في عرض جنبه . قال الشاعر :

على ظهر موار الملاط حصان

(٢) سورة الإسراء آية رقم ٤ .
(٣) سورة ص آية رقم ٢٤ .

و﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ ﴾ [1] أي : مع الله ، ونحو ذلك والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمين ، فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه .

وكذلك قوله ﴿ وَإِنْ كَادُوْا لَيَفْتِنُوْنَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [2] ضمن معنى يزيغونك ويصدونك وكذلك قوله ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ القَوْمِ الَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا ﴾ [3] ضمن معنى نجيناه وخلصناه .

وكذلك قوله ﴿ يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ ﴾ [4] ضمن يروى بها ونظائره كثيرة .

ومن قال « لا ريب » لا شك ، فهذا تقريب وإلا فالريب فيه اضطراب وحركة ، كما قال : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك [5]

وفي الحديث : أنه مر بظبي حاقف [6] فقال : « لا يريبه أحد » فكما أن اليقين ضمن السكون والطمأنينة ، فالريب ضده ، ضمن الاضطراب والحركة .

---

(١) سورة الصف آية رقم ١٤ .

(٢) سورة الإسراء آية رقم ٧٣ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٧٧ .

(٤) سورة الإنسان آية رقم ٦ .

(٥) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة ٦٠ باب ، ٢٥١٨ بسنده عن أبي الحوراء السعدي قال قلت للحسن بن علي ما حفظت من رسول الله - ﷺ - قال : حفظت من رسول الله ﷺ - وذكره وفيه زيادة [فإن الصدق طمأنينة ، وإن الكذب ريبة ، وفي الحديث قصة ، قال وأبو الحوراء السعدي أسمه ربيعة بن شيبان .

قال الترمذي : وهذا حديث حسن صحيح .

وأخرجه البخاري في البيوع ٣ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٥٣ (حلبي)

(٦) حاقف : بمعنى نائم قد انحنى في نومه .

ولفظ « الشك » وإن قيل إنه يستلزم هذا المعنى لكن لفظه لا يدل عليه .

وكذلك إذا قيل : ذلك الكتاب هذا القرآن فهذا تقريب ، لأن المشار إليه وإن كان واحداً فالإشارة بجهة الحضور غير الإشارة بجهة البعد والغيبة ، ولفظ الكتاب يتضمن من كونه مكتوباً مضموماً ما لا يتضمنه لفظ القرآن من كونه مقروءاً مظهراً بادياً .

فهذه الفروق موجودة في القرآن .

فإذا قال أحدهم ﴿ أَنْ تُبْسَلَ ﴾ [1] أي تحبس وقال الآخر : ترتهن ، ونحو ذلك لم يكن من اختلاف التضاد ، وإن كان المحبوس قد يكون مرتهناً وقد لا يكون ، إذ هذا تقريب للمعنى كما تقدم .

وجمع عبارات السلف في مثل هذا نافع جداً ، فإن مجموع عباراتهم أدل على المقصود من عبارة أو عبارتين ومع هذا فلا بد من اختلاف محقق بينهم ، كما يوجد مثل ذلك في الأحكام .

ونحن نعلم أن عامة ما يضطر إليه عموم الناس من الاختلاف معلوم ، بل متواتر عند العامة أو الخاصة ، كما في عدد الصلوات ، ومقادير ركوعها ، ومواقيتها ،وفرائض الزكاة ، ونصبها ، وتعيين شهر رمضان ، والطواف والوقوف ، ورمي الجمار ، والمواقيت وغير ذلك ثم اختلاف الصحابة في الجد والأخوة وفي المشركة ونحو ذلك لا يوجب ريباً في جمهور

---

(١) هذا جزء من الآية رقم ٧٠ من سورة الأنعام وتمامها ﴿ أن تبسل نفس بما كسبت ﴾ .. الخ .
عن مجاهد ، وقتادة ، والحسن ، وعكرمة والسدي ، والإبسال : تسليم المرء للهلاك هذا هو المعروف في اللغة . أبسلت ولدي أرهنته ، قال عوف بن الأحوص بن جعفر :

وإبسالي بنيَّ بغير جرم ... بعوناه ولا بدمٍ مُرَاقِ

وأنشد النابغة الجعدي :

ونحن رهنا بالأفاقة عامراً ... بما كان في السدرداء رهناً فأبسلا

مسائل الفرائض بل ما يحتاج إليه عامة الناس هو عمود النسب من الآباء والأبناء ، والكلالة ، من الأخوة والأخوات ، ومن نسائهم كالأزواج ، فإن الله أنزل في الفرائض ثلاث آيات مفصلة ، ذكر في الأولى [1] الأصول والفروع ،وذكر في الثانية [2] الحاشية التي ترث بالفرض ، كالزوجين وولد الأم ، ومن الثالثة [3] الحاشية الوارثة بالتعصيب وهم الأخوة لأبوين أو لأب ، واجتماع الجد والأخوة نادر ، ولهذا لم يقع في الإسلام إلا بعد موت النبي ﷺ ، والاختلاف قد يكون لخفاء الدليل ، أو لذهول عنه ، وقد يكون لعدم سماعه ، وقد يكون للغلط في فهم النص .

وقد يكون لاعتقاد معارض راجح [4] .

فالمقصود هنا التعريف بجمل الأمر دون تفاصيله .

---

(١) وهي قوله :﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ الخ سورة النساء آية رقم ١١ .

(٢) وهي قوله تعالى : ﴿ ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ﴾ الخ الآية . النساء آية رقم ١٢ .

(٣) وهي قوله تعالى : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ﴾ . . الخ سورة النساء آية رقم ١٧٦ .

(٤) يحصر الإمام ابن تيمية أسباب الخلاف فيما يأتي أ ـ فساد النية لما في النفوس من البغي والحسد ، وإرادة العلو في الأرض بالفساد ونحو ذلك . فيجب لذلك ذم قول غيره أو فعله ، أو غلبته ، ليتميز عليه أو يجب قول من يوافقه في نسب أو مذهب أو بلد ، أو صداقه أو نحو ذلك لما في قيام قوله من حصول الشرف والرئاسة له .
وتارة يكون سببه جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه ، أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر ، أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق في الحكم أو في الدليل ، وإن كان عالماً بما في نفسه من الحق حكماً أو دليلاً ، والجهل والظلم هما أصل كل شر كما قال تعالى ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ الأحزاب آية ٧٢ .
وكذلك جعل الله مصدر الاختلاف البغي في قوله تعالى ﴿ وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ﴾ سورة البقرة

فصل
« الاختلاف في التفسير وأسبابه »
النوع الأول سببه النقل

الاختلاف في التفسير على نوعين :

منه ما مستنده النقل فقط ، ومنه ما يعبر بغير ذلك إذ العلم إما : نقل مصدق ، وإما : استدلال محقق والمنقول : إما عن المعصوم ، وإما عن غير المعصوم والمقصود بأن جنس المنقول سواء كان عن المعصوم أو غير المعصوم ، وهذا هو النوع الأول منه ما يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف ، ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك فيه .

وهذا القسم الثاني من المنقول ، وهو ما لا طريق لنا إلى الجزم بالصدق منه عامته مما لا فائدة فيه فالكلام فيه من فضول الكلام .

وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فإن الله نصب على الحق فيه دليلاً ، فمثال ما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منه اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف ، وفي البعض الذي ضرب به موسى من البقرة وفي مقدار سفينة نوح ، وما كان خشبها .

وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ونحو ذلك ، فهذه الأمور طريق العلم بها النقل ، فما كان من هذا منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ كاسم صاحب موسى أنه الخضر [1] فهذا معلوم ، وما لم يكن كذلك بل كان مما

(١) سبق الترجمة له في هذا الجزء في كلمة وافية .

يؤخذ عن أهل الكتاب ، كالمنقول عن كعب[١] ووهب ، ومحمد بن اسحاق وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال :

« إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه ، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه »[٢] وكذلك ما نقل عن بعض التابعين ، وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض ، وما نقل في ذلك عن بعض الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى ، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ، ومع جزم الصاحب فيما يقوله ، فكيف يقال : إنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم ؟ .

والمقصود أن مثل هذا الاختلاف الذي لا يعلم صحيحه ولا تفيد حكاية الأقوال فيه هو كالمعرفة لما يروى من الحديث الذي لا دليل على صحته وأمثال ذلك .

---

(١) هو كعب بن مانع بن ذي هجن الحميري أبو اسحاق تابعي ، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن وأسلم في زمن أبي بكر وقدم المدينة في دولة عمر . فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة ، وخرج الى الشام فسكن حمص وتوفي بها عام ٣٢ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٤٩ وحلية الأولياء ٥ : ٣٦٤ والإصابة ت ٧٤٩٨ والنجوم الزاهرة١ : ٩٠]

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٣٨ - حدثنا يونس ، وغيره ، قال حدثنا حماد يعني ابن زيد ، ثنا مجالد عن عامر الشعبي ، عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله - ﷺ - بلفظ : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا فإنكم إما أن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق فإنه لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني » .

وأما « القسم الأول » الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود فيما يحتاج إليه ولله الحمد ، فكثيراً ما يوجد في التفسير والحديث والمغازي أمور منقولة عن نبينا ﷺ وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، والنقل الصحيح يدفع ذلك ، بل هذا موجود فيما مستنده النقل ، وفيما قد يعرف بأمور أخرى غير النقل .

(أهل المدينة هم أعلم الناس بالمغازي)

والمقصود أن المنقولات التي يحتاج إليها في الدين قد نصب الله الأدلة على بيان ما فيها من صحيح وغيره ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم .

ولهذا قال الإمام أحمد : ثلاثة أمور ليس لها إسناد : التفسير ، والملاحم ، والمغازي . ويروى : ليس لها أصل أي إسناد ؛ لأن الغالب عليها المراسيل ، مثل ما يذكره عروة بن الزبير [1] والشعبي [2] ، والزهري [3] ، وموسى بن عقبة [4] ، وابن اسحاق ومن بعدهم ، كيحيى بن

---

(١) هو عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي أبو عبد الله أحد الفقهاء السبعة بالمدينة كان عالماً بالدين صالحاً كريماً لم يدخل في شيء من الفتن ، توفي بالمدينة عام ٩٣ هـ وهو أخو عبد الله بن الزبير لأبيه وأمه وبئر عروة منسوبة إليه « راجع ابن خلكان ١ / ٣١٦ ، صفة الصفوة ٢ / ٤٧ ، وحلية الأولياء ٢ / ١٧٦ »

(٢) هو : عامر بن شراحيل الشعبي الحميري أبو عمرو يضرب المثل بحفظه ولد عام ١٩ هـ ومات فجأة بالكوفة عام ١٠٣ هـ وهو من رجال الحديث الثقات استقضاه عمر بن عبد العزيز وكان فقيها شاعراً نسبته الى شعب وهو بطن من همذان « راجع تهذيب التهذيب ٥ / ٦٥ » والوفيات ١ / ٢٤٤ وتهذيب ابن عساكر ٧ / ١٣٨ وتاريخ بغداد ٢ ٢٢٧ .

(٣) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري من بني زهرة بن كلاب من قريش أول من دوَّن الحديث وأحد كبار الحفاظ والفقهاء تابعي من أهل المدينة ، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه ، توفي عام =

سعيد الأموي ، والوليد بن مسلم والواقدي ونحوهم في المغازي ، فإن أعلم الناس بالمغازي أهل المدينة ، ثم أهل الشام ، ثم أهل العراق . فأهل المدينة أعلم بها لأنها كانت عندهم ، وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم ، ولهذا عظم الناس كتاب أبي إسحاق الفزاري الذي صنفه في ذلك ، وجعلوا الأوزاعي (١) أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار .

(أهل مكة أعلم الناس بالتفسير)

وأما « التفسير » فإن أعلم الناس به أهل مكة ؛ لأنهم أصحاب ابن عباس ، كمجاهد ، وعطاء ،وابن أبي رباح ، وعكرمة (٢) مولى ابن عباس ، وغيرهم من أصحاب ابن عباس : كطاووس (٣) ، وأبي الشعثاء ، وسعيد بن

= ١٢٤ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ١ / ١٠٢ ، وفيات الأعيان ١ / ٤٥١ تهذيب التهذيب ٩ / ٤٥٥]

(٤) هو موسى بن عقبة بن أبي عياش الأسدي بالولاء ، أبو محمد ، مولى آل الزبير : عالم بالسيرة النبوية ، من ثقات رجال الحديث من أهل المدينة مولده ووفاته فيها عام ١٤١ هـ له كتاب المغازي قال الامام ابن حنبل عليكم بمغازي ابن عقبه فإنه ثقة . [راجع تهذيب ١٠ : ٢٦٠ وتذكرة ١ : ١٤٠]

(١) هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي من قبيلة الأوزاع أبو عمرو إمام الديار الشامية في الفقه والزهد ، ولد في بعلبك عام سنة ٨٨ هـ ونشأ في البقاع وسكن بيروت وتوفي بها عام ١٥٧ هـ ، له كتاب السنن في الفقه والمسائل ، ويقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عنها كلها [راجع ابن النديم ١ / ٢٢٢ ، تاريخ بيروت ١٥ ، حلية الأولياء ٦ / ١٣٥]

(٢) هو عكرمة بن عبد الله البربري أبو عبد الله مولى عبد الله بن عباس تابعي كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي طاف البلدان وروى عنه أكثر من سبعين تابعياً وذهب إلى نجدة الحروري فأقام عنده ستة أشهر ، وخرج إلى بلاد المغرب فأخذ عنه أهلها رأي الصفارية وعاد إلى المدينة فطلبه أميرها فتغيب ، مات عام ١٠٥ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٧ / ٢٦٣ ، حلية الأولياء ٣ / ٣٢٦ وميزان الاعتدال ٢ / ٢٠٨]

(٣) هو طاوس بن كيسان الخولاني الهمداني أبو عبد الرحمن من كبار التابعين تفقهاً في =

جبير ، وأمثالهم ، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود ، ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم .

وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل : زيد بن أسلم ، الذي أخذ عنه مالك التفسير ، وأخذه عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن ، وأخذه عن عبد الرحمن عبد الله بن وهب .

(رأي ابن تيمية في الأحاديث المرسلة)

و« المراسيل » إذا تعددت طرقها وخلت عن المواطأة قصداً ، أو الاتفاق بغير قصد كانت صحيحة قطعاً ، فإن النقل إما أن يكون صدقاً مطابقاً للخبر ، وإما أن يكون كذباً تعمد صاحبه الكذب ، أو أخطأ فيه فمتى سلم من الكذب العمد والخطأ كان صدقاً بلا ريب فإذا كان الحديث جاء من جهتين أو جهات ، وقد علم أن المخبرين لم يتواطئا على اختلاقه ، وعلم أن مثل ذلك لا تقع الموافقة فيه اتفاقاً بلا قصد علم أنه صحيح ، مثل شخص يحدث عن واقعة جرت ويذكر تفاصيل ما فيها من الأقوال والأفعال ، ويأتي شخص آخر قد علم أنه لم يواطىء الأول فيذكر مثل ما ذكره الأول ، من تفاصيل الأقوال والأفعال ، فيعلم قطعاً أن تلك الواقعة حق في الجملة ، فإنه لو كان كل منهما كذبها عمداً ، أو خطأ ، لم يتفق في العادة أن يأتي كل منهما بتلك التفاصيل التي تمنع العادة اتفاق الاثنين عليها بلا مواطأة من أحدهما لصاحبه ، فإن الرجل قد يتفق أن ينظم بيتاً وينظم الآخر مثله ، أو يكذب كذبة ، ويكذب الآخر مثلها ، أما إذا أنشأ قصيدة طويلة ذات فنون على قافية ورويٍّ ، فلم تجر

= الدين ورواية للحديث ، أصله من الفرس ، مولده عام ٣٣ في اليمن توفي حاجاً بالمزدلفة عام ١٠٦ هـ صلى عليه عبد الملك بن مروان ، قال ابن عيينة متجنبوا السلطان ثلاثة أبو ذر وطاوس والثوري « راجع تهذيب التهذيب ٥ / ٨ ، صفة الصفوة ٢ / ١٦٠ وابن خلكان ١ / ٢٣٣ » .

العادة بأن غيره ينشيء مثلها لفظاً ومعنى ، مع الطول المفرط ، بل يعلم بالعادة أنه أخذها منه .

وكذلك إذا حدث حديثاً طويلا فيه فنون ، وحدث آخر بمثله فإنه إما أن يكون واطأه عليه أو أخذه منه ، أو يكون الحديث صدقاً ، وبهذهالطريقة يعلم صدق عامة ما تتعدد جهاته المختلفة على هذا الوجه من المنقولات وإن لم يكن أحدها كافياً إما لإرساله ، وإما لضعف ناقله ، لكن مثل هذا لا تضبط به الألفاظ والدقائق التي لا تعلم بهذه الطريق فلا يحتاج ذلك إلى طريق يثبت بها مثل تلك الألفاظ ، والدقائق ، ولهذا ثبتت بالتواتر غزوة بدر ، وأنها قبل أحد ، بل يعلم قطعاً أن حمزة ، وعلياً وعبيدة ، برزوا الى عتبة ، وشيبة ، والوليد ، وأن علياً قتل الوليد ، وأن حمزة قتل قرنه ، ثم يشك في قرنه هل هو عتبة أو شيبة ؟ .

وهذا الأصل ينبغي أن يعرف ، فإنه أصل نافع في الجزم بكثير من المنقولات في الحديث ، والتفسير ، والمغازي ، وما ينقل من أقوال الناس ، وأفعالهم ، وغير ذلك . ولهذا اذا روي الحديث الذي يتأتى فيه ذلك عن النبي ﷺ من وجهين ، مع العلم بأن أحدهما لم يأخذه عن الآخر جزم بأنه حق ، لا سيما إذا علم أن نقلته ليسوا ممن يتعمد الكذب ، وإنما يخاف على أحدهم النسيان والغلط ، فإن من عرف الصحابة كابن مسعود وأبي بن كعب ، وابن عمر ، وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم علم يقيناً أن الواحد من هؤلاء لم يكن ممن يتعمد الكذب على رسول الله ﷺ فضلاً عمن هو فوقهم .

كما يعلم الرجل من حال من جربه وخبره خبرة باطنة طويلة أنه ليس ممن يسرق أموال الناس ، ويقطع الطريق ، ويشهد بالزور ، ونحو ذلك .

وكذلك التابعون بالمدينة ، ومكة ، والشام ، والبصرة ، فإن من عرف

مثل أبي صالح [١] السمان ، والأعرج [٢] ، وسليمان بن يسار [٣] ، وزيد بن أسلم ، وأمثالهم ، علم قطعاً أنهم لم يكونوا ممن يتعمد الكذب في الحديث فضلاً عمن هو فوقهم مثل : محمد بن سيرين [٤] ، والقاسم بن محمد ، أو سعيد بن المسيب ، أو عبيدة السلماني ، أو علقمة ، أو الأسود ، أو نحوهم ، وإنما يخاف على الواحد من الغلط ، فإن الغلط والنسيان كثيراً ما يعرض للإنسان ، ومن الحفاظ من قد عرف الناس بعده عن ذلك جداً ، كما عرفوا حال الشعبي ، والزهري ، وعروة ، وقتادة ، والثوري ، وأمثالهم .

لا سيما الزهري في زمانه ، والثوري في زمانه ، فإنه قد يقول القائل : إن ابن شهاب الزهري لا يعرف له غلط مع كثرة حديثه وسعة حفظه .

---

(١) هو أزهر بن سعد الباهلي بالولاء أبو بكر السمان عالم بالحديث من أهل البصرة كان يتردد على المنصور العباس وله معه أخبار توفي عام ٢٠٣ هـ [راجع الوفيات ٦٢ ، وتهذيب التهذيب ١ / ٢٠٢ ، صفة الصفوة ١ / ٢١٠]

(٢) هو عبد الرحمن بن هرمز أبو داود من موالي بني هاشم عرف بالأعرج حافظ قارىء من أهل المدينة أدرك أبا هريرة وأخذ عنه ، وهو أول من برز في القرآن والسنة وكان خبيرا بأنساب العرب ، وافر العلم ثقة رابط بثغر الاسكندرية مدة ومات بها عام ١١٧ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ١ / ٩١ ، الجمع بين رجال الصحيحين ١ / ٢٨٨ وطبقات القراء ١ / ٣٨١ ومرآة الجنان ١ / ٣٥٠] .

(٣) هو سليمان بن يسار أبو أيوب مولى ميمونة أم المؤمنين أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، كان سعيد بن المسيب إذا أتاه مستفتٍ يقول له : اذهب إلى سليمان فإنه أعلم من بقي اليوم ، ولد في خلافة عثمان عام ٣٤ هـ وتوفي عام ١٠٧ هـ ، قال ابن سعد في وصفه ثقة ، عالم ، فقيه ، كثير الحديث [راجع وفيات الأعيان ١ / ٢١٣]

(٤) هو محمد بن سيرين البصري الأنصاري بالولاء أبو بكر إمام وقته في علوم الدين بالبصرة تابعي من أشراف الكتاب ، مولده ووفاته في البصرة ، نشأ بزازا في أذنه صمم ، وتفقه وروى الحديث واشتهر بالورع وتعبير الرؤ يا واستكتبه أنس بن مالك وكان أبوه مولى لأنس ينسب له كتاب تعبير الرؤ يا توفي عام ١٠ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٩ / ٢١٤ ، ووفيات الأعيان ١ / ٤٥٣]

والمقصود أن الحديث الطويل إذا روي مثلاً من وجهين مختلفين من غير مواطأة امتنع عليه أن يكون غلطاً ، كما امتنع أن يكون كذباً ؛ فإن الغلط لا يكون في قصة طويلة متنوعة ، وإنما يكون في بعضها ، فإذا روى هذا قصة طويلة متنوعة ، ورواها الآخر مثلما رواها الأول من غير مواطأة امتنع الغلط في جميعها ، كما امتنع الكذب في جميعها من غير مواطأة .

ولهذا إنما يقع في مثل ذلك غلط في بعض ما جرى في القصة مثل حديث اشتراء النبي ﷺ البعير من جابر ، فإن من تأمل طرقه علم قطعاً أن الحديث صحيح ، وإن كانوا قد اختلفوا في مقدار الثمن . وقد بيَّن ذلك البخاري في صحيحه ، فإن جمهور ما في البخاري ومسلم مما يقطع بأن النبي ﷺ قاله ، لأن غالبه من هذا النحو ، ولأنه قد تلقاه أهل العلم بالقبول والتصديق ، والأمة لا تجتمع على خطأ فلو كان الحديث كذباً في نفس الأمر ، والأمة مصدقة له قابلة له لكانوا قد أجمعوا على تصديق ما هو في نفس الأمر كذب ، وهذا إجماع على الخطأ ، وذلك ممتنع وإن كنا نحن بدون الإجماع نجوز الخطأ أو الكذب على الخبر فهو كتجويزنا قبل أن نعلم الإجماع على العلم الذي ثبت بظاهر أو قياس ظني أن يكون الحق في الباطن ، بخلاف ما اعتقدناه فإذا أجمعوا على الحكم جزمنا بأن الحكم ثابت باطناً وظاهراً ، ولهذا كان جمهور أهل العلم من جميع الطوائف على أن خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول تصديقاً له أو عملاً به أن يوجب العلم ، وهذا هو الذي ذكره المصنفون في أصول الفقه من أصحاب أبي حنيفة [1]

---

(١) هو النعمان بن ثابت العالم الفقيه ولد في الكوفة سنة ٨٠ هـ وهو أول أئمة أهل السنة ميلاداً ، كان عالماً زاهداً عابداً ورعاً تقياً كثير الخشوع دائم التضرع إلى الله ، وكانت إمامته مستمدة من علمه وانسانيته كان زعيم أهل الرأي وفي ذلك يقول إذا جاء الحديث عن الرسول ﷺ أخذناه وإذا جاء عن الصحابة تخيرنا وإذا جاءنا من التابعين زاحمناهم [الوفيات ٥ / ٤٣ والأئمة الأربعة ٣٨ أبو حنيفة للشيخ أبي زهرة ص ١٠٢]

ومالك [1] والشافعي [2] وأحمد إلا فرقة قليلة من المتأخرين اتبعوا في ذلك طائفة من أهل الكلام ، أو أكثرهم يوافقون الفقهاء وأهل الحديث والسلف على ذلك ، وهو قول أكثر الأشعرية ، كأبي اسحاق ، وابن فورك ، وأما ابن عقيل وابن الجوزي وابن الخطيب والآمدي ونحو هؤلاء ، والأول هو الذي ذكره الشيخ أبو حامد [3] وأبو الطيب وأبو اسحاق وأمثاله من أئمةالشافعية ، وهو الذي ذكره القاضي عبد الوهاب وأمثاله من المالكية ؛ وهو الذي ذكره أبو يعلى ، وأبو الخطاب ، وأبو الحسن ابن الزاغوني وأمثالهم من الحنبلية ، وهو الذي ذكره شمس الدين السرخسي وأمثاله من الحنفية وإذا كان الإجماع على تصديق الخبر موجباً للقطع به فالاعتبار في ذلك باجماع أهل العلم بالحديث ، كما أن الاعتبار في الإجماع على الأحكام بإجماع أهل العلم بالأمر والنهي والإباحة .

---

(1) مالك ـ هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي إمام دار الهجرة وشيخ المدينة وعالم أهل الحجاز (٩٣ ـ ١٩٧ هـ) أقبل على الفقه والحديث إقبالاً هيأ منه إماماً جليلاً من أئمة الاسلام تتلمذ على كثير من أعلام عصره في المدينة مثل نافع بن أبي نعيم والزهري ونافع مولى عبد الله بن عمر [راجع الوفيات حـ ٣ / ٢٨٤ . صفة الصفوة ٢ / ٩٩]

(2) هو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي ثالث الأئمة المشهورين (١٥٠ ـ ٢٠٤) من حيث حياتهم الزمنية ولكنهم واسطة العقد بينهم من حيث الشخصية المتجددة المتطورة من حيث نظرته للقضايا الفقهية ، وتناوله للمسائل الدينية جمع بين ثقة أهل الرأي وأهل الحديث بمقادير متعادلة ومهما كان أمر الاتفاق أو الاختلاف فإن شخصية الشافعي وعلمه وأدبه ودينه كان طرازا فريداً في دنيا العلم والعلماء [راجع الأئمة الأربعة للشرباصي ص ١٠٥ الشافعي حياته وعصره لأبي زهرة ص ١١]

(3) هو أبو حامد الغزالي (حجة الاسلام) من كبار الشافعية والأشاعرة، ولد سنة ٤٥٠ هـ وتوفي سنة ٥٠٥ هـ مزج المنطق بعلوم المسلمين في كتابه (القسطاس المستقيم) كثيراً ما ينتقده ابن تيمية في مؤلفاته العديدة والتي من أهمها « الإحياء في علوم الدين » و« مقاصد الفلاسفة » و« تهافت الفلاسفة » و« المنقذ من الضلال » وغير ذلك . [راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٦٣ ، وطبقات الشافعية ٤ : ١٠١ وتبين كذب المفتري ٢٩١ ـ ٣٠٦]

والمقصود هنا أن تعدد الطرق مع عدم التشاعر أو الاتفاق في العادة يوجب العلم بمضمون المنقول لكن هذا ينتفع به كثيراً في علم أحوال الناقلين ، وفي مثل هذا ينتفع برواية المجهول والسيء الحفظ ، وبالحديث المرسل ، ونحو ذلك ولهذا كان أهل العلم يكتبون مثل هذه الأحاديث ، ويقولون : إنه يصلح للشواهد والاعتبار ما لا يصلح لغيره .

قال أحمد : قد أكتب حديث الرجل لاعتبره ، ومثل هذا بعبد الله بن لهيعة [1] قاضي مصر ، فإنه كان من أكثر الناس حديثاً ومن خيار الناس ، لكن بسبب احتراق كتبه وقع في حديثه المتأخر غلط ، فصار يعتبر بذلك ويستشهد به ، وكثيراً ما يقترن هو والليث بن سعد [2] ، والليث حجة ثبت إمام .

وكما أنهم يستشهدون ويعتبرون بحديث الذي فيه سوء حفظ فإنهم أيضاً يضعفون من حديث الثقة الصدوق الضابط أشياء تبين لهم أنه غلط فيها بأمور يستدلون بها ، ويسمون هذا علم علل الحديث ، وهو من أشرف علومهم بحيث يكون الحديث قد رواه ثقة ضابط وغلط فيه ، وغلطه فيه عرف إما بسبب ظاهر كما عرفوا أن النبي ﷺ تزوج ميمونة وهو حلال ، وأنه صلى في البيت ركعتين .

وجعلوا رواية ابن عباس لتزوجها حراماً ، ولكونه لم يصل مما وقع فيه

---

(١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة بن فرعان الحضرمي المصري قاضي مصر وعالمها ومحدثها في عصره . قال ابن حنبل : ما كان محدث مصر إلا ابن لهيعة ، وقال النووي : ابن لهيعة الأصول والفروع عندنا ، تولى قضاء مصر سنة ١٥٤ هـ وتوفي سنة ١٧٤ هـ [راجع : الولاة والقضاة ص ٣٩٩٠ ، والنووي ١ : ٢٨٣ ، والأعلام ٢ : ٥٧٥ ط سنة ١٩٢٠]

(٢) هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن مولى قيس بن رقام أصله من أصفهان ولد سنة ٩٢ أو ٩٤ هـ وتوفي يوم الخميس سنة ١٧٥ هـ أخذ عن ابن شهاب ، وقال عنه الشافعي : الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به . [راجع طبقات الفقهاء للشيرازي ٧٨ ، ٧٩]

الغلط .

وكذلك أنه اعتمر أربع عمر ، وعلموا أن قول ابن عمر : أنه اعتمر في رجب مما وقع فيه الغلط ، وعلموا أنه تمتع وهو آمن في حجة الوداع ، وأن قول عثمان لعلي :

« كنا يومئذ خائفين » مما وقع فيه الغلط ، وأن ما وقع في بعض طرق البخاري « أن النار لا تمتلىء حتى ينشىء الله لها خلقاً آخر » مما وقع فيه الغلط وهذا كثير .

والناس في هذا الباب طرفان : طرف من أهل الكلام ونحوهم ممن هو بعيد عن معرفة الحديث وأهله ، لا يميز بين الصحيح والضعيف فيشك في صحة أحاديث ، أو في القطع بها مع كونها معلومة مقطوعاً بها عند أهل العلم به ، وطرف ممن يدعي اتباع الحديث والعمل به كلما وجد لفظاً في حديث قد رواه ثقة أو رأى حديثاً بإسناد ظاهره الصحة يريد أن يجعل ذلك من جنس ما جزم أهل العلم بصحته ، حتى إذا عارض الصحيح المعروف أخذ يتكلف له التأويلات الباردة ، أو يجعله دليلاً له في مسائل العلم ، مع أن أهل العلم بالحديث يعرفون أن مثل هذا غلط .

وكما أن على الحديث أدلة يعلم بها أنه صدق ، وقد يقطع بذلك فعليه أدلة يعلم بها أنه كذب ويقطع بذلك مثل ما يقطع بكذب ما يرويه الوضاعون من أهل البدع والغلو في الفضائل مثل حديث يوم عاشوراء وأمثاله مما فيه أن من صلى ركعتين كان له كأجر كذا وكذا نبياً .

وفي التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي (١) والواحدي والزمخشري في فضائل سور القرآن سورة سورة فإنه

---

(١) هو أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي أبو اسحاق مفسر ، من أهل نيسابور ، له اشتغال بالتاريخ من كتبه عرائس المجالس في قصص الأنبياء والكشف والبيان في تفسير القرآن يعرف =

موضوع باتفاق أهل العلم .

والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين ، وكان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع و« الواحدي » [٢] صاحبه كان أبصر منه بالعربية ، لكن هو أبعد عن السلامة واتباع السلف .

و« البغوي » تفسيره مختصر من الثعلبي لكنه صان تفسيره من الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة .

والموضوعات في كتب التفسير كثيرة مثل الأحاديث الكثيرة الصريحة في الجهر بالبسملة [١] .

وحديث علي الطويل في تصدقه بخاتمه في الصلاة ، فإنه موضوع باتفاق أهل العلم .

ومثل ما روي في قوله ﴿ وَلِكُلِ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [٢] إنه علي .

﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [٣] أذنك يا علي .

= بتفسير الثعلبي ، توفي عام ٤٢٧ هـ [راجع ابن خلكان ١ / ٢٢ ، إنباء الرواة ١ / ١١٩ والبداية والنهاية ١٢ / ٤٠]

(٢) هو علي بن أحمد بن محمد بن علي متوية أبو الحسن الواحدي مفسر عالم بالأدب نعته الذهبي بإمام علماء التأويل ، كان من أولاد النجار ، أصله من ساوه بين الري وهمذان ، وفاته بنيسابور عام ٤٦٨ هـ له البسيط والوسيط والوجيز كلها في التفسير شرح ديوان المتنبي وله أسباب النزول وشرح الأسماء الحسنى [راجع النجوم الزاهرة ٥ / ١٠٤ ، مفتاح السعادة ١ / ٤٠٢]

(١) أخرج الدارقطني ، والحاكم ، والبيهقي ، عن أبي هريرة قال : كان رسول الله ـ ﷺ ـ يجهر (بسم الله الرحمن الرحيم) في الصلاة . وأخرج الطبراني ، والدارقطني ، والبيهقي في شعب الإيمان من طريق أبي الطفيل ، والدارقطني والحاكم عن أنس قال سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يجهر بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)

(٢) سورة الرعد آية رقم ٧ .

(٣) سورة الحاقة آية رقم ١٢ .

فصل
(النوع الثاني سببه اختلاف)
طرق الاستدلال

وأما النوع الثاني من مستندي الاختلاف وهو ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل ، فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثنا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان ، فإن التفاسير التي يذكر فيها كلام هؤلاء صرفاً لا يكاد يوجد فيها شيء من هاتين الجهتين ، مثل تفسير عبد الرزاق [1] ، ووكيع ، وعبد بن حميد [2] وعبد الرحمن [3] بن ابراهيم دحيم .

ومثل تفسير الإمام أحمد ، واسحاق بن راهويه [4] ، وبقي بن مخلد

---

(١) هو ابن همام أبو بكر الصنعاني من حفاظ الحديث الثقات من أهل صنعاء ، كان يحفظ نحواً من سبعة عشر ألف حديث ، له الجامع الكبير في الحديث قال الذهبي : وهو خزانة علم ، وكتاب في تفسير القرآن ، توفي عام سنة ٢١١ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٦ / ٣١٠ وابن خلكان ١ / ٣٠٣ وطبقات الحنابلة ١٥٢ وميزان الاعتدال ٢ / ١٢٦]

(٢) هو : عبد بن حميد بن نصر الكسي أبو محمد من حفاظ الحديث قيل : اسمه عبد الحميد وخفف نسبته الى كس مدينة قرب سمرقند ، من كتبه مسند كبير وتفسير ، توفي عام ٢٤٩ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ٢ / ١٠٤ والمستطرفة ٥٠] .

(٣) هو عبد الرحمن بن ابراهيم بن عمرو الأموي مولاه المسمى دحيم الدمشقي محدث الشام في عصره كان على مذهب الأوزاعي ولي قضاء الأردن وقضاء فلسطين ، وطلب لقضاء القضاة بمصر فعاجلته المنية توفي بفلسطين عام ٢٤٥ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ٢ / ٥٨ ، تهذيب التهذيب ٦ / ١٣١]

(٤) هو اسحاق بن ابراهيم بن مخلد الحنظلي أبو يعقوب بن راهويه عالم خراسان في عصره ، =

وأبي بكـر بن المنـذر ، وسفيـان بن عيينـة ، وسنين وابن جـريـر ، وابن أبي حاتم ، وأبي سعيد الأشج ، وأبي عبد الله ابن ماجه ، وابن مردويه ـ

إحداهما : قوم اعتقدوا معاني ، ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها .

و« الثانية » قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكـلامه من كـان من الناطقين بلغة العرب ، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن ، والمنزل عليه ، والمخاطب به .

فـ « الأولون » راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان .

و« الآخرون » راعوا مجرد اللفظ ، وما يجوز عندهم أن يريد بـه العربي من غيـر نـظر إلى ما يصلح للمتكلم بـه ، ولسياق الكـلام ثم هؤلاء كثيراً مـا يغلطون في احتمـال اللفظ لذلـك المعنى في اللغة كمـا يغلط في ذلك الـذين قبلهم ، كمـا أن الأولين كثيراً مـا يغلطون في صحـة المعنى الـذي فسـروا بـه القـرآن ، كما يغلط في ذلـك الآخرون وإن كـان نظر الأولـين إلى المعنى أسبق ، ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق .

والأولون صنفان : تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد بـه ، وتارة يحملونـه على ما لم يـدل عليه ولم يـرد به . وفي كـلا الأمرين قـد يكـون مـا قصـدوا نفيـه ، أو إثبـاتـه من المعنى بـاطـلاً فيكــون خـطأ هم في الــدليـل والمدلول ، وقد يكون حقاً فيكون خطأهم في الدليل لا في المدلول .

وهذا كما أنه وقع في تفسير القرآن فإنه وقـع أيضاً في تفسيـر الحديث ،

= وهو أحد كبار الحفاظ طاف البلاد لجمع الحديث وأخذ عنه الامـام احمد بن حنبـل والبخاري ومسلم والترمذي والنسـائي وغيرهم ، قـال الدارمي : سـاد اسحاق أهـل المشـرق والمغـرب بصدقه توفي عام ٢٣٨ هـ [راجع تهذيب ابن عساكر ٢ / ٤٠٩ وتهذيب التهذيب ١ / ٢١٦ ، وميزان الاعتدال ١ / ٨٥]

فالذين أخطأوا في الدليل والمدلول - مثل طوائف من أهل البدع - اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذي عليه الأمة الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة كسلف الأمة وأئمتها ، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم

تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها .

وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه ومن هؤلاء : فرق الخوارج ، والروافض ، والجهمية والمعتزلة ، والقدرية [1] ، والمرجئة ، وغيرهم وهذا كالمعتزلة مثلاً فإنهم من أعظم الناس كلاماً وجدالاً ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم شيخ ابراهيم بن اسماعيل ابن علية الذي كان يناظر الشافعي ومثل كتاب أبي علي الجبائي ، والتفسير الكبير للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني ، ولعلي بن عيسى الرماني والكشاف لأبي القاسم الزمخشري .

فهؤلاء وأمثالهم اعتقدوا مذاهب المعتزلة .

وأصول المعتزلة خمسة يسمونها هم : التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين ، وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [2] .

و« توحيدهم » هو توحيد الجهمية الذي مضمونه نفي الصفات وغير ذلك ، قالوا : إن الله لا يُرى ، وإن القرآن مخلوق وإنه ليس فوق العالم ،

---

(١) القدرية : لا تطلق على فرقة بعينها ، وإنما يطلق ابن تيمية هذا اللفظ على المعتزلة ، وعلى كل من يرى أن العبد خالق لفعله بقدرته المستقلة عن قدرة الله ، وأحياناً يرجع هذا الرأي الى غيلان الدمشقي ويرى أن المعتزلة أخذوا عنه القول بنفي القدر ، ولفظ القدرية من الألفاظ التي يرمي بها علماء الكلام بعضهم بعضاً ، وتحاول كل فرقة أن تبرىء نفسها من الاتصاف به وتتهم به غيرها . فالمعتزلة يصفون به الجبرية والمشبهة ، والأشاعرة يطلقونه على المعتزلة [راجع شرح الأصول الخمسة ص ٧٧٢ ، ٧٨٣ ، والتعريفات للجرجاني]

(٢) راجع شرح الأصول الخمسة : للقاضي عبد الجبار بن أحمد ، حققه وقدم له . الدكتور عبد الكريم عثمان وعلق عليه : احمد بن الحسين بن أبي هاشم : الناشر : مكتبة وهبه - مصر .

وإنـه لا يقوم بـه علم ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ، ولا بصـر ولا كـلام ، ولا مشيئة ولا صفة من الصفات .

وأما « عدلهم » فمن مضمونه أن الله لم يشأ جميع الكـائنات ولا خلقهـا كلها ، ولا هو قادر عليها كلها ، بل عندهم أن أفعال العباد لم يخلقها الله ، لا خيرها ولا شرها ولم يرد إلا ما أمر به شرعاً ، وما سوى ذلـك فإنـه يكون بغيـر مشيئة ، وقد وافقهم على ذلك متأخروا الشيعة كالمفيد ، وأبي جعفـر الطوسي وأمثالهما ، ولأبي جعفر هذا تفسيـر على هذه الـطريقة ، لكن يضم إلى ذلـك قول الامامية الاثنى عشرية (١) ، فإن المعتـزلة ليس فيهم من يقـول بذلـك ولا من ينكر خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي .

ومن أصول المعتزلة مع الخوارج « إنفاذ الوعيد في الآخـرة » وأن الله لا يقبل في أهل الكبائر شفاعة ، ولا يخرج منهم أحداً من النـار ولا ريب أنه قـد رد عليهم طوائف من المرجئة والكرامية (٢) والكلابية وأتباعهـم ، فأحسنوا تـارة

---

(١) الاثنا عشرية : فرقة من فرق الشيعة الامامية ، يقولون بأن الـرسول ـ ﷺ ـ قـد نص على إمـامة علي من بعده ، ثم ساقوا الإمامة في أبنائه من بعده ، حتى محمد بن الحسن المهدي المنتظر ، وهو الإمام الثاني عشر ، والإمامـة عندهم أهم أركـان الدين ، ويقـولون بعصمـة الإمام ، ويلحقـون الامام بالنبي في العصمة ، وقد صنف ابن تيمية كتابا في الرد على الشيعة ، وهـو « منهاج السنـة النبوية » في الرد على منهاج الكرامة لابن المطهر الحلي ، وقد نشر الجزء الأول منه بتحقيق الأستاذ الدكتور محمد رشاد سالم ـ أنظر الملل والنحل ١ : ٢٧٧ ـ ٢٧٩ ، والفرق بين الفرق ٢١ ـ ٢٤ ، ومقالات الاسلاميين للأشعري ١ / ٥ ، ١٦ ـ ١٧ .

(٢) الكرامية : هم اتباع أبي عبد الله محمد بن كرام السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥ وهم يقولون باثبات الصفـات لله ، وبعضهم يبالـغ في ذلك الى حـد التشبيه ، ويقـولون : بـالحكمة وإثبـات القـدر ويـوافقون المعتـزلة في القـول بالمعـرفة العقليـة والتحسين والتقبيـح العقليين ، وهم يعتبـرون من المرجئة .

[راجع لسان الميـزان ٥ : ٣٥٣ ـ ٣٥٦ ، وميزان الاعتـدال ٤ : ٢١ والفصل لابن حـزم ٤ : ٥٤ ، والملل والنحل ١ : ١٨٠ ـ ١٩٣ والخطط للمقريزي ٢ : ٣٤٩ ـ ٣٥٧]

وأساءوا أخرى حتى صاروا في طرفي نقيض ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم ، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة ، وذلك من جهتين :

تارة من العلم بفساد قولهم ، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن ، إما دليلاً على قولهم ، أو جوابا على المعارض لهم .

ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً ويدس البدع في كلامه ، وأكثر الناس لا يعلمون كصاحب الكشاف ونحوه ، حتى إنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله ، وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدي لذلك .

ثم إنه لسبب تطرف هؤلاء وضلالهم دخلت الرافضة الإمامية ثم الفلاسفة ، ثم القرامطة وغيرهم فيما هو أبلغ من ذلك وتفاقم الأمر في الفلاسفة والقرامطة والرافضة ، فإنهم فسروا القرآن بأنواع لا يقضي العالم منها عجبه .

فتفسير الرافضة كقولهم ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ** ﴾ [(١)] هما : أبو بكر وعمر .

و ﴿ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** ﴾ [(٢)] أي بين أبي بكر وعلي في الخلافة .

---

(١) سورة المسد آية رقم ١ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٦٥ .

و﴿ إنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوْا بَقَرَةً ﴾ (١) هي عائشة و ﴿ فَقَاتِلُوْا أَئِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ (٢) طلحة والزبير . و ﴿ مَرَجَ البَحْرَيْنِ ﴾ (٣) علي وفاطمة .

و ﴿ اللُّؤْلُؤُ وَالْمرْجَانُ ﴾ (٤) الحسن والحسين .

و ﴿ كُلَ شَيءٍ أَحْصَيْنَاهُ في إمَامٍ مُبين ﴾ (٥)

في علي بن أبي طالب .

و ﴿ عَمَّ يَتَساءَلُوْنَ عَنِ النَّبأِ العَظِيْمِ ﴾ (٦)

علي بن أبي طالب .

و ﴿ إنَّما وَليُّكُم الله وَرَسُوْلُه والَّذِيْنَ آمَنُوْا الَّذِيْنَ يُقِيْمُوْنَ الصَّلاَة وَيُؤْتُوْنَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُوْنَ ﴾ (٧) هو علي .

ويذكرون الحديث الموضوع بإجماع أهل العلم وهو : تصدقه بخاتمه في الصلاة .

وكذلك قوله ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ (٨) نزلت في علي لما أصيب بحمزة .

ومما يقارب هذا من بعض الوجوه ما يذكره كثير من المفسرين في مثل قوله ﴿ الصَّابِرِيْنَ والصَّادقينَ والقَانِتِين . وَالمُنْفِقِيْنَ وَالْمُسْتَغْفِرِيْنَ

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٦٧ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٢ .

(٣) سورة الرحمن آية رقم ١٩ .

(٤) سورة الرحمن آية رقم ٢٢ .

(٥) سورة يس آية رقم ١٢ .

(٦) سورة النبأ آية رقم ١ ـ ٢

(٧) سورة المائدة آية رقم ٥٥ .

(٨) سورة البقرة آية رقم ١٥٧ .

بـالأسْحارِ ﴾ [١] إن ﴿ الصـابرين ﴾ : رسـول الله ﴿ والصادقين ﴾ أبـو بكـر ، ﴿ والقـانتين ﴾ : عمـر ، ﴿ والمنفقين ﴾ : عثمــان ، ﴿ والمستغفـرين ﴾ : علي .

وفي مثل قوله ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُـوْلُ الله والَّذِيْنَ مَعَـهُ ﴾ ـ أبو بكـر ـ ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّـارِ ﴾ ـ عمـر ـ ﴿ رُحَمَـاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ـ عثمــان ـ ﴿ تَـرَاهُم رُكَّـعا سُجَّداً ﴾ ـ علي ـ [٢] .

وأعجب من ذلك قول بعضهم ﴿ وَالتِّيْن ﴾ أبو بكر ، ﴿ وَالزَّيْتُون ﴾ عمر ﴿ وَطُورِسِينين ﴾ عثمان . ﴿ وَهَذَا البَلَدِ الأَمِيْن ﴾ علي .

وأمثال هذه الخـرافات التي تتضمن تـارة تفسير اللفظ بمـا لا يدل عليـه بحال ، فإن هذه الألفاظ لا تدل على هؤلاء الأشخاص .

وقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَـرَاهُمْ رُكَّعَاً سُجَّداً ﴾ [٣] كل ذلـك نعت الذين معـه ، وهي التي يسميها النحـاة خبراً بعـد خبر .

والمقصود هنا : أنها كلها صفـات لموصـوف واحد وهم الـذين معه ولا يجوز أن يكون كل منها مراداً به شخص واحد .

وتتضمن تـارة جعـل اللفظ المـطلق العـام منحصـراً في شخص واحـد كقوله : إن قوله ﴿ إنَّما وليكُم الله وَرَسُوْلُـه والَّذِين آمَنُـوْا ﴾ [٤] أريد بهـا علي وحده .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الفتح آية رقم ٢٩ .

(٣) سورة الفتح آية رقم ٢٩ .

(٤) سورة المائدة آية رقم ٥٥ .

وقول بعضهم : إن قوله ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ [1] أريد بها أبو بكر وحده .

وقوله ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ [2] أريد بها أبو بكر وحده ونحو ذلك .

وتفسير ابن عطية وأمثاله : اتبع للسنَّة والجماعة وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري ، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل ؛ فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري [3] ، وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدراً ، ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال ، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين وإنما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم ، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة ، لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه ، ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب فإن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم في تفسير الآية قول ، وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوا وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان صاروا مشاركين للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا وفي الجملة : من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم الى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك ، بل مبتدعاً وإن كان

---

(1) سورة الزمر آية رقم ٣٣ .

(2) سورة الحديد آية رقم ١٠ .

(3) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، أبو جعفر المؤرخ المفسر الإمام ولد في آمل طبرستان عام ٢٢٤ هـ واستوطن بغداد وتوفي بها عام ٣١٠ وعرض عليه القضاء فامتنع والمظالم فأبى له أخبار الرسل والملوك يعرف بتاريخ الطبري وجامع البيان في تفسير القرآن يعرف بتفسير الطبري واختلاف الفقهاء ، قال ابن الأثير أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ وفي تفسيره ما يدل على علم غزير وكان مجتهداً في أحكام الدين [راجع ارشاد الأريب ٦ / ٤٢٣ وتذكرة الحفاظ ٢ / ٣٥١ وطبقات السبكي ٢ / ١٣٥ ومفتاح السعادة ١ / ٢٠٥ والبداية والنهاية ١١ / ١٤٥] .

مجتهدا مغفوراً له خطأ ه ، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته وطرق الصواب .

ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه ، كما أنهم أعلم بـالحق الذي بعث الله بـه رسولـه ﷺ ، فمن خالف قولهم [١] وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمـدلول جميعاً ، ومعلوم أن كل من خالف قولهم له شبهة يذكرها [٢] إما عقليـة ، وإما سمعيـة ، كما هـو مبسوط في موضـعه والمقصـود هنا : التنبيـه على مثـار [٣] الاختلاف في التفسير وأن من أعظم أسبابه البدع البـاطلة التي دعت أهلها إلى أن حرفوا الكلم عن مواضعه ، وفسروا كلام الله ورسوله ﷺ بغير ما أريـد به ، وتأولوه على غير تأويله .

فمن أصـول العلم بذلـك أن يعلم الإنسان القـول الـذي خـالفـوه وأنـه الحق ، وأن يعـرف أن تفسيـر السلف يخـالف [٤] تفسيـرهم ، وأن يعـرف أن تفسيرهم محدث [٥] مبتدع ثم أن يعرف بـالطرق المفصلة فسـاد تفسيرهم بمـا نصبه الله من الأدلة على بيان الحق .

وكذلك وقع من الذين صنفوا في شرح الحديث وتفسيره من المتـأخرين من جنس ما وقع فيما صنفوه من شرح القرآن وتفسيره .

وأما الذين يخطئون في الدليل لا في المدلول فمثل كثير من الصـوفية ، والوعاظ ، والفقهاء ، وغيرهم ، يفسرون القرآن بمعان صحيحة ، لكن القرآن لا يـدل عليها مثـل كثير ممـا ذكـره أبـو عبـد الـرحمن السلمي [٦] في حقـائق

---

(١) في (ب) نهجهم بدلاً من (قولهم) .
(٢) في (ب) عنده بدلاً من (يذكرها) .
(٣) في (ب) مدار بدلاً من (مثار) .
(٤) في (ب) ضد بدلاً من (يخالف) .
(٥) في (ب) فضل بدلاً من (محدث) .
(٦) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .

التفسير ، وإن كان فيما ذكروه ما هو معان [1] باطلة ، فإن ذلك يدخل في القسم الأول ، وهو الخطأ في الدليل والمدلول جميعاً [2] ، حيث يكون المعنى الذي قصدوه [3] فاسداً .

---

(1) في (ب) باطل بدلاً من قوله (معان باطلة) .
(2) سقط من (ب) الدليل والمدلول جميعاً .
(3) في (ب) ذهبوا إليه بدلاً من (قصدوه) .

فصل
أحسن طرق التفسير

فإن قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟

فالجواب : إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر ، وما اختصر من مكان فقد بسط في موضع آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له .

بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي [1] كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن .

قال الله تعالى ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكتابَ بِالْحَق لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ الله ولا تكُنْ لِلْخَائِنِيْنَ خَصِيْماً** ﴾ [2] وقال تعالى ﴿ **وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إلا لِتُبَيِّنَ لَهُم الَّذِي اخْتَلَفُوْا فِيْهِ وَهُدىً وَرَحْمَة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُوْن** ﴾ [1]
ولهذا قال رسول الله ﷺ :

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء فليرجع اليها وراجع أيضاً تذكرة الحفاظ ١ : ٣٢٩ ، وتهذيب التهذيب ٩ : ٢٥ والوفيات ١ : ٤٤٧ وارشاد الأريب ٦ : ٣٦٧ ـ ٣٩٨ وغاية النهاية ٢ : ٩٥ وصفة الصفوة ٢ : ١٤٠ وتاريخ بغداد ٢ : ٥٦ ـ ٧٣ وحلية الأولياء ٩ : ٦٣ ونزهة الجليس ٢ : ١٣٥ وتاريخ الخميس ٢ :٣٣٥ ـ وتهذيب الأسماء واللغات القسم الأول من الجزء الأول ٤٤ ـ ٦٧ وطبقات الحنابلة ١ : ٢٨٠ ـ ٢٨٤ .

(٢) سورة النساء الآية رقم ١٠٥ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٦٤ .

« ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه » يعني السنّة . والسنَّة أيضاً تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن ، لا أنها تتلى كما يتلى .

وقد استدل الإمام الشافعي وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك .

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه ، فإن لم تجده فمن السنَّة ، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : بمَ تحكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي .

قال : فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله [1] .

وهذا الحديث في المسانيد والسنن بإسناد جيد .

وحينئذ إذ لم نجد التفسير في القران ولا في السنَّة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن ، والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح لا سيما علماؤهم وكبراؤهم ، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، مثل : عبد الله بن مسعود . قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : حدثنا أبو كريب قال : أنبأنا جابر بن نوح ، أنبأنا الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال : قال عبد الله : يعني ابن مسعود والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥ : ٢٣٠ ـ ثنا محمد بن جعفر ، ثنا شعبة عن أبي عون عن الحرث بن عمرو ابن أخي المغيرة بن شعبة عن ناس من أصحاب معاذ من أهل حمص عن معاذ أن رسول الله ـ ﷺ حين بعثه الى اليمن فقال : وذكره وأخرجه أبو داود في كتاب الأقضية ١١ .

بكتاب الله مني تناوله المطايا لأتيته [1] .

وقال الأعمش أيضاً عن أبي وائل عن ابن مسعود قال : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

ومنهم الحبر البحر « عبد الله بن عباس » ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن ، ببركة دعاء رسول الله ﷺ حيث قال :

« اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، أنبأنا وكيع أنبأنا سفيان عن الأعمش عن مسلم عن مسروق قال : قال عبد الله يعني ابن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس [2] ثم رواه عن يحيى بن داود ، عن اسحاق الأزرق ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن مسلم بن صبيح أبي الضحى ، عن مسروق ، عن ابن مسعود أنه قال : نعم ترجمان للقرآن ابن عباس ثم رواه عن بندار ، عن جعفر بن عون ، عن الأعمش ، به كذلك ، فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة .

وقد مات ابن مسعود في سنة ثلاث وثلاثين على الصحيح ، وعمر بعده ابن عباس ستا وثلاثين سنة ، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابنَ مسعود وقال الأعمش عن أبي وائل : استخلف عليّ ابن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة ، وفي رواية سورة النور ، ففسرها تفسيراً لو سمعته

---

(١) ورد هذا الأثر في صحيح البخاري كتاب التفسير . باب القراء عن أصحاب رسول الله - ﷺ - عن مسروق عن عبد الله بن مسعود أنه قال : والذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه » . وذكره ابن جرير الطبري في تفسيره ١ : ٢٨ ، وابن كثير ٤ : ٢٧ كتاب فضائل القرآن .

(٢) هذا تخريج وافي لما قاله الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود في شأن الصحابي الجليل : عبد الله =

الروم ، والترك ، والديلم ، لأسلموا .

ولهذا غالب ما يرويه اسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين : ابن مسعود ، وابن عباس ، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال : «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار [1] » .

رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو .

ولهذا كان عبد الله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين [2] من كتب أهل الكتاب فكان يحدث منها بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك .

ولكن هذه الأحاديث الاسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد فإنها على ثلاثة أقسام .

« أحدها » ما علمنا صحته مما بأدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح .

و« الثاني » ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

و« الثالث » ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه وتجوز حكايته لما تقدم .

وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك .

كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعدتهم ،

= ابن عباس : حبر الأمة والذي قال فيه الرسول - ﷺ - اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل .

(١) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء فليرجع إليه

(٢) الزاملة : بعير يستظهر به الرجل يحمل متاعه وطعامه عليه والمزاملة : المعادلة على البعير ، وزمله في ثوبه لفه ، وتزمل بثيابه تدثر .

وعصا موسى من أي الشجر كانت ، وأسماء الطيور التي أحياهـا الله لابراهيم ، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ، ونـوع الشجرة التي كـلم الله منها موسى . إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم ، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلـك جائـز كما قـال تعـالى ﴿ سَيَقُوْلُـونَ ثلاثـة رابعُهم كلبُهم وَيقُولـونَ خَمسة سَـادِسُهم كَلْبُهُم رَجْمـاً بِالْغَيْبِ وَيَقُوْلُـوْنَ سَبْعَةٌ وَثَـامِنُهُم كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِـدتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إلاَّ قَلِيْل فَلا تُمار فِيْهِمْ إلاَّ مِراءً ظَاهِراً وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيْهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ [١]

فقد اشتملت هذه [٢] الآية الكريمـة على الأدب في هذا المقـام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا ، فإنه تعالى أخبـر عنهم بثلاثـة أقوال ، ضعف القـولين الأولين وسكت عن الثالث [٣] ، فدل على صحته ، إذا لو كان باطلاً لرده كمـا ردهما ، ثم أرشد الى أن الاطلاع على عدتهم لا طـائل تحتـه [٤] ، فيقال في مثل هذا :

﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدتِهِمْ ﴾

فإنه ما يعلم [٥] بذلك إلا قليل من النـاس ممن أطلعه الله عليـه ، فلهذا قال ﴿ فَلاَ تُمَار فِيهِمْ إلاَّ مِراء ظَاهِراً ﴾ ، أي : لا تجهد نفسك فيما لا طائـل تحته ، ولا تسألهم عن [٦] ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب .

---

(١) سورة الكهف آية رقم ٢٢ .
(٢) سقط من (ب) لفظ (هذا)
(٣) في (ب) الآخر بدلاً من (الثالثه) .
(٤) في (ب) فيه بدلاً من (تحته) .
(٥) في (ب) لا يعلم بدلاً من (ما يعلم) .
(٦) في (ب) عنه بدلاً من (عن ذلك) .

فهذا أحسن ما يكون في حكاية [1] الخلاف أن تستوعب الآقوال في ذلك المقام ، وأن ينبه على الصحيح منها ، ويبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف[2] وثمرته ، لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته فيشتغل به عن الأهم ، فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص ، إذ قد يكون الصواب في الذي [3] تركه ، أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضاً ، فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب ، أو جاهلاً فقد أخطأ ، كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حكى أقوالاً متعودة لفظاً ، ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى ، فقد ضيع الزمان وتكثر بما ليس بصحيح فهو كلابس ثوبي زور [4] والله الموفق للصواب .

---

(١) في (ب) معرفة بدلاً من (حكاية) .

(٢) في (ب) ثمرة الخلاف بدلاً من (فائدة الخلاف وثمرته) .

(٣) في (أ) بزيادة لفظ (الذي) .

(٤) الزور : الكذب قال تعالى : ﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزورا وإن الله لعفو غفور ﴾ المجادلة آية ٢ .
وقال تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ سورة الحج آية رقم ٣٠ .
والزور بالفتح أعلى الصدر وهو أيضاً ﴿ الزائرون ﴾ يقال رجل « زائر » وقوم « زور » .

فصل
تفسير القرآن بأقوال التابعين

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنَّة ، ولا وجدته عن الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر [1] ، فإنه كان آية في التفسير ، كما قال محمد بن اسحاق : حدثنا أبان ابن صالح عن مجاهد قال : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها ، وبه إلى الترمذي قال : حدثنا الحسين بن مهدي البصري ، حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً ، وبه إليه قال : حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان بن عيينة عن الأعمش قال : قال مجاهد : لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب قال : حدثنا طلق بن غنام عن عثمان المكي عن ابن أبي مليكة قال : رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير

---

(١) هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج المكي مولى بني مخزوم : تابعي ، مفسر من أهل مكة قال الذهبي : شيخ القراء والمفسرين ، أخذ التفسير عن ابن عباس ، قرأه عليه ثلاث مرات ، وتنقل في الأسفار واستقر في الكوفة ، وكان لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها . ذهب الى بئر برهوت « بحضرموت » وذهب الى بابل توفي عام ١٠٤ هـ . [راجع طبقات الفقهاء ٤٥ وإرشاد ٦ : ٢٤٢ وميزان الاعتدال ٣ : ٩ وحلية ٣ : ٢٧٩]

القرآن ومعه الواحه قال : فيقول له ابن عباس اكتب حتى سأله عن التفسير كله ، ولهذا كان سفيان الثوري يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به .

وكسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، وأبي العالية ، والربيع بن أنس ، وقتادة والضحاك بن مزاحم [1] ، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم ، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً وليس كذلك ، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو نظيره ، ومنهم من ينص على الشيء بعينه والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن فليتفطن اللبيب لذلك ، والله الهادي .

وقال شعبة بن الحجاج [2] وغيره أقوال التابعين في الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير ، يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم ، وهذا صحيح أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم

---

(١) هو الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني أبو القاسم : مفسر ، كان يؤدب الأطفال ويقال : كان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي . قال الذهبي : كان يطوف عليهم على حمار ، وذكره ابن حبيب تحت عنوان « أشراف المعلمين وفقهاؤهم » له كتاب في التفسير توفي عام ١٠٥ . [راجع ميزان الاعتدال ١ : ٤٧١ وتاريخ الخميس ٢ : ٣١٨ والمحبر ٤٧٥]

(٢) هو شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي مولاهم ، الواسطي ثم البصري أبو بسطام : من أئمة رجال الحديث . حفظاً ودراية وتثبيتاً ولد عام ٨٢ هـ بواسط ونشأ بها وسكن البصرة الى أن توفي عام ١٦٠ هـ ، وهو أول من فتش بالعراق عن أمر المحدثين ، وجانب الضعفاء والمتروكين . قال الإمام أحمد : هو أمة وحده في هذا الشأن ، وقال الشافعي : لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق . له كتاب « الغرائب في الحديث » . [راجع تهذيب التهذيب ٤ : ٣٣٨ وحلية الأولياء ٧ : ١٤٤ وذيل المذيل ١٠٤ وتاريخ بغداد ٩ : ٢٥٥]

ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن ، أو السنَّة ، أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة في ذلك .

تفسير القرآن بالرأي حرام

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام .

حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان ، حدثنا عبد الأعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » (١) حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن عبد الأعلى الثعلبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » وبه إلى الترمذي قال : حدثنا عبد بن حميد حدثني حسان بن هلال قال : حدثنا سهيل أخو حزم القطعي قال : حدثنا أبو عمران الجوني عن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » (٢) .

قال الترمذي : هذا حديث غريب ، وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم (٣) .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي ٤٨ كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ (١) باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه ٢٩٥٠ ـ حدثنا محمود بن غيلان حدثنا بشر بن السري ، حدثنا سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .
وفي رواية قال : اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار . قال الترمذي : هذا حديث حسن .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن ٢٩٥٢ ـ حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا حبان ابن هلال ، حدثنا سهيل بن عبد الله وهو ابن أبي حزم أخو حزم القطعي ، حدثنا أبو عمران الجوني عن جندب بن عبد الله قال . قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

(٣) قال حرب عن أحمد روى أحاديث منكرة ، وقال اسحاق بن منصور عن ابن معين صالح ، =

وهكــذا روى بعض أهــل العلم من أصحــاب النبي ﷺ وغيـرهم أنهم شـددوا في أن يفسر القـرآن بغير علم ، وأمـا الـذي روى عن مجـاهـد وقتـادة وغيـرهما من أهـل العلم أنهم فسروا القـرآن فليس الـظن بهم أنهم قـالـوا في القرآن وفسروه بغير علم أو من قبل أنفسهم ، وقـد روي عنهم ما يـدل على ما قلناه أنهم لم يقولـوا من قبل أنفسهم بغيـر علم فمن قال في القـرآن برأيـه فقد تكلف ما لا علم له به وسلك غير ما أمر به ، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ ، لأنه لم يأت الأمر من بابـه ، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر ، لكن يكون أخف جرما ممن أخطأ ، والله أعلم .

وهكذا سمى الله تعالى القذفة كاذبين فقال : ﴿ **فَـإِذْ لَمْ يَأْتُـوْا بِالشهَـدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِنْدَ الله هُمُ الكاذِبُوْنَ** ﴾ (1) فالقاذف كاذب ، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر ، لأنه أخبـر بما لا يـحل لـه الإخبار بـه ، وتكلف ما لا علم لـه به ، والله أعلم .

ولهـذا تحرج جمـاعة من السلف عن تفسيـر ما لا عـلم لهم به ، كمـا روى شعبـة عن سليمان عن عبـد الله بن مرة عن أبي معمـر ، قال : قـال أبو بكر الصديق أي أرض تقلني ، وأي سماء تظلني إذا قلت في كتـاب الله ما لم أعلم ؟!

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام (2) : حدثنا محمود بن يـزيد عن العـوام

= وقال البخاري لا يتابع في حديثه يتكلمون فيه ، وقـال مرة : ليس بـالقوي عنـدهم ، وقال أبـو حاتم : ليس بالقوي يكتب حديثـه ولا يحتج بـه ، وأخوه حزم أتقن منه ، وقـال النسائي ليس بالقوي . ووثقه العجلي . [راجع تهذيب التهذيب ٦ : ٢٦١]

(1) سورة النور آية رقم ١٣ .

(2) هو القاسم بن سلام الهروي الأزدي الخزاعي بالولاء الخراساني البغدادي ، أبو عبيد من كبـار =

ابن حوشب عن ابراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ (1) فقال : أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم ـ منقطع ـ (2)

وقال أبو عبيد أيضا : حدثنا يزيد عن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿ وَفاكهةً وأبًا ﴾ فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر . وقال عبد بن حميد : حدثنا سليمان بن حرب قال : حدثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال : كنا عند عمر بن الخطاب وفي ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فقال : ما الأب ؟ ثم قال : إن هذا لهو التكلف فما عليك أن لا تدريه . وهذا كله محمول على أنهما ـ رضي الله عنهما ـ إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب ، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل ، لقوله تعالى ﴿ فأنبتنا فيها حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ (1)

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن ابراهيم قال : حدثنا ابن علية عن أيوب عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها : فأبى أن يقول فيها (4) ـ اسناده صحيح .

= علماء الحديث والأدب والفقه من أهل هراة ولد عام ١٥٧ هـ ورحل إلى بغداد فولي القضاء بطرسوس ثماني عشرة سنة ورحل الى مصر سنة ٢١٣ هـ والى بغداد من كتبه « الغريب المصنف » في غريب الحديث ألفه في نحو أربعين سنة ، وهو أول من صنف في هذا الفن و« فضائل القرآن » توفي عام ٢٢٤ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ٥ وتهذيب التهذيب ٧ : ٣١٥ وابن خلكان ١ : ٤١٨ وطبقات النحويين واللغويين ٢١٧ وطبقات الحنابلة ١ : ٢٥٩]

(1) سورة عبس آية رقم ٣١ .

(2) وإنما انقطع الاسناد لأن أبا بكر ـ رضي الله عنه قد توفي سنة ١٣ هـ بينما ولد ابراهيم بن محمد سنة ٣٦ هـ فلم ير أبا بكر وبالتالي لم يرو عنه .

(3) سورة عبس آية رقم ٢٧ ـ ٣٠ .

(4) هذا من شدة تحرز الصحابة رضوان الله عليهم ـ أن يقول إنسان منهم برأيه في كتاب الله تعالى .

وقال أبو عبيد : حدثنا اسماعيل بن ابراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة قال : سأل رجل ابن عباس عن ﴿ يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ [1] فقال له ابن عباس فما ﴿ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [2] ؟ فقال الرجل : إنما سألتك لتحدثني ، فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما ، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم .

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب يعني ابن ابراهيم حدثنا ابن علية عن مهدي بن ميمون عن الوليد بن مسلم قال : جاء طلق بن حبيب إلى جندب ابن عبد الله فسأله عن آية من القرآن فقال : أحرج عليك إن كنت مسلماً لما قمت عني ، أو قال : أن تجالسني . وقال مالك عن يحيى بن سعيد [3] عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال : إنا لا نقول في القرآن شيئاً .

وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن ، وقال شعبة عن عمرو بن مرة قال : سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال : لا تسألني عن القرآن وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء يعني عكرمة وقال ابن شوذب : حدثني يزيد ابن أبي يزيد قال : كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام ، وكان أعلم الناس ، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع .

---

(1) سورة السجدة آية رقم ٥ .

(2) سورة المعارج آية رقم ٤ .

(3) يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري البخاري أبو سعيد قاض من أكابر أهل الحديث من أهل المدينة ، قال الجمحي ما رأيت أقرب شبهاً بالزهري من يحيى بن سعيد ، ولولاهما لذهب كثير من السنن ولي القضاء بالمدينة في زمن بني أمية ، توفي بالهاشمية عام ١٤٣ هـ [راجع تهذيب التهذيب ١١ : ٢٢١ وتاريخ بغداد ١٤ : ١٠١ والنجوم الزاهرة ١ : ٣٥١ وتاريخ القضاء في الإسلام ١٧] .

وقال ابن جرير : حدثني أحمد بن عبدة الضبي ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عبيد الله بن عمر ، قال : لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير منهم سالم بن عبد الله ، والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب ونافع .

وقال أبو عبيد : حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن هشام بن عروة قال : ما سمعت أبي تأول آية من كتاب الله قط [1] .

وقال أيوب وابن عون وهشام الدستوائي عن محمد بن سيرين قال : سألت عبيدة السلماني عن آية من القرآن فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل من القرآن ، فاتق الله وعليك بالسراد .

وقال أبو عبيد : حدثنا معاذ عن ابن عون عن عبيد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال : إذا حدثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده ، حدثنا هشيم عن مغيرة عن ابراهيم قال : كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه .

وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السفر ، قال : قال الشعبي : والله ما من آية إلا وقد سألت عنها : ولكنها الرواية عن الله .

وقال أبو عبيد : حدثنا هشيم ، أنبأنا عمر بن أبي زائدة عن الشعبي عن مسروق قال : اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله .

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به ، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه .

---

(١) راجع هذه الآثار وكثير غيرها في تفسير محمد بن جرير الطبري تحت عنوان « ذكر بعض الأخبار التي رويت بالنهي عن القول في تأويل القرآن بالرأي » . ١ : ٧٧ - ٧٩ .

ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه وهذا هو الواجب على كل أحد ، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه ، لقوله تعالى ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [1] ولما جاء في الحديث المروي من طرق .

من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار [2] .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان عن أبي الزناد قال : قال ابن عباس : التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها .

وتفسير لا يعذر أحد بجهالته .

وتفسير يعلمه العلماء .

وتفسير لا يعلمه إلا الله

والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٨٧ .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه في المقدمة ٢٤ باب من سئل عن علم فكتمه ٢٦٤ - حدثنا أحمد ابن الأزهر، ثنا الهيثم بن جميل حدثني عمرو بن سليم ، ثنا يوسف بن ابراهيم ، قال : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : وذكره .

في الزوائد : اسناد حديث أنس فيه يوسف بن ابراهيم قال البخاري : هو صاحب عجائب ، وقال ابن حبان : روي عن أنس من حديثه ما لا يخل بالرواية ا .هـ واتفقوا على ضعفه وعند الامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٩٦ ، ٤٩٩ ، ٥٠٨ وأخرجه الترمذي ٣ باب ما جاء في كتمان العلم ٢٦٤٩ - حدثنا أحمد بن بديل بن قريش اليامي الكوفي ، حدثنا عبد الله بن نمير عن عمارة بن زاذان عن علي بن الحكم عن عطاء عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

قال الترمذي : حديث أبي هريرة حديث حسن .

فصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بكتابه الذي هو الهدى [1] والشفاء والنور ، وجعله أحسن [2] الحديث وأحسن القصص [3] ، وجعله الصراط المستقيم لأهل العقل والتدبر ، ولأهل التلاوة والذكر ولأهل الاستماع والحال .

فالمعتصمون به علماً وحالاً وتلاوة وسمعاً باطناً وظاهراً هم المسلمون حقاً ، خاصة أمة محمد ﷺ ثم لما انحرف من انحرف من أهل الكلام والحروف إلى كلام غيره ومن أهل السماع والصوت إلى سماع غيره كان الانحراف في أربع طوائف متجانسة .

قوم تركوا التعلم منه والنظر [4] فيه والتدبر له إلى كلام غيره من كلام

---

(١) قال تعالى : ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ سورة البقرة آية رقم ١ ، ٢ .

(٢) قال تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ﴾ سورة الزمر آية رقم ٢٣ .

(٣) قال تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ سورة يوسف آية رقم ٣ .

(٤) سقط من (ب) جملة (والنظر فيه) .

الصابئة [١] أو اليهود ، أو ما هو مولد من ذلك أو مجانس له ، أو نحو ذلك ، وهم منحرفة المتكلمة وبازائهم قوم أقاموا حروفه وحفظوه وتلوه من غير فقه فيه ، ولا فهم لمعانيه ، ولا معرفة للمقالات [٢] التي توافقه أو تخالفه ، ووجه بيانه لمسائلها ودلائلها وهم ظاهرية القراء والمحدثين ونحوهم [٣] ، وهذان الصنفان نظير متفقه لا يعرف الحديث أو صاحب حديث لا يتفقه فيه وكذلك متكلم لا يتدبر القرآن أو قارىء لا يعرف من القرآن أنواع الكلام الحق والباطل ، فهاتان فرقتان علميتان و« الثالثة » قوم تركوا استماع القلوب له والتنعم به ، وتحرك القلب عن محركاته وذوق حلاوته ووجود طعمه الى سماع أصوات تغيره من شعر أو ملاهي [٤] ، من أصوات الصابئة أو النصارى ، أو ما هو مولد عن ذلك ومجانس [٥] له ، أو نحو ذلك وهم منحرفة المتصوفة والمتفقرة .

وبازائهم قوم يصوتون به ويسمعون قراءته من غير تحرك عنه ، ولا وجد فيه ، ولا ذوق لحقائقه ومعانيه [٦] وهم ظاهرية العباد والمتطوعة والمتقرئة .

فهذان الصنفان صاحب حال تحرك الأصوات [٧] حاله وليست تلك الحركة والحال عن الصوت بالقرآن ، وصاحب مقال يميز بين الأقوال وينظر فيها [٨] ، وليس ذلك النظر والمقال عن القرآن ، وبازائهما صاحب عبادة

---

(١) سبق الكلام عن هذه الفرقة وراجع ما كتبه الشهرستاني في كتابه الملل والنحل عن هذه الجماعة .

(٢) في (ب) التأويلات بدلاً من (المقالات) .

(٣) في (ب) ومن على شاكلتهم بدلاً من (ونحوهم) .

(٤) في (ب) نحوه بدلاً من (ملاهي) .

(٥) في (ب) موافق بدلاً من (مجانس) .

(٦) سقط من (ب) لفظ : ومعانيه .

(٧) في (ب) تحركه الأصوات بدلاً من (تحرك الأصوات حاله) .

(٨) في (ب) يدقق بدلاً من (وينظر) .

ظاهرة معه استماع ظاهر القرآن وتلاوته .

وصاحب علم ظاهر معه حفظ حروف القرآن أو تفسير حروفه من غريبه وإعرابه [1] ، وأسباب نزوله ونحو ذلك فهذه الأقسام الأربعة الذين وقفوا مع ظاهر العلم والعمل المشروعين ، والذين خاضوا في باطن العلم والعمل ، لكن غير المشروعين جاء التفريط والاعتداء منهم .

ولهذا وقع بينهم التعادي [2] ، فالأولون يرمون الآخرين بالبدعة والضلالة ، وقد صدقوا .

والآخرون ينسبون الأولين الى الجهالة والعجز [3] ، وقد صدقوا .

ثم قد يكون مع بعض الأولين كثير من العلم والعمل [4] المشروع كما قد يكون مع بعض الآخرين كثير من العلم الباطن والحال الكامن ، كما قد روى الحسن البصري [5] في مراسيله عن النبي ﷺ أنه قال : العلم علمان : علم في القلب ، وعلم في اللسان .

فعلم القلب هو العلم النافع ، وعلم اللسان حجة الله على عباده ، وقال يحيى بن سعيد التيمي أبو حيان فيما رواه الخلال [6] في جامعه عن الثوري : العلماء ثلاثة :

---

(١) سقط من (ب) لفظ (وإعرابه) .

(٢) في (ب) وقعت بينهم (العداوة) .

(٣) في (ب) وعدم الفهم بدلاً من (والعجز)

(٤) سقط من (ب) (والعمل) .

(٥) هو أحمد بن محمد بن هارون ، أبو بكر الخلال : مفسر عالم بالحديث واللغة من كبار الحنابلة ، من أهل بغداد ، كانت حلقته بجامع المهدي . قال ابن أبي يعلى : له التفاسير الدائرة ، والكتب السائرة وقال الذهبي : جامع علم أحمد ومرتبه من كتبه « تفسير الغريب » وطبقات اصحاب ابن حنبل وغير ذلك كثير . توفي عام ٣١١ هـ [راجع طبقات الحنابلة ٢ : ١٢ والبداية والنهاية ١١ : ١٤٨ وتذكرة الحفاظ ٣ : ٧]

فعالم بالله ليس عالماً بأمر الله .
وعالم بأمر الله ليس عالما بالله .
وعالم بالله ، وبأمر الله .

قال شيخ الإسلام
قدس الله روحه
فصل

وأما سؤاله [١] عن إجراء القرآن على ظاهره فإنه إذا آمن بما وصف الله به [٢] نفسه ، ووصفه به رسوله من غير تحريف [٣] ولا تكييف فقد اتبع سبيل المؤمنين .

ولفظ الظاهر في عرف المتأخرين قد صار فيه اشتراك فإن أراد بإجرائه على الظاهر الذي هو من خصائص المخلوقين حتى يشبه الله بخلقه فهذا ضال بل يجب القطع بأن الله ليس كمثله شيء [٤] ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، فقد قال ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ، يعني أن موعود الله في الجنة من الذهب والحرير والخمر واللبن تخالف حقائقه حقائق [٥] هذه الأمور الموجودة في الدنيا ، فالله تعالى أبعد عن مشابهة مخلوقاته بما لا يدركه العباد ، ليست حقيقته كحقيقة شيء منها .

---

(١) في (ب) بزيادة لفظ (السائل) .

(٢) في (ب) بزيادة (سبحانه وتعالى) .

(٣) كما قال الإمام مالك - رضي الله عنه (الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة) .

(٤) راجع ما كتبه الإمام الشوكاني عند تفسيره لقول الله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ .

(٥) سقط من (ب) لفظ (حقائق) .

وأما إن أراد بإجرائه على الظاهر الذي هو الظاهر في عرف سلف الأمة ، لا يحرف الكلم عن [١] مواضعه ، ولا يلحد في أسماء الله تعالى ، ولا يقرأ القرآن والحديث بما يخالف تفسير سلف الأمة وأهل السنة ، بل يجري ذلك على ما اقتضته النصوص ، وتطابق عليه دلائل الكتاب والسنة ، وأجمع عليه سلف الأمة ، فهذا مصيب في ذلك وهو الحق .

وهذه جملة لا يسع هذا الموضع تفصيلها ، والله أعلم وسئل رحمه الله :

عن قوله ﷺ « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » [٢] .

فاختلاف المفسرين في آية واحدة إن كان بالرأي فكيف النجاة ؟ وإن لم يكن بالرأي فكيف وقع الاختلاف ؟ والحق لا يكون في طرفي نقيض أفتونا . . ؟

فأجاب رحمه الله تعالى :

ينبغي أن يعلم [٣] أن الاختلاف الواقع من المفسرين وغيرهم على وجهين :

« أحدهما » ليس في تضاد وتناقض ، بل يمكن أن يكون كل منهما حقا ، وإنما هو اختلاف تنوع أو اختلاف في الصفات أو العبادات [٤] .

---

(١) كما فعل اليهود وأتباع المسيح عليه السلام . حيث حرفوا كتب الله تعالى فأظهر الله تعالى كفرهم بقوله : أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » البقرة آية رقم ٧٥ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء وراجع ما أخرجه الامام الترمذي في هذا الموضوع .

(٣) في (ب) بزيادة (السائل وغيره) .

(٤) في (ب) وغيرها بدلاً من (العبادات) .

وعامة [1] الاختلاف الثابت عن مفسري السلف من الصحابة والتابعين هو من هذا الباب ، فإن الله سبحانه إذا ذكر في القرآن اسماً مثل قوله ﴿ **اهْدِنَا الصِّراطَ المُسْتَقِيْمَ** ﴾ بعبارة يدل بها على بعض صفاته ، وكل ذلك [2] حق بمنزلة ما يسمى الله ورسوله وكتابه بأسماء كل اسم منها يدل على صفة من صفاته فيقول بعضهم :

الصراط المستقيم : كتاب الله ، أو اتباع كتاب الله ويقول الآخر : الصراط المستقيم هو الإسلام ، أو دين الاسلام ويقول الآخر : الصراط المستقيم هو السنة والجماعة . ويقول الآخر : الصراط المستقيم طريق العبودية ، أو طريق الخوف والرجاء والحب وامتثال [3] المأمور واجتناب المحظور أو متابعة الكتاب والسنة ، أو العمل بطاعة [4] الله أو نحو هذه الأسماء والعبارات .

ومعلوم أن المسمى واحد وإن تنوعت صفاته وتعددت أسماؤه وعباراته [5] ، كما إذا قيل : محمد هو أحمد وهو الحاشر ، وهو الماحي ، وهو العاقب ، وهو خاتم المرسلين [6] ، وهو نبي الرحمة ، وهو نبي الملحمة . وكذلك إذا قيل : القرآن هو الفرقان والنور والشفاءوالذكر الحكيم والكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت . وكذلك أسماء الله الحسنى ﴿ **هو الأولُ والآخِرُ والظَاهِرُ والباطِنُ وَهُوَ بِكُل شَيءٍ عَلِيْمٌ** ﴾ [7] وهو ﴿ **الَّذي خَلَقَ**

---

(١) في (ب) وأكثر بدلاً من (وعامة) .
(٢) سقط من (ب) « وكل ذلك حق » .
(٣) في (ب) الأمور بدلاً من (المأمور) .
(٤) في (ب) بما أمر بدلاً من (بطاعة) .
(٥) في (ب) وصفاته بدلاً من (وعباراته) .
(٦) سقط من (ب) جملة (وهو خاتم المرسلين) .
(٧) سورة الحديد آية رقم ٣ .

فَسَوَّى ، والَّذي قَدَّرَ فَهَدَى والذي أَخْرَجَ المَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى ﴾ (١) ﴿ هُوَ الله الَّذي لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهادةِ هُوَ الرَّحمٰنُ الرَّحِيْمُ . هُوَ الله الَّذِي لاَ إلَهَ إلا هو المَلِكُ القُدُّوْسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيْزُ الجبَّارُ المُتَكَبِّرُ هُو الله الخَالِقُ البَارِىء المُصوِّرُ ﴾ (٢) وأمثال ذلك .

فهو سبحانه واحد صمد ، وأسماؤه الحسنى تدل كلها على ذاته ، ويدل هذا من صفاته على ما لا يدل عليه الآخر فهي متفقة في الدلالة على الذات ، متنوعة في الدلالة على الصفات ، فالاسم يدل على الذات ، والصفة المعينة بالمطابقة ، ويدل على أحدهما بطريق التضمن ، وكل اسم يدل على الصفة التي دل عليها بالالتزام ؛ لأنه يدل على الذات المتكنى به جميع الصفات فكثير من التفسير والترجمة تكون من هذا الوجه ومنه قسم آخر وهو أن يذكر المفسر والمترجم معنى اللفظ على سبيل التعيين والتمثيل ، لا على سبيل الحد (٣) والحصر مثل أن يقول قائل من العجم : ما معنى الخبز ؟ فيشار له إلى رغيف ، وليس المقصود مجرد عينه وإنما الإشارة إلى تعيين هذا الشخص .

وهذا كما إذا سئلوا عن قوله ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخَيْرَاتِ (٤) ﴾ أو عن قوله ﴿ إنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقوا والَّذِيْنَ هُمْ

---

(١) سورة الأعلى آية رقم ٢ ـ ٥ .

(٢) سورة الحشر آية رقم ٢٢ ـ ٢٤ .

(٣) الحد في اللغة : المنع والفصل بين الشيئين ، ومنهى كل شيء حده والحد أيضاً تأديب المذنب ، وجمعه حدود ومنه أقمت عليه الحد وحدود الله تعالى الأشياء التي بين تحريمها وتحليلها .
والحد أيضاً النهاية التي ينتهي إليه تمام المعنى وما يوصل اليه التصور المطلوب ، وحد الشيء الوصف المحيط بمعناه المميز له من غيره .

(٤) سورة فاطر آية رقم ٣٢ .

مُحْسِنُـوْنَ ﴾ (١) أو عن ﴿ **الصَّـالِحِيْنَ** ﴾ أو ﴿ **الـظالمين** ﴾ ونحـو ذلـك من الأسماء العامة الجامعة التي قد يتعسر أو يتعذر على المستمع أو المتكلم ضبط مجمـوع معنـاه (٢) ، إذ لا يكـون محتـاجـاً إلى ذلـك فيـذكـر لـه من أنـواعـه وأشخاصه ما يحصل (٣) به غرضه وقد يستدل على نظائره .

فإن الظالم لنفسه هو تارك المأمور فاعل المحظور (٤) و« المقتصـد » هو فاعل الواجب وتارك المحرم و« السابق » هو فاعـل الواجب والمستحب وتـارك المحـرم والمكروه فيقـول المجيب بحسب حاجـة السائـل الـ « ظـالم » الـذي يفوت الصلاة والذي لا يسبغ الوضوء ، أو الذي لا يتم (٥) الأركان ونحـو ذلك والـ ﴿ **مقتصد** ﴾ الذي يصلي في الوقت كما أمـر ، والـ﴿ **سابق بـالخيرات** ﴾ الذي يصلي الصلاة بواجباتها ومستحباتها ، ويأتي بـالنوافـل المستحبة معهـا ، وكذلك يقول مثل هذا في الزكاة والصوم والحج وسائر الواجبات .

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قـال : التفسير على أربعـة أوجه (٦) :

تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالتـه ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسيـر لا يعلمه إلا الله ، فمن ادعى علمـه (٧) فهو كـاذب . والصحابة أخذوا عن الرسول لفظ القرآن ومعناه : كما أخذوا عنه السنـة ، وإن

---

(١) سورةالنحل آية رقم ١٢٨ .
(٢) في (ب) ضبط مجموعه بدلاً من (مجموع معناه) .
(٣) في (ب) ما يتم بدلاً من (ما يحصل به) .
(٤) في (ب) ما أمر به وفاعل ما خطر عليه .
(٥) في (ب) لا يقيم بدلاً من (لا يتم) .
(٦) في (ب) أنواع بدلاً من (أوجه) .
(٧) في (ب) علم هذا بدلاً من (ادعى علمه) .

كان من الناس من غيّر [1] السنة فمن الناس من غيّر بعض معـاني القرآن إذ لم يتمكن من تغيير لفظه .

و « أيضا » فقد يخفى على بعض العلماء بعض معاني القـرآن كما خفي عليه بعض السنة ، فيقع خطأ [2] المجتهدين من هذا الباب ، والله أعلم .

أقرب التفاسير الى الكتاب والسنة

سئل شيخ الاسلام

عن جنـدي نسخ بيـده صحيح مسلم والبخـاري والقرآن وهـو ناو كتـابة الحديث والقرآن العظيم ، وإن سمع بورق أو أقلام اشترى بألف درهم .

وقـال : أنا إن شـاء الله أكتب في جميع هـذا الورق أحـاديث الـرسـول والقرآن ، ويؤمل آمالاً بعيدة فهل يأثم أو لا ؟

وأي التفـاسيـر أقـرب إلى الكتـاب والسنـة ؟ الـزمخشـري [3] أم القرطبي [4] ، أم البغوي [5] ، أو غير هؤلاء فأجاب :

الحمد لله ، ليس عليه إثم فيمـا ينويـه ويفعله من كتابـة العلوم الشرعيـة ، فإن كتابة القرآن والأحاديث الصحيحة والتفاسير الموجودة الثابتة من أعظم القربات والطاعات وأمـا « التفاسيـر » التي في أيدي النـاس فأصحهـا تفسير محمـد بن

---

(١) في (ب) بدل بدلاً من (غيّر) .

(٢) وهذا لا يقدح فيه لقول الرسول ـ ﷺ ـ من اجتهد فأخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران » .

(٣) يسمى الكشـاف عن حقائق غـوامض التنزيـل ، وعيون الأقـاويل في وجـوه التأويـل . ويسمى محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨ هـ .

(٤) يسمى الجـامع لأحكـام القرآن لأبي عبـد الله محمـد بن أحمـد الأنصـاري القـرطبي . قـامت بطبعه، وزارة الثقافة المصرية عن نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب .

(٥) تفسير البغوي ويسمى (معالم التنزيل) .

جرير الطبري [1] فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ، ولا ينقل عن المتهمين ، كمقاتل بن بكير والكلبي ، والتفاسير غير المأثورة بالأسانيد كثيرة ، كتفسير عبد الرزاق وعبد بن حميد ، ووكيع وابن أبي قتيبة ، وأحمد بن حنبل . واسحاق بن راهويه .

وأما التفاسير الثلاثة المسؤول عنها فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة « البغوي » [2] لكنه مختصر من « تفسير الثعلبي » [3] وحذف منه الأحاديث الموضوعة ، والبدع التي فيه ، وحذف أشياء غير ذلك .

وأما الواحدي فإنه تلميذ الثعلبي ، وهو أخبر منه بالعربية لكن الثعلبي فيه سلامة من البدع وإن ذكرها تقليدا لغيره وتفسيره ، وتفسير الواحدي البسيط والوسيط والوجيز فيها فوائد جليلة ، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها .

وأما الزمخشري فتفسيره محشو بالبدعة ، وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفات والرؤية والقول بخلق القرآن ، وأنكر أن الله مريد للكائنات ،

---

(1) سبق الترجمة له في كلمة وافية وراجع : مفتاح السعادة ٢ : ٣١٥ وتاريخ بغداد ٢ : ١٦٢ ـ ١٦٩ ، وفيات الأعيان ١ : ٥٧٧ ـ ٥٧٨ المنتظم لابن الجوزي ٦ : ١٧٠ ـ ١٧٦ ، البداية والنهاية لابن كثير ٢ : ١٠٦ ـ ١٠٨ ، تذكرة الحفاظ للذهبي ٢ : ٢٥١ـ ٢٥٥ .

(2) هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوي الفقيه الشافعي ، والمحدث والمفسر المشهور بالفراء توفي سنة ٥١٦ هـ وهو من أقرب المفسرين وأجودهم رواية من السلف . تأثر بالثعلبي في تفسيره ، ونقل عنه بعد أن حذف منه الأحاديث الموضوعة ، ويعتبر البغوي من أئمة أهل السنة في زمانه [راجع الوفيات ١ : ٤٠٢ ، وطبقات الشافعية ٤ : ٢١٤ ـ ٢١٧ وتذكرة الحفاظ ٤ : ٢٥٧ ، والأعلام ٢ : ٢٨٤] .

(3) هو أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابوري صاحب التفسير ، كان إماماً في اللغة والتفسير . روى عن أبي طاهر بن خزيمة ، وأخذ عنه الواحدي توفي سنة ٤٢٧ هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٦ ، وانباء الرواة ١ : ١١٩ والبداية والنهاية ١٣ : ٤٠ ومعجم الأدباء ٥ : ٣٦ ، وطبقات المفسرين ٥ ، ومرآة الجنان ٣ : ٤٦ وشذرات الذهب ٣ : ١٣٠ ، واللباب ١ : ١٩٤ ومفتاح السعادة ٢ : ٦٧] .

وخالق لأفعال العباد ، وغير ذلك من أصول المعتزلة و« أصولهم خمسة » يسمونها: التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين ، وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

لكن معنى « التوحيد » عندهم يتضمن نفي الصفات ، ولهذا سمي ابن التومرت [1] أصحابه الموحدين ، وهذا إنما هو إلحاد في أسماء الله وآياته .

ومعنى « العدل » عندهم يتضمن التكذيب بالقدر وهو خلق أفعال العباد ، وإرادة الكائنات والقدرة على شيء ، ومنهم من ينكر تقدم العلم والكتاب لكن هذا قول أئمتهم ، وهؤلاء منصب الزمخشري فإن مذهبه مذهب المغيرة بن علي وأبي هاشم وأتباعهم ومذهب أبي الحسين والمعتزلة الذين على طريقته نوعان : مسايخية وخشبية .

وأما « المنزلة بين المنزلتين » فهي عندهم أن الفاسق لا يسمى مؤمناً بوجه من الوجوه ، كما لا يسمى كافراً فنزلوه بين منزلتين .

و« إنفاذ الوعيد » عندهم معناه أن فساق الملة مخلدون في النار لا يخرجون منها بشفاعة ولا غير ذلك كما تقوله الخوارج .

و« الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » يتضمن عندهم جواز الخروج على الأئمة ، وقتالهم بالسيف ، وهذه الأصول حشا بها كتابه بعبارة لا يهتدي أكثر الناس إليها ، ولا لمقاصده فيها مع ما فيه من الأحاديث الموضوعة ، ومن

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي البربري ، أبو عبد الله المتلقب بالمهدي ، صاحب دعوة السلطان عبد المؤمن بن علي ملك المغرب وواضع أسس الدولة المؤمنية الكومية، وهو من قبيلة « هرغة » من المصامدة من قبائل جبل السوس بالمغرب الأقصى ولد عام ٤٨٥ هـ ورحل الى المشرق طالباً للعلم ـ حج وأقام بمكة وخرج منها الى مصر فطرد منها مات عام ٥٢٤ هـ . [راجع وفيات الأعيان ٢ : ٣٧ وابن خلدون ٦: ٢٢٥ وجذوه الاقتباس ١٢٨] .

قلة النقل عن الصحابة والتابعين وتفسير القرطبي [1] خير منه بكثير .

وأقرب الى طريقة الكتاب والسنة ، وأبعد عن البدع وإن كان كل من هذه الكتب لا بد أن يشتمل على ما ينقد لكن يجب العدل بينها ، وإعطاء كل ذي حق حقه و« تفسير ابن عطية » [2] خير من تفسير الزمخشري وأصح نقلاً وبحثاً ، وأبعد عن البدع ،وإن اشتمل على بعضها بل هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير لكن تفسير ابن جرير أصح من هذه كلها .

وثم تفاسير أخر كثيرة جداً كتفسير ابن الجوزي [3] والماوردي [4] .

---

(١) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ، أبو عبد الله القرطبي : من كبار المفسرين . صالح متعبد من أهل قرطبة . رحل الى الشرق واستقر بمنبة ابن خصيب (في شمالي أسيوط) وتوفي بها عام ٦٧١ من كتبه « الجامع لأحكام القرآن » « وقمع الحرص بالزهد والقناعة والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » والتذكار في أفضل الأذكار والتذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة » وكان ورعاً متعبداً يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية . [راجع نفح الطيب ١ : ٤٢٨ والديباج ٣١٧] .

(٢) هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي من محارب قيس الغرناطي أبو محمد مفسر ، فقيه ، أندلسي، من أهل غرناطة عارف بالأحكام والحديث ، له شعر ، وولي قضاء المرية ، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملثمين ، وتوفي بلورقه عام ٥٤٢ هـ له « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز في عشر مجلدات ، وبرنامج في ذكر مروياته وأسماء شيوخه ، وقيل في تاريخ وفاته سنة ٥٤١ و٥٤٦ هـ [راجع نفح الطيب ١ : ٥٨٥ ، وقضاء الأندلس ١٠٩ وبغية الملتمس ٣٧٦ والمعجم لابن الأباء ٢٥٩ وكشف الظنون ٤٣٩ و١٦١٣ وبغية الوعاه ، ٢٩٥]

(٣) هو عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (أبو الفرج) الامام المحدث والفقيه والمتكلم والمفسر توفي سنة ٥٩٧ هـ اشتهر بالوعظ وسلاسة الأسلوب ، من أهم كتبه « زاد المسير في علم التفسير ، وتيسير البيان في علم القرآن ، والمغني في التفسير . قال ابن رجب : إن هذا الكتاب أحد وثمانون جزءاً . [راجع ترجمته في وفيات الأعيان ٢ : ٣٢١ - ٣٢٢ ، وتاريخ ابن الوردي ٢ : ١٨٨ ، الذيل على طبقات الحنابلة ١ : ٣٩٩ - ٤٣٣ والكامل لابن الأثير ١ : ٢٢٨ - ١٢ : ٦٧ ، والاعلام ٤ : ٨٩ - ٩٠ ودرة تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٢٧٠ هامش ٦ .]

(٤) هو علي بن محمد بن حبيب الفقيه الشافعي المعروف بالماوردي ، درس بالبصرة ، وبغداد =

أنزل القرآن على سبعة أحرف

وسئل عن :

قول النبي ﷺ : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » .

ما المراد بهذه السبعة ؟

وهل هذه القراءات المنسوبة إلى نافع [1] وعاصم [2] وغيرهما هي الأحرف السبعة ، أو واحد منها ؟ .

= سنين كثيرة ، وتولى منصب القضاء مرات عديدة ، وقيل انه لم يظهر تصانيفه في حياته إلا « الحاوي » فقد قرىء عليه كما قال ابن السبكي ، له مؤلفات كثيرة من أهمها « الحاوي » والاقناع ، وأدب الدنيا والدين ، ودلائل النبوة ، والأحكام السلطانية ، وقانون الوزارة وسياسة الملك ، توفي سنة ٤٥٠ هـ [راجع تاريخ بغداد ١٢ : ١٠٢ - ١٠٣ وفيات الأعيان ١ : ٤١٠ - ٤١١ ، ومعجم الأدباء ١٥ : ٥٢ - ٥٥ ، طبقات الشافعية ٣ : ٣٠٣ - ٣١٤ ، المنتظم لابن الجوزي ٨ : ١٩٩ - ٢٠٠ ، ومفتاح السعادة ٢ : ٣٣١] .

(١) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم أبو رويم مولى جعونة بن شعوب الليثي حليف حمزة بن عبد المطلب أحد القراء السبعة المشهورين إمام أهل المدينة وعالمها في القراءة رجع الى قراءته واختياره وقرأ عليه مالك بن أنس وكان عارفاً بوجوه القراءات وهو من الطبقة الثالثة بعد الصحابة رضوان الله عليهم قرأ القرآن على ابن قعقاع والزهري والأعرج ، قال ابن اسحاق : لما حضرت نافع الوفاة قال له أولاده : أوصنا ، قال : فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم - توفي سنة ١٦٩ هـ أو سنة ١٧٠ وقيل غير ذلك . [انظر : غاية النهاية لابن الجوزي ٢ / ٣٣٠ - ٣٣٤ مفتاح السعادة ٢ : ٢١] .

(٢) هو عاصم بن بهدلة بن النجود « فتح النون وضم الجيم » أبو بكر الأسدي شيخ القراء بالكوفة ، وأحد القراء السبعة ، وبهدلة اسم أمه ، جمع بين الفصاحة والاتقان والتحرير والتجويد ، كان من أحسن أهل الكوفة صوتاً بالقرآن ، وهو من التابعين وروى عن رفاعة والحارث بن حسان ، أخذ القراءة عن أبي عبد الرحمن السلمي ، كان أحب القراءة إليه قراءة أهل المدينة . [راجع : غاية النهاية لابن الجزري ١ : ٣٤٦ - ٣٤٩ مفتاح السعادة ٢ : ٣٧] .

وما السبب الذي أوجب الاختلاف بين القراء فيما احتمله خط المصحف ؟ .

وهل تجوز القراءة برواية الأعمش وابن محيصن وغيرهما من القراءات الشاذة أم لا ؟ .

وإذا جازت القراءة بها فهل تجوز الصلاة بها أم لا ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين .

هذه مسألة كبيرة ، وقد تكلم فيها أصناف العلماء من الفقهاء والقراء ، وأهل الحديث والتفسير والكلام وشرح الغريب وغيرهم حتى صنف فيها التصنيف المفرد ومن آخر ما أفرد في ذلك ما صنفه الشيخ أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعي المعروف بابن أبي شامة [1] . صاحب « شرح الشاطبية » [2] فأما ذكر أقاويل الناس وأدلتهم وتقرير الحق فيها مبسوطاً فيحتاج من ذكر الأحاديث الواردة في ذلك وذكر ألفاظها وسائر الأدلة

---

(١) هو عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي أبو شامة مؤرخ محدث باحث ، أصله من القدس ، ومولده عام ٦٦٥ هـ في دمشق ، وبها منشؤه ووفاته ، ولي بها مشيخة دار الحديث الأشرفي ، ودخل عليه اثنان في صورة مستفتيين فضرباه فمرض ومات عام سنة ٦٦٥ هـ ، من كتبه : تراجم رجال القرنين السادس والسابع . وله إبراز المعاني في شرح الشاطبية وغير ذلك - راجع بغية الدعاة ٢٩٧ - غاية النهاية ١ : ٣٦٥] .

(٢) نسبة إلى الامام الشاطبي وهو القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الشاطبي الضرير أحد أعلام القراءات المشهورين ، ولد سنة ٥٨٣ هـ بشاطبية « قرية بجزيرة الأندلس ، قرأ واتقن القراءات على المنقرى ثم رحل الى بلنسية فعرض بها التيسير على أبي هذيل ، وأخذ عنه كتاب سيبويه ، ثم رحل للحج فسمع من أبي طاهر السلفي بالاسكندرية وأقام بمصر فترة ، وأكرمه القاضي الفاضل وعَرف له قدره توفي سنة ٥٩٠ هـ بالقاهرة ودفن بها [راجع وفيات الأعيان ١ / ٥٣٤ ، طبقات الشافعية ٤ : ٢٩٧ ، البداية والنهاية ١٣ : ١٠ حسن المحاضرة للسيوطي ١ : ٢٨٤ مفتاح السعادة ٢ : ٤٩] .

الى ما لا يتسع له هذا المكان ، ولا يليق بمثل هذا الجواب ، ولكن نذكر النكت الجامعة التي تنبه على المقصود بالجواب . فنقول : لا نزاع بين العلماء المعتبرين أن الأحرف السبعة التي ذكر أن النبي ﷺ [قال] إن القرآن أنزل عليها ليست هي قراءات القراء السبعة المشهورة بل أول من جمع قراءات هؤلاء هو الإمام أبو بكر بن مجاهد (١) وكان على رأس المائة الثالثة ببغداد فإنه أحب أن يجمع المشهور من قراءات الحرمين والعراقين والشام ، إذ هذه الأمصار الخمسة هي التي خرج منها علم النبوة من القرآن وتفسيره ، والحديث والفقه ، من الأعمال الباطنة والظاهرة وسائر العلوم الدينية . فلما أراد ذلك جمع قراءات سبعة مشاهير من أئمة قراء هذه الأمصار ليكون ذلك موافقا لعدد الحروف التي أنزل عليها القرآن ، لا لاعتقاده أو اعتقاد غيره من العلماء أن القراءات السبعة هي الحروف السبعة ، أو أن هؤلاء السبعة المعينين هم الذين لا يجوز أن يقرأ بغير قراءتهم .

ولهذا قال من قال من أئمة القراء : لولا أن ابن مجاهد سبقني إلى حمزة(٢) لجعلت مكانه يعقوب الحضرمي (٣) إمام جامع البصرة، وإمام قراء البصرة في زمانه في رأس المائتين .

---

(١) هو أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد التميمي الحافظ البغدادي شيخ القراء في عصره أول من سبع السبعة قرأ على ابن عبدوس وأخذ عنه كما قرأ على قنبر المكي ولد سنة ٢٤٥ هـ وتوفي سنة ٣٢٤ [راجع طبقات القراء ١ : ١٣٩] .

(٢) هو حمزة بن حبيب بن عمار بن اسماعيل الزيات التيمي أحد القراء السبعة المشهورين ، كان من موالي تيم فنسب إليهم ، وكان يحضر الزيت من الكوفة إلى حلوان ، ولد سنة ٨٠ هـ ، ومات بحلوان مما يلي بلاد الجبل بالعراق سنة ١٥٦ هـ ، انعقد الإجماع على تلقي قراءته بالقبول ، قال الثوري : ما قرأ حمزة حرفاً من كتاب الله إلا بأثر : [انظر غاية النهاية في طبقات القراء للجذري ١ : ٢٦١ والفهرست ٤٤ ، مفتاح السعادة ٢ / ٣٩] .

(٣) هو يعقوب بن اسحاق بن زيد الحضرمي البصري ، أبو محمد ، أحد القراء العشرة، مولده ووفاته بالبصرة عام ١١٧ ـ ٢٠٥ هـ كان إمامها ومقرئها ، وهو من بيت علم بالعربية والأدب، =

ولا نزاع بين المسلمين أن الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها لا تتضمن تناقض المعنى وتضاده بل قد يكون معناها متفقاً أو متقارباً كما قال عبد الله بن مسعود [1] إنما هو كقول أحدكم : أقبل وهلم وتعال وقد يكون معنى أحدهما ليس هو معنى الآخر ، لكن كلا المعنيين حق ، وهذا اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض ، وهذا كما جاء في الحديث المرفوع عن النبي ﷺ في هذا حديث : «أنزل القرآن على سبعة أحرف ، إن قلت : غفوراً رحيماً ، أو قلت : عزيزاً حكيماً ، فالله كذلك . ما لم تختم آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة » [2] وهذا كما في القراءات المشهورة

= له في القراءات رواية مشهورة وله كتب منها « الجامع » قال الزبيدي : جمع فيه عامة إختلاف وجوه القرآن ، ونسب كل حرف إلى من قرأه ، ومن كتبه «وجوه القراءات» و« وقف التمام » . [راجع إرشاد الأريب ٧ : ٣٢٠ وطبقات النحويين للزبيدي ٥١ ، وغاية النهاية ٢ : ٣٨٦ والنجوم الزاهرة ٢ : ١٧٩]

(١) هو : عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي : توفي عام ٣٢ هـ [راجع الاصابة ت ٤٩٥٥ ، وغاية النهاية ١ : ٤٥٨ والبدء والتاريخ ٥ : ٩٧ ، وصفة الصفوة ١ : ١٥٤ ، وحلية الأولياء ١ : ١٣٤ وفيه بعض خطبه ، وتاريخ الخميس ٢ : ٢٥٧ والبيان والتبيين ٢ : ٥٦] .

(٢) ورد الحديث في البخاري بروايات مختلفة ، ونصه كما في رواية عروة بن الزبير عن عمر بن الخطاب أنه قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله - ﷺ - فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرأنيها رسول الله - ﷺ - فكدت أساوره في الصلاة فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ . . ؟
قال أقرأنيها رسول الله - ﷺ - فقلت : كذبت : فإن رسول الله - ﷺ - أقرأنيها على غير ما قرأت . يقول عمر : فانطلقت به أقوده الى رسول الله - ﷺ - فقلت : اني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها . فقال رسول الله ﷺ - أرسله . اقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ . فقال رسول الله - ﷺ - كذلك أنزلت : ثم قال : اقرأ يا عمر ، فقرأت القراءة التي أقرأني . فقال رسول الله - ﷺ - كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه » .
البخاري كتاب فضائل القرآن باب أنزل القرآن على سبعة أحرف ٦ : ٢٢٧ - ٢٢٨ وكتاب التوحيد ، بدء الخلق. كما أخرجه أبو داود في كتاب الوتر ، والترمذي في كتاب القرآن ، =

ربنا باعِد وباعَدَ ، « إلا أن يَخافا ألا يقيما ، وإلا أن يُخافا الا يقيما » .

﴿ وَإنْ كَـانَ مَكْرُهُم لِتـزُوْلَ ﴾ وليزول منـه الجبال ، و﴿ بَـلْ عَجبْتَ ﴾ و﴿ بَل عَجِبْتُ ﴾ ونحو ذلك .

ومن القراءات ما يكون المعنى فيها متفقاً من وجه متبايناً من وجه كقولـه ﴿ يَخْـدَعُـوْنَ ويُخَـادِعُـوْنَ ﴾ و﴿ يكـذبـون ويكـذِّبـون ﴾ و﴿ لَمسْتُم ﴾ و﴿ لامَسْتُم ﴾ و﴿ حتى يطهرن ﴾ و﴿ يطهر ن ﴾ ونحو ذلك فهذه القراءات التي يتغاير فيها المعنى كلها حق وكل قراءة منها مع القراءة الأخرى بمنزلة الآيـة مع الآية ، يجب الإيمان بها كلها ، واتباع ما تضمنته من المعنى علماً وعملا ، لا يجوز ترك موجب احداهما لأجل الأخرى ظناً أن ذلك تعارض ، بـل كما قـال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من كفر بحرف منه فقد كفر به كله .

وأمـا ما اتحـد لفظه ومعنـاه ، وإنما يتنـوع صفة النـطق بـه كـالهمـزات والمدات والإمالات ، ونقل الحركـات والإظهار والإدغـام والاختلاس وتـرقيق اللامات والراءات أو تغليظهـا ونحو ذلـك مما يسمى القراءات الأصول ، فهـذا أظهر وأبين في أنه ليس فيهم تناقض ولا تضاد مما تنوع فيه اللفظ أو المعنى ، إذ هذه الصفات المتنوعة في أداء اللفظ لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحـداً ، يعـد ذلك فيمـا اختلف لفـظه واتحـد معنـاه ، أو اختلف معنـاه من المتـرادف ونحوه .

ولهذا كان دخـول هذا في حـرف واحد من الحـروف السبعة التي أنـزل القـرآن عليهـا من أولى مـا يتنـوع فيـه اللفظ أو المـعنـى وإن وافق رسـم المصحف ، وهو ما يختلف فيه النقط أو الشكل .

ولذلك لم يتنازع علماء الإسلام المتبوعين من السلف والأئمة في أنه لا يتعين أن يقرأ بهذه القراءات المعينة في جميع أمصار المسلمين ، بل من ثبت

والنسائي في الافتتاح ، وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ١٦ (حلبي)

عنده قراءة الأعمش (١) شيخ حمزة أو قراءة يعقوب الحضرمي ، ونحوها ، كما ثبت عنده قراءة حمزة والكسائي (٢) ، فله أن يقرأ بها بلا نزاع بين العلماء المعتبرين المعدودين من أهل الإجماع والخلاف بل أكثر العلماء الأئمة الذين أدركوا قراءة حمزة كسفيان بن عيينة (٣) وأحمد بن حنبل ، وبشر بن الحارث وغيرهم يختارون قراءة أبي جعفر بن القعقاع وشيبة بن نصاح المدنيين وقراءة البصريين كشيوخ يعقوب بن اسحاق وغيرهم على قراءة حمزة والكسائي وللعلماء الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف عند العلماء ، ولهذا كان أئمة أهل العراق الذين ثبتت عندهم قراءات العشرة أو الأحد عشر كثبوت هذه السبعة يجمعون ذلك في الكتب ، ويقرأونه في الصلاة وخارج الصلاة ، وذلك متفق عليه بين العلماء لم ينكره أحد منهم .

وأما الذي ذكره القاضي عياض (٤) ومن نقل من كلامه من الإنكار على

---

(١) الأعمش هو أبو محمد سليمان بن مهران الأسدي المشهور بالأعمش تابعي مشهور ، أصله من بلاد الري ، ولد بالكوفة سنة ٦١ هـ ، كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض ، روى نحواً من ألف وثلثمائة حديث قال عنه الذهبي كان الأعمش رأساً في العلم النافع والعمل الصالح [راجع الطبقات الكبرى ٦ : ٢٣٨ ، تذكرة الحفاظ ١ : ٣٩٢] .

(٢) هو علي بن حمزة بن عبد اللاه بن فيروز الأسدي فارسي الأصل المعروف بالكسائي انتهت إليه رياسة الاقراء في عهده بالكوفة أخذ عنه حمزة ، روى عنه كثير من الأئمة كابن حنبل وغيره ، قال عنه الشافعي : من أراد أن يتبحر في العلم فهو عيال على الكسائي ، وقال يحيى ابن معين : ما رأيت بعيني هاتين أصدق لهجة من الكسائي [انظر غاية النهاية للجزري ١ : ٥٣٥ ـ ٥٤٠ الفهرست ص ٩٧ ـ ٩٨ ـ مفتاح السعادة ٢ : ٤١]

(٣) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي أبو محمد محدث الحرم المكي ، ولد بالكوفة عام ١٠٧ وتوفي عام ١٩٨ هـ وسبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٤) القاضي عياض ـ هو عالم المغرب أبو الفضل بن موسى ، ولد سنة ٤٧٦ هـ كان ثقة زاهداً ، ورعاً عابداً قوي العقيدة بعيداً عن البدع توفي سنة ٥٤٤ هـ وله ثمان وستون سنة ، ومن أهم مصنفاته (كتاب الشفافي التعريف بحقوق المصطفى) محدث عالم بالرواية ، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم ، تولى قضاء سبته ، ثم غرناطة وكانت وفاته بمراكش . [راجع =

ابن شنبوذ الذي كان يقرأ بالشواذ في الصلاة في أثناء المائة الرابعة ، وجرت له قصة مشهورة ، فإنما كان ذلك في القراءات الشاذة الخارجة عن المصحف كما سنبينه ولم ينكر أحد من العلماء قراءة العشرة ، ولكن من يكن عالماً بها أو لم تثبت عنده كمن يكون في بلد من بلاد الإسلام بالمغرب أو غيره ولم يتصل به بعض هذه القراءات فليس له أن يقرأ بما لا يعلمه ، فإن القراءة كما قال زيد بن ثابت سنة يأخذها الآخر عن الأول ، كما أن ما ثبت عن النبي ﷺ . من أنواع الاستفتاحات في الصلاة ، ومن أنواع صفة الأذان والإقامة ، وصفة صلاة الخوف وغير ذلك كله حسن يشرع العمل به لمن علمه ، وأما من علم نوعاً ولم يعلم غيره فليس له أن يعدل عما علمه إلى ما لم يعلمه ، وليس له أن ينكر على من يعلمه من ذلك ، ولا أن يخالفه ، كما قال النبي ﷺ « لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » (١) .

وأما القراءة الشاذة الخارجة عن رسوم المصحف العثماني مثل قراءة ابن مسعود ، وأبي الدرداء رضي الله عنهما ﴿ **والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، والذكر والأنثى** ﴾ كما قد ثبت ذلك في الصحيحين ، ومثل قراءة عبد الله ﴿ **فصيام ثلاثة أيام متتابعات** ﴾ وكقوله ﴿ **إن كانت الأزقية واحدة** ﴾ ونحو ذلك .

= مفتاح السعادة ٢ : ١٤٩ ووفيات الأعيان ٢ : ٧٤٩]

(١) الحديث أخرجه البخاري ٤٤ كتاب الخصومات ١ باب ما يذكر في الأشخاص ، والخصومة بين المسلم واليهود ، ٢٤١٠ بسنده عن النزال بن سبره ، سمعت عبد الله يقول : سمعت رجلاً قرأ آية سمعت من النبي - ﷺ - خلافها فأخذت بيده فأتيت به رسول الله - ﷺ - فقال : كلاكما محسن . فال شعبة أظنه قال : وذكره . وأخرجه الترمذي في كتاب العلم ١ باب النهي عن اتباع متشابه القرآن ٢ - (٢٦٦٦) بسنده عن عبد الله بن عمرو وذكره ولفظه : « إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب » وأخرجه الإمام أحمد في المسند ١ : ٤١٢ حلبي) .

فهـذه إذا ثبتت عن بعض الصحابـة فهل يجـوز أن يقرأ بهـا في الصـلاة على قـولين للعلماء همـا روايتان مشهـورتـان عن الإمـام أحمـد وروايتـان عن مالك .

« احـداهما » يجـوز ذلك لأن الصحـابة والتـابعين كانـوا يقـرأون بهـذه الحروف في الصلاة .

و« الثانية » لا يجوز ذلك وهو قول أكثـر العلماء ، لأن هـذه القراءات لم تثبت متواترة عن النبي ﷺ ، وإن ثبتت فإنها منسوخة بالعرضـة الأخيرة ، فـإنه قد ثبت في الصحاح عن عـائشة وابن عبـاس رضي الله عنهم أن جبريـل عليه السلام كان يعارض النبي ﷺ بالقرآن في كل عام مرة ، فلمـا كان العـام الذي قبض فيه عارضـه به مـرتين ، والعرضـة الآخرة هي قـراءة زيد بن ثـابت وغيره وهي التي أمـر الخلفاء الـراشدون أبـو بكر وعمـر وعثمـان وعلي بكتـابتهـا في المصحف ، وكتبها أبو بكر وعمر في صحف ، أمـر زيد بن ثـابت بكتابتهـا ثم أمر عثمان في خلافته بكتابتها في المصاحف وإرسالهـا إلى الأمصار ، وجميـع الناس عليها باتفاق من الصحابة علي وغيره [1] .

وهذا النزاع لا بد أن يكون على الأصل الذي سأل عنه السـائل وهـو أن القراءات السبعة . هل هي حرف من الحروف السبعة أم لا ؟ .

فالذي عليه جمهور العلماء من السلف والأئمة إنهـا حرف من الحـروف السبعـة ، بل يقـولون : إن مصحف عثمـان هو أحـد الحروف السبعـة ، وهـو

(١) الأثر أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ٧ بـاب كان جبـريل يعـرض القرآن على الـنبي ﷺ - ٤٩٩٨ - حدثنا خالد بن يزيد ، حدثنا أبو بكر عن أبي حصين عن ذكوان عن أبي هريـرة قال : كان يعرض على النبي - ﷺ - القرآن كل عام مرة ، فعرض عليـه مرتين في العـام الذي قبض فيه ، وكان يعتكف في كل عام عشراً واعتكف عشرين في العام الذي قبض فيه » .

متضمن للعرضة الآخرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل ، والأحاديث والآثار المشهورة المستفيضة تدل على هذا القول .

وذهب طوائف من الفقهاء والقراء وأهل الكلام إلى أن هذا المصحف مشتمل على الأحرف السبعة ، وقرر ذلك طوائف من أهل الكلام كالقاضي أبي بكر الباقلاني [1] وغيره بناء على أنه لا يجوز على الأمة أن تهمل نقل شيء من الأحرف السبعة وقد اتفقوا على نقل هذا المصحف الإمام العثماني ، وترك ما سواه حيث أمر عثمان بنقل القرآن من الصحف التي كان أبو بكر وعمر كتبا القرآن فيها ، ثم أرسل عثمان بمشاورة الصحابة إلى كل مصر من أمصار المسلمين بمصحف وأمر بترك ما سوى ذلك .

« ترتيب السور اجتهادي »

قال هؤلاء : ولا يجوز أن ينهى عن القراءة ببعض الأحرف السبعة ، ومن نصر قول الأولين يجيب تارة بما ذكر محمد بن جرير وغيره من أن القراءة على الأحرف السبعة لم يكن واجباً على الأمة وإنما كان جائزاً لهم مرخصاً لهم فيه ، وقد جعل إليهم الاختيار في أي حرف اختاروه ، كما أن ترتيب السور لم يكن واجبا عليهم منصوصاً بل مفوضاً إلى اجتهادهم ، ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب مصحف زيد ، وكذلك مصحف غيره .

« ترتيب الآيات توقيفي »

وأما ترتيب آيات السور فهو منزل منصوص عليه ، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية في الرسم ، كما قدموا سورة على سورة ، لأن ترتيب الآيات مأمور به نصاً ، وأما ترتيب السور فمفوض الى اجتهادهم .

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية في هذا الجزء .

قالوا : فكـذلك الأحـرف السبعة ، فلمـا رأى الصحابـة أن الأمة تفتـرق وتختلف وتتقاتل إذا لم يجتمعوا على حرف واحد اجتمعوا على ذلك اجتماعـاً سـائغاً ، وهم معصـومون أن يجتمعـوا على ضلالـة ، ولـم يكن في ذلك تـرك لواجب ولا فعل لمحظور (١) .

ومن هؤلاء من يقـول بأن التـرخيص في الأحـرف السبعـة كـان في أول

---

(١) ثبت في صحيح البخاري من رواية أنس ـ رضي الله عنه أن القرآن جمعه أربعة في عهد رسول الله ـ ﷺ ـ أحدهم زيد بن ثـابت ولقد جمع زيد القـرآن في عهد أبي بكـر ـ رضي الله عنه ـ بعد أن استحر القتل بالقراء يوم اليمامة ـ يقول زيد بن ثابت : أرسل إليّ أبـو بكر فقـال ـ إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يـوم اليمامـة بقراء القـرآن وإني أخشى أن يستحر القتـل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإني أرى أن تأمـر بجمع القـرآن . قلت لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ـ ﷺ ـ يقول أبـو بكر : فلم يـزل عمر يـراجعني حتى شرح الله صدري لذلك . يقول زيد بن ثابت . قال لي أبو بكر إنك رجل شاب عـاقل لا نتهمـك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسـول الله ـ ﷺ ـ فتتبع القـرآن فاجمعـه فوالله لـو كلفـوني نقـل جبـل من الجبال ما كان أثقل عليّ ممـا أمرني بـه من جمع القـرآن . فتتبعت القرآن أجمعـه من العسب واللحاف ، وصدور الرجال حتى وجـدت آخر سـورة التوبـة مع أبي خـزيمة الأنصـاري ، ولم أجدها مع أحد غيره ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حيـاته ، ثم عند حفصة وفي عهد عثمان بن عفان قدم إليه حذيفـة بن اليمان بعـد أن أفزعـه اختلاف أهـل العراق في القراءة .

فقـال حذيفـة : يا أميـر المؤمنين أدرك هذه الأمـة قبل أن يختلفـوا في الكتاب اختـلاف اليهود والنصارى .

فأرسل عثمان الى حـفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردهـا إليك . فأرسلت حفصه الى عثمان فأمـر زيد بن ثـابت ، وعبد الله بن الـزبير ، وسعيـد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث فنسخوها في المصاحف .
وقـال عثمان : إذا اختلفتم وزيـد بن ثابت في شيء فـاكتبوه بلسـان قريش فـإنما نـزل بلسانهم ففعلوا .

ثم رد عثمان الصحف الى حفصة ، وأرسل الى كل أفق بمصحف ممـا نسخوا وأمـر بما سـواه من القرآن في كل صحيفـة أو مصحف أن يحرق . [راجـع صحيح البخـاري كتاب فضـائل القرآن باب جمع القر آن ٦ : ٢٢٥ ـ ٢٢٧ وابن كثير : فضائل القرآن ٤ : ١ ـ ٢٥]

الاسلام ، لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولاً ، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيرا عليهم وهو أرفق بهم أجمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الأخيرة ، ويقولون : إنه نسخ ما سوى ذلك .

وهؤلاء يوافق قولهم قول من يقول : إن حروف أبي بن كعب وابن مسعود وغيرهما مما يخالف رسم هذا المصحف منسوخة .

وأما من قال عن ابن مسعود : أنه كان يجوز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه ، وإنما قال : قد نظرت إلى القراء فرأيت قراءتهم متقاربة ، وإنما هو كقول أحدكم : أقبل ، وهلم ، وتعال ، فاقرأوا كما علمتم » أو كما قال .

ثم من جوز القراءة بما يخرج عن المصحف مما ثبت عن الصحابة .

قال : يجوز ذلك ؛لأنه من الحروف السبعة التي أنزل القرآن عليها ، ومن لم يجوزه فله ثلاثة مآخذ .

تارة يقول : ليس هو من الحروف السبعة ، وتارة يقول هو من الحروف المنسوخة ، وتارة يقول : هو مما انعقد إجماع الصحابة على الأعراض عنه ، وتارة يقول : لم ينقل إلينا نقلا يثبت بمثله القرآن ، وهذا هو الفرق بين المتقدمين والمتأخرين .

ولهذا كان في المسألة قول ثالث ، وهو اختيار جدي أبي البركات [1]

---

(١) هو عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد ابن تيمية الحراني ، مجد الدين ، فقيه حنبلي ، محدث ، مفسر ، ولد بحران ، ورحل الى بغداد فأقام ست سنين وعاد الى حران وتوفي بها عن نحو ٦٠ عاماً صنف ودرس ، وكان فرد زمانه في معرفة المذهب الحنبلي ، من كتبه « تفسير القرآن العظيم » و« المنتقي في أحاديث الأحكام » والمحرر في الفقه ، وهو جد الامام ابن تيمية . [راجع جلاء العينين ١٨ والفوات ١ : ٢٧٤ والمقصد الأرشد خ وغاية النهاية ١ : ٣٨٥ ومجلة المنهل ٨ : ٢٢٢] .

أنه إن قرأ بهذه القراءات في القراءة الواجبة ـ وهي الفاتحة عند القدرة عليها ـ لم تصح صلاته ، لأنه لم يتقين أنه أدى الواجب من القراءة لعدم ثبوت القرآن بذلك ، وإن قرأ بها فيما لا يجب لم تبطل صلاته ، لأنه لم يتيقن أنه أتى في الصلاة بمبطل لجواز أن يكون ذلك من الحروف السبعة التي أنزل عليها . وهذا القول ينبني على « أصل » وهو أن ما لم يثبت كونه من الحروف السبعة فهل يجب القطع بكونه ليس منها ؟ .

فالذي عليه جمهور العلماء أنه لا يجب القطع بذلك [1] .

إذ ليس ذلك مما أوجب علينا أن يكون العلم به في النفي والإثبات قطعيا .

« اختلاف العلماء في البسملة »

وذهب فريق من أهل الكلام إلى وجوب القطع بنفيه حتى قطع بعض هؤلاء ـ كالقاضي أبي بكر ـ بخطأ الشافعي وغيره ممن أثبت البسملة آية من القرآن في غير سورة النمل ، لزعمهم أن ما كان من موارد [2] الاجتهاد في القرآن فإنه يجب القطع [3] بنفيه ، والصواب القطع بخطأ هؤلاء وأن البسملة آية من كتاب الله حيث كتبها الصحابة في المصحف إذ لم يكتبوا فيه إلا القرآن وجردوه عما ليس منه كالتخميس والتعشير وأسماء السور ، ولكن مع ذلك لا

---

(١) قال ابن حجر واختلف في العرضة الأخيرة هل كانت بجميع الحروف المأذون في قراءتها ، أو بحرف واحد منها . . ؟

وعلى الثاني : فهل هو الحرف الذي جمع عليه عثمان جميع الناس أو غيره ؟ وقد روى أحمد وابن أبي داود والطبري من طريق عبيدة بن عمرو السلماني : أن الذي جمع عليه عثمان الناس يوافق العرضة الأخيرة .

(٢) سقط من (ب) لفظ (موارد) .

(٣) سقط من (ب) لفظ (القطع) .

يقال هي من السورة التي بعدها (١) ، كما أنها ليست من السورة التي قبلها ، بل هي كما كتبت (٢) آية أنزلها الله في أول كل سورة وإن لم تكن من السورة ، وهذا أعدل الأقوال الثلاثة . في هذه المسألة .

وسواء قيل بالقطع في النفي أو الاثبات فذلك لا يمنع كونها من موارد الاجتهاد التي لا تكفير ولا تفسيق (٣) فيها للنافي ، ولا للمثبت ، بل قد يقال ما قاله طائفة من العلماء إن كل واحد من القولين حق ، وإنها آية من القرآن في بعض القراءات (٤) ، وهي قراءة الذين يفصلون بها بين السورتين ، وليست آية في بعض القراءات وهي قراءة الذين يصلون ولا يفصلون بها بين السورتين (٥) وأما قول السائل :

ما السبب الذي أوجب (٦) الاختلاف بين القراء فيما احتمله خط المصحف ؟ فهذا مرجعه إلى النقل واللغة العربية لتسويغ الشارع لهم القراءة بذلك كله ، إذ ليس لأحد أن يقرأ قراءة بمجرد (٧) رأيه ، بل القراءة سنة متبعة وهم إذا اتفقوا على اتباع القرآن المكتوب في المصحف الإمامي وقد قرأ بعضهم بالياء وبعضهم بالتاء لم يكن واحدا منهما خارجاً عن (٨) المصحف .

ومما يوضح ذلك أنهم يتفقون في بعض المواضع على ياء أو تاء ، ويتنوعون في بعض .

---

(١) في (ب) تليها بدلاً من (بعدها) .
(٢) سقط من (ب) جملة (كما كتبت) .
(٣) سقط من (ب) لفظ (ولا تفسيق) .
(٤) سقط من (ب) في بعض القراءات .
(٥) سقط من (ب) بين السورتين .
(٦) في (ب) أحدث بدلاً من (أوجب) .
(٧) في (ب) بزيادة (ما يمليه رأيه) .
(٨) في (ب) بزيادة (ما خط) .

كمـا اتفقوا في قـوله تعـالى ﴿ ومَـا الله بِغَـافِـلٍ عَمَّـا تَعْمَلُوْنَ ﴾ [1] في موضع ، وتنوعوا في موضعين .

وقد بينا أن القراءتين كالآيتين . فـزيادة القـراءات كزيـادة الآيات ، لكن إذا كان الخط واحداً واللفظ محتملاً كان ذلك أخصر في الرسم .

والاعتمـاد في نقل القـرآن على حفظ [2] القلوب لا على المصـاحف ، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قـال : إن ربي قال لي أن أقم في قريش فأنـذرهم فقلت : أي رب إذاً يثلغوا رأسي ـ أي يشـرخوا ـ فقـال : إني مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرأه نائما ويقظانا فابعث جندا أبعث مثليهم ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك وأنفق أنفق عليك » [3]

فأخبر أن كتابه لا يحتاج في حفظه الى صحيفة تغسل بـالماء بـل يقرأه في كل حال ، كما جاء في نعت أمته « أناجيلهم في صدورهم » .

بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا في الكتب ولا يقرأونه كله إلا نظراً لا عن ظهر قلب .

وقد ثبت في الصحيح أنه جمع القـرآن كله على عهد النبي ﷺ جمـاعة من الصحـابة ، كـالأربعة الـذين من الأنصار ، وكعبـد الله بن عمرو فتبين بمـا ذكـرناه أن القـراءات المنسوبـة إلى نافـع وعـاصم [4] ليست هي الأحـرف

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٤٩ .

(٢) في (ب) ما وعته القلوب (بدلاً من على حفظ) .

(٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الامام مسلم في كتاب الجنة وصفـة نعيمها وأهلها ١٦ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٦٣ (٢٨٦٥) .

(٤) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

السبعة التي أنزل القرآن عليها وذلك باتفاق علماء السلف والخلف [1] .

وكذلك ليست هذه القراءات السبعة هي مجموع حرف واحد من الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها باتفاق العلماء المعتبرين ، بل القراءات الثابتة عن أئمة القراء ـ كالأعمش ويعقوب ، وخلف وأبي جعفر يزيد ابن القعقاع ، وشيبة بن نصاح ونحوهم ـ هي بمنزلة القراءات الثابتة عن هؤلاء السبعة عند من ثبت ذلك عنده ، كما ثبت ذلك .

وهذا أيضا مما لم يتنازع فيه الأئمة المتبوعون من أئمة الفقهاء والقراء وغيرهم ، وإنما تنازع الناس من الخلف في المصحف العثماني [2] الإمام الذي أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان ، والأمة بعدهم ، هل هو بما فيه من القراءات السبعة ، وتمام [3] العشرة وغير ذلك ، هل هو حرف من الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها ، أو هو مجموع الأحرف السبعة ؟ على قولين مشهورين :

والأول : قول أئمة السلف والعلماء .

والثاني : قول طوائف من أهل الكلام والقراء وغيرهم [4] ، وهم متفقون على أن الأحرف السبعة لا يخالف بعضها بعضاً خلافاً يتضاد [5] فيه المعنى ويتناقض ، بل يصدق بعضها بعضا كما تصدق الآيات بعضها بعضا ،

---

(١) أورد البخاري أن قتادة سأل أنس بن مالك فقال : من جمع القرآن على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : أربعة كلهم من الأنصار . أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، زيد بن ثابت ، وأبو زيد » [راجع البخاري ٦ : ٢٣٠ ـ باب القراءة على عهد رسول الله] .

(٢) سقط من (ب) لفظ (العثماني) .

(٣) سقط من (ب) جملة (وتمام العشرة) .

(٤) في (ب) والصوفية بدلاً من (وغيرهم) .

(٥) في (ب) يتناقض بدلاً من (يتضاد) . وهو تحريف .

وسبب تنوع القراءات فيما احتمله خط المصحف هو تجويز الشارع وتسويغه [1] ذلك لهم إذ مرجع ذلك إلى السنة والاتباع ، لا إلى الرأي والابتداع .

أما إذا قيل : إن ذلك هي الأحرف السبعة فظاهر وكذلك بطريق الأولى إذا قيل : إن ذلك حرف من الأحرف السبعة ، فإنه إذا كان قد سوغ [2] لهم أن يقرأوه على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ مع تنوع الأحرف في الرسم ، فلأن يسوغ ذلك مع اتفاق ذلك في الرسم وتنوعه [3] في اللفظ أولى وأحرى ، وهذا من أسباب تركهم المصاحف أول ما كتبت غير مشكولة [4] ولا منقوطة ، لتكون صورة الرسم محتملة للأمرين كالتاء والياء ، والفتح والضم ، وهم يضبطون باللفظ كلا الأمرين ، ويكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيها بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المنقولين المعقولين المفهومين ، فإن أصحاب رسول الله ﷺ تلقوا عنه ما أمره الله بتبليغه إليهم من القرآن لفظه ومعناه جميعا كما قال أبو عبد الرحمن السلمي [5] - وهو الذي روى عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : خيركم من تعلم القرآن وعلمه [6] » كما رواه البخاري في صحيحه ، وكان

---

(١) سقط من (ب) وتسويغه .

(٢) في (ب) ارتضى بدلاً من (سوغ) .

(٣) في (ب) وتبيانه بدلاً من (وتنوعه) .

(٤) في (ب) بزيادة (بعلامات الاعراب) .

(٥) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

(٦) الحديث أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ٢١ باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه - ٥٠٢٧ - حدثنا شعبة قال أخبرني علقمة بن مرثد سمعت سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن عثمان - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ قال : وذكره .
وأخرجه أبو داود في الوتر ، والترمذي في ثواب القرآن ١٥ وابن ماجه في المقدمة ١٦ باب فضل من تعلم القرآن وعلمه ٢١١ - بسنده عن عثمان بن عفان عن رسول الله - ﷺ - وذكره .

يقرىء القرآن أربعين سنة .

قال : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما : إنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا . ولهذا دخل في معنى قوله « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » تعليم حروفه ومعانيه جميعاً ، بل تعلم معانيه هو المقصود الأول بتعليم حروفه ، وذلك هو الذي يزيد الإيمان ، كما قال جندب بن عبد الله (١) وعبد الله بن عمر وغيرهما : تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً وأنتم تتعلمون القرآن ثم تتعلمون الإيمان» وفي الصحيحين عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ، رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة نزلت في جنس قلوب الرجال ونزل القرآن (٢) ، وذكر الحديث بطوله ، ولا تتسع هذه

---

(١) هو جندب الخير الأزدي العامري قاتل الساحر - يكنى أبا عبد الله له صحبة يقال : إنه جندب بن زهير ، ويقال جندب بن عبد الله - روى عن النبي - ﷺ - حد الساحر ضربه بالسيف » . وعن سلمان الفارسي وعلي وعنه - حارثة بن وهب ، والحسن البصري ، وعثمان النهدي مات في خلافة معاوية ، وذكره ابن حبان في الثقات . [راجع تهذيب التهذيب ٢ : ١١٨ - ١١٩] .

(٢) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الامام مسلم في كتاب الايمان ٦٤ باب رفع الأمانة والايمان من بعض القلوب ، وعرض الفتن على القلوب ٢٣٠ (١٤٣) بسنده عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله - ﷺ - حديثين قد رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن ، وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : ينام الرجل نومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل ، كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً وليس فيه شيء (ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله) فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً حتى يقال للرجل : ما أجلده ، ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبه خردل من إيمان » وأخرجه البخاري في كتاب الرقاق ٣٥ ، وكتاب الفتن ١٣ ، وكتاب الاعتصام ٣ ، وأخرجه الترمذي في كتاب الفتن ١٧ باب ما جاء في رفع الأمانة ٢١٧٩ بسنده عن حذيفة بن اليمان وذكره .
وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

الورقة لذكر ذلك ، وإنما المقصود التنبيه على أن ذلك كله مما بلغه رسول الله ﷺ إلى الناس .

وبلغنا أصحابه عنه الإيمان والقرآن ، حروفه ومعانيه وذلك مما أوحاه الله إليه ، كما قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوْحاً مِنْ أَمْرِنا مَا كُنْتَ تَـدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيْمَانُ وَلكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوْراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [1]

وتجوز القراءة في الصلاة وخارجها بالقراءات الثابتة الموافقة لرسم المصحف ، كما ثبتت هذه القراءات ، وليست شاذة حينئذ . والله أعلم .

وسئل أيضا :

عن جمع القراءات السبع .

هل هو سنة أم بدعة ، وهل جمعت على عهد رسول الله ﷺ أم لا ؟ .

وهل لجامعها مزية ثواب على من قرأ برواية أم لا ؟

فأجاب :

الحمد لله ، أما نفس معرفة القراءة وحفظها فسنة متبعة يأخذها الآخر عن الأول ، فمعرفة القرآن التي كان النبي ﷺ يقرأ بها ، أو يقرهم على القراءة بها ، أو يأذن لهم ، وقد أقروا بها سنة ، والعارف في القراءات ، الحافظ لها له مزية على من لم يعرف ذلك ، ولا يعرف إلا قراءة واحدة وأما جمعها في الصلاة أو في التلاوة فهو بدعة مكروهة ، وأما جمعها لأجل الحفظ والدرس فهو من الاجتهاد الذي فعله طوائف في القراءة .

وقال شيخ الإسلام :

في تحزيب القرآن ، وفي كم يقرأ ، وفي مقدار الصيام والقيام المشروع .

وأخرجه ابن ماجه في الفتن ٢٧ باب ذهاب الأمانة ٤٠٥٣ بسنده عن حذيفة وذكره .

وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٢٨٢ (حلبي) .

(١) سورة الشورى الآية ٥٢ .

عن عبد الله بن عمرو [1] رضي الله عنهما قال : أنكحني أبي امرأة ذات حسب ، فكان يتعاهد ابنته فيسألها عن بعلها فتقول : نعم الرجل لم يطأ لنا فراشاً ، ولم يفتش لنا كنفا مذ أتيناه ، فلما طال ذلك عليه ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : ألقني به فلقيته بعد ، فقال : كيف تصوم ؟

قلت : كل ليلة ، قال : صم من كل شهر ثلاثة أيام واقرأ القرآن في كل شهر ، قلت : إني أطيق أكثر من ذلك قال : صم ثلاثة أيام من كل جمعة ، قلت : إني أطيق أكثر من ذلك . قال : أفطر يومين وصم يوماً ، قال : قلت : إني أطيق أكثر من ذلك قال : صم أفضل الصوم صوم داود ، صيام يوم وإفطار يوم واقرأ القرآن في كل سبع ليال مرة ، قال : فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ ، وذلك أني كبرت وضعفت فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار ، والذي يقرأه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل ، فإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصى وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئاً فارق عليه النبي ﷺ [2] .

وقال بعضهم : في ثلاث وفي خمس ، وأكثرهم على سبع وفي لفظ

---

(1) هو عبد الله بن عمرو بن العاص ، من قريش : صحابي من النساك من أهل مكة . كان يكتب في الجاهلية ، ويحسن السريانية وأسلم قبل أبيه ، فاستأذن رسول الله -ﷺ- في أن يكتب ما يسمع منه فأذن له ، وكان كثير العبادة حتى قال له النبي - ﷺ - إن لجسدك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً وإن لعينيك عليك حقاً - الحديث ، وكان يشهد الحروب والغزوات ويضرب بسيفين ، وشهد صفين مع معاوية وولاه معاوية الكوفة مدة قصيرة - عمي في آخر عمره توفي عام ٦٥ هـ له ٧٠٠ حديث . [راجع طبقات ابن سعد ، القسم الثاني ، من الجزء الرابع ٨ - ١٣ والاصابة الترجمة ٤٨٣٨ وحلية الأولياء ١ : ٢٨٣ - والجمع بين رجال الصحيحين ٢٣٩] .

(2) الحديث سبق تخريجه وهو في صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن ٣٤ باب في كم يقرأ القرآن ؟ وقول الله تعالى : ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه ﴾ ٥٠٥٢ ، ٥٠٥٤ بسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وكذا أخرجه الإمام مسلم في صحيحه .

« اقرأ القرآن في شهر » قلت : إني أجد قـوة . قال : فـاقرأه في سبـع ولا تزد على ذلك . رواه بكماله البخاري وهذا لفظه ، وروى مسلم الحديث بنحوه ، واللفظ الآخر مثله وفي رواية : ألم أخبر أنك تصوم الدهـر ، وتقرأ القـرآن كل ليلة فقلت : نعم يـا نبي الله . وفيه قـال : اقـرأ القـرآن في كـل شهـر قـال : قلت : يـا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلـك ، قال : فـاقرأه في كـل عشـر ، قال : قلت : يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك ، قال : فاقـرأه في سبع ولا تزد على ذلك قـال : فشددت فشـدد علي « وقال لي النبي ﷺ إنـك لا تدري لعلك يطول بك عمرك ، قال : فصرت إلى الذي قال النبي ﷺ .

وعن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « اقرأ القرآن في كل ثلاث » رواه أحمد وأبو داود .

قلت : هذه الرواية نبه عليها البخاري .

وقـال بعضهم : في ثـلاث . وهـو معنى مـا روي عن سعـد بن المنـذر الأنصاري أنه قـال : يا رسـول الله أقرأ القـرآن في ثلاث ؟ قـال : نعم » وكان يقرأه حتى توفي .

رواه أحمد من طريق ابن لهيعة .

وذكـر أن بعضهم قـال : في خمس . وأكثـرهم على سبـع فـالصحيـح عندهم في حديث عبد الله بن عمرو أنه انتهى به النبي ﷺ إلى سبع ، كما أنه أمره ابتداء بقـراءته في الشهـر ، فجعل الحـد ما بين الشهـر إلى الأسبوع وقـد روى أنه أمره ابتداء أن يقرأه في أربعين ، وهذا في طرف السعة يناظر التثليـث في طرف الاجتهاد .

وأما رواية من روى « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقـه » [1] فلا

---

(١) هي رواية قتادة عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ـ ﷺ ـ « لا تفقه في قراءة في أقل من

تنافي رواية التسبيع ، فإن هذا ليس أمراً لعبد الله بن عمرو ولا فيه أنه جعل قراءته في ثلاث دائماً [١] سنَّة مشروعة وإنما فيه الإخبار بأن من قرأه في أقل من ثلاث لم يفقه ومفهومه مفهوم العدد ، وهو مفهوم [٢] صحيح أن من قرأه في ثلاث فصاعداً فحكمه نقيض ذلك ، والتناقض يكون بالمخالفة ولو من بعض الوجوه .

فإذا كان من يقرأه في ثلاث أحياناً [٣] قد يفقهه حصل مقصود الحديث ولا يلزم إذا شرع فعل ذلك أحياناً لبعض الناس أن تكون المداومة على ذلك مستحبة ، ولهذا لم يعلم في الصحابة على عهده [٤] من داوم على ذلك - أعني على قراءته دائماً فيما دون السبع ،ولهذا كان الإمام أحمد رحمه الله يقرأه في كل سبع .

والمقصود بهذا الفصل أنه إذا كان التحزيب المستحب ما بين أسبوع إلى شهر - وإن كان قد روى ما بين ثلاث إلى أربعين - فالصحابة إنما كانوا يحزبونه سوراً تامة . لا يحزبون السورة الواحدة ، كما روى أوس بن حذيفة قال : قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف ، قال : فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة [٥] ونزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبة له . قال : وكان

= ثلاث » يقول ابن كثير أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة من حديث قتادة وقال الترمذي : حسن صحيح وبرواية عمرة بنت عبد الرحمن قالت : سمعت عائشة تقول : كان رسول الله - ﷺ - يختم القرآن في أقل من ثلاث، ويعلق ابن كثير على هذا الحديث قائلاً: هذا حديث غريب جداً وفيه ضعف ، وضعفه الدارقطني . [راجع تفسير ابن كثير ٤ : ٤٩ - ٥٠ كتاب فضائل القرآن] .

(١) سقط من (ب) لفظ (دائماً) .

(٢) في (أ) بزيادة (وهو مفهوم صحيح) .

(٣) في (أ) بزيادة لفظ (أحياناً) .

(٤) في (ب) بزيادة (رسول الله - ﷺ) .

(٥) هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي أبو عبد الله أحد دهاة العرب ، وقادتهم ، =

كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا قائماً على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام وأكثر ما يحدثنا ما لقى من قومه من قريش ، ثم يقول : لا سواء كنا مستضعفين مستذلين بمكة ، فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا ، فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، فقلنا : لقد أبطأت عنا الليلة قال : إنه طرأ على حزبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه [1] .

قال أوس : سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف تحزبون القرآن ؟ .

قالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل واحد رواه أبو داود ، وهذا لفظه .

وأحمد وابن ماجه .

وفي رواية للإمام أحمد قالوا : نحزبه ثلاث سور ، وخمس سور ،

= صحابي ، يقال له « مغيرة الرأي » ولد في الطائف عام ٢٠ ق هـ دخل الاسكندرية وافداً على المقوقس أسلم عام ٥ هـ وشهد الحديبية واليمامة وفتوح الشام وذهبت عينه باليرموك ، وشهد القادسية ، ونهاوند وغيرها وولاه عمر بن الخطاب على البصرة توفي عام ٥٠ هـ [راجع الاصابة ت ٨١٨١ وأسد الغابة ٤ : ٤٠٦ والطبري ٦ : ١٣١ والجمع بين الصحيحين ٤٩٩] .

(١) أورد ابن الأثير هذه القصة بأكملها في ترجمته لأوس بن حذيفة فقال قال حذيفة « قدمنا وفد ثقيف على رسول الله ـ ﷺ ـ فنزل الأحلافيون على المغيرة بن شعبة وأنزل المالكيين قبته . وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يأتينا فيحدثنا بعد العشاء الأخيرة حتى يراوح بين قدميه من طول القيام ، وكان أكثر ما يحدثنا اشتكاء قريش يقول : كنا بمكة مستذلين مستضعفين فلما قدمنا المدينة انتصفنا من القوم فكانت الحرب سجال لنا وعلينا . يقول حذيفة : واحتبس عنا الرسول ليلة من الوقت الذي كان يأتينا فيه ثم أتانا فقلنا يا رسول الله احتبست عنا الليلة عن الوقت الذي كنت تأتينا فيه ، فقال رسول الله ﷺ ـ إنه طرأ على حزبي من القرآن فأحببت ألا أخرج حتى أقضيه . قال حذيفة : فلما أصبحنا سألنا أصحاب رسول الله ـ ﷺ عن أحزاب القرآن كيف تحزبونه . . . الخ . [راجع سنن أبي داود وابن ماجه ، وابن الأثير في أسد الغابة ١ : ١٦٧ - ١٦٩] .

وسبع سور وتسع سور ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة وحزب المفصل من « ق » حتى يختم .

ورواه الطبراني في معجمه فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ ، كيف كان رسول الله ﷺ يحزب القرآن ؟ .

فقالوا : كان رسول الله ﷺ يحزبه ثلاثا وخمساً ، فذكره .

وهذا الحديث يوافق معنى حديث عبد الله بن عمرو في أن المسنون كان عندهم قراءته في سبع ، ولهذا جعلوه سبعة أحزاب ، ولم يجعلوه ثلاثة ولا خمسة وفيه أنهم حزبوه بالسور ، وهذا معلوم بالتواتر فإنه قد علم أن أول ما جزىء القرآن بالحروف تجزئة ثمانية وعشرين ، وثلاثين ، وستين ، هذه التي تكون رؤ وس الأجزاء والأحزاب في أثناء السورة وأثناء القصة ، ونحو ذلك كان في زمن الحجاج [1] وما بعده .

وروي أن الحجاج أمر بذلك .

ومن العراق فشا ذلك ، ولم يكن أهل المدينة يعرفون ذلك .

وإذا كانت التجزئة بالحروف محدثة من عهد الحجاج بالعراق ، فمعلوم أن الصحابة قبل ذلك على عهد النبي ﷺ ، وبعده كان لهم تحزيب آخر ؛ فإنهم كانوا يقدرون تارة بالآيات فيقولون : خمسون آية ، ستون آية ، وتارة بالسور ، لكن تسبيعه بالآيات لم يروه أحد ، ولا ذكره أحد فتعين التحزيب

---

(١) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي قائد داهية ـ سفاك خطيب ولد عام ٤٠ هـ ونشأ بالطائف ، وانتقل الى الشام قلده عبد الملك عسكره وأمره بقتال عبد الله بن الزبير ـ قتله وفرق جموعه ولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف ثم أضاف إليه العراق والثورة قائمة فيه توفي عام ٩٥ هـ [راجع معجم البلدان ٨ : ٣٨٢ ووفيات الأعيان ١ : ١٢٣ وتهذيب التهذيب ٢ : ٢١٠ وابن الأثير ٤ : ٢٢٢] .

بالسور فإن قيل : فترتيب سور القرآن ليس هو أمراً واجباً منصوصاً عليه [١] ، وإنما هو موكول [٢] إلى الناس ، ولهذا اختلف ترتيب مصاحف الصحابة رضي الله عنهم ، ولهذا [٣] في كراهة تنكيس السور روايتان عن الإمام أحمد .

احداهما : يكره لأنه خلاف المصحف العثماني المتفق عليه و« الثانية » لا يكره كما يلقنه الصبيان ، إذ قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قرأ بالبقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران قيل : لا ريب أن قراءة سورة بعد سورة لا بد أن يكون مرئياً أكثر ما في الباب أن الترتيب يكون أنواعاً ، كما أنزل القرآن على أحرف ، وعلى هذا : فهذا [٤] التحزيب يكون تابعاً لهذا الترتيب ويجوز أيضاً [٥] أن يكون هذا التحزيب مع كل ترتيب ، فإنه ليس في الحديث تعيين السور .

« الأفضل ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم »

وهذا الذي كان عليه الصحابة هو الأحسن لوجوه : « أحدها » أن هذه التحزيبات المحدثة تتضمن دائماً الوقوف على بعض الكلام المتصل بما بعده ، حتى يتضمن الوقف على المعطوف دون المعطوف عليه ، فيحصل القارىء في اليوم الثاني مبتدئاً بمعطوف ، كقوله تعالى **﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم ﴾** [٦] وقوله **﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لله وَرَسُوْلِه ﴾** [٧] وأمثال ذلك .

---

(١) سقط من (ب) جملة « منصوصاً عليه » .
(٢) في (ب) أمره بدلاً من « موكول » .
(٣) في (أ) بزيادة « ولهذا » .
(٤) في (أ) بزيادة « فهذا » .
(٥) سقط من (ب) لفظ « أيضاً »
(٦) سورة النساء آية رقم ٢٤ وعجز الآية : **﴿ كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا** =

ويتضمن الوقف على بعض القصة دون بعض ـ حتى كلام المتخاطبين ـ حتى يحصل الابتداء في اليوم الثاني بكلام المجيب . . كقوله تعالى :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً ﴾ (١) .

ومثل هذه الوقوف لا يسوغ في المجلس الواحد إذا طال الفصل بينهما بأجنبي (٢) ، ولهذا لو ألحق بالكلام عطف أو استثناء أو شرط ونحو ذلك بعد طول الفصل بأجنبي (٣) لم يسغ باتفاق العلماء ، ولو تأخر القبول عن الايجاب بمثل ذلك بين المتخاطبين لم يسغ ذلك بلا نزاع ، ومن حكى عن (٤) أحمد خلاف ذلك فقد أخطأ ، كما أخطأ من نقل عن ابن عباس في الأول خلاف ذلك ، وذلك أن المنقول عن أحمد أنه فيما إذا كان المتعاقدان غائبين أو أحدهما غائب ، والآخر حاضراً فينقل الايجاب أحدهما إلى الآخر فيقبل في مجلس البلاغ ، وهذا جائز ، بخلاف ما إذا كانا حاضرين ، والذي في القرآن نقل كلام حاضرين متجاورين فكيف يسوغ أن يفرق هذا التفريق لغير حاجة بخلاف ما إذا فرق في التلقين (٥) لعدم حفظ المتلقن ونحو ذلك .

« الثاني » أن النبي ﷺ كانت عادته الغالبة وعادة أصحابه أن يقرأ في

= بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً ﴾

(٧) سورة الأحزاب آية رقم ٣١ وعجز الآية ﴿ وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً ﴾ .

(١) سورة الكهف آية رقم ٧٢ .

(٢) سقط من (ب) لفظ « بأجنبي »

(٣) سقط من (ب) لفظ « بأجنبي » .

(٤) في (ب) بزيادة لفظ « الإمام » .

(٥) سواء كان هذا التلقين للكبار أو الصغار ما دامت الغاية في النهاية والقصد هو استظهار كتاب الله تعالى .

الصـلاة بسورة كـ « ق » ونحـوها وكمـا كان عمـر رضي الله عنـه يقـرأ بيـونس و« يوسف » و« النحل » ولمـا قرأ ﷺ بسـورة المؤمنين في الفجر أدركتـه سعلة فركع في أثنائها وقال : إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبي فأخفف ؛ لما أعلم من وجد أمه به »[1] .

وأمـا القراءة بـأواخر السـور وأوساطهـا ، فلم يكن غالبـاً عليهم ، ولهذا يتورع في كراهة ذلك ، وفيـه النزاع المشهـور في مذهب أحمـد وغيره ، ومن أعدل الأقوال قول من قال يكـره اعتياد ذلـك دون فعله أحيانـاً لئلا يخـرج عما مضت به السنة ، وعادة السلف من الصحابة والتابعين .

وإذا كان كذلـك فمعلوم أن هذا التحـزيب والتجزئـة فيه مخـالفة السنـة أعظم مما في قراءة آخر السورة ووسطها في الصلاة ، وبكل حال فلا ريب أن التجزئة والتحزيب الموافق لما كان هو الغالب على تلاوتهم أحسن .

و« المقصود » أن التحزيب بالسور التامة أولى من التحزيب بالتجزئة .

« الثالث » أن التجزئـة المحدثـة لا سبيل فيهـا إلى التسويـة بين حروف الأجزاء ، وذلك لأن الحروف في النطق تخالف الحروف في الخط في الزيادة والنقصان ، يزيد كل منهما على الآخر من وجه دون وجه ، وتختلف الحروف من وجه[2] ، وبيان ذلك بأمور « أحدها » أن ألفات الـوصل ثـابتة في الخط ، وهي في اللفظ تثبت في القطع وتحذف في الوصل ، فالعاد إن حسبها انتقض

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الصلاة ٣٧ باب أمر الأئمة بتخفيف الصـلاة في تمام ١٩٢ - حدثنا محمد بن منهال الضرير حدثنا يـزيد بن زريـع ، ثنا سعيـد بن أبي عروبـة عن قتادة عن أنس بن مالك قـال : قال رسـول الله - ﷺ . وذكره . وأخـرجه البخـاري في كتاب الآذان ٦٥ باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي ٧٠٧ - حدثنا الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه أبي قتادة عن النبي - ﷺ - وذكره ، وأخرجه الامام أحمد في المسند ٣ : ١٠٩ (حلبي)

(٢) في (ب) بزيادة لفظ (آخر)

عليه حال القارىء إذا وصل وهو الغالب فيها ، وإن أسقطها انتقض عليه بحال القارىء القاطع ، وبالخط « الثاني » أن الحرف المشدد حرفان في اللفظ ، أولهما ساكن ، وهذا معروف بالحس واتفاق الناس ، وهما متماثلان في اللفظ ، وأما في الخط فقد يكونان حرفاً واحداً مثل ﴿ إياك ﴾ و﴿ إياك ﴾ وقد يكونان حرفين مختلفين مثل ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ﴿ اهْدنا الصِّراط المُسْتقِيمَ صِراط الَّذين أنْعَمْتَ عَلَيْهِم ﴾ و﴿ حينئذ ﴾ [1] و﴿ قَد سَمع ﴾ [2] فالعاد إن حسب اللفظ فالإدغام إنما يكون في حال الوصل دون حال القطع ويلزمه أن يجعل الأول من جنس الثاني ، وهذا مخالف لهذا الحرف المعاد بها وإن حسب الخط كان الأمر أعظم اضطراباً ، فإنه يلزمه أن يجعل ذلك تارة حرفاً وتارة حرفين مختلفين وهذا وإن كان هو الذي يتهجى فالنطق بخلافه « الثالث » أن تقطيع حروف النطق من جنس تقطيع العروضيين [3] ، وأما حروف الخطِ فيخالف هذا من وجوه كثيرة ، والناس في العادة إنما يتهجون الحروف مكتوبة لا منطوقة ، وبينهما فرق عظيم .

« الرابع » أن النطق بالحروف ينقسم إلى ترتيل وغير ترتيل ، ومقادير

---

(١) قال تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ﴾ سورة الواقعة آية رقم ٨٤ .

(٢) قال تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ . سورة المجادلة آية رقم ١ .

(٣) علم العروض ـ هو العلم الخاص بأوزان الشعر وتفاعيله وقوافيه وكل ما يختص به ، واختلف في اشتقاقه ، فقيل سمي بذلك لاكتشاف الخليل إياه بمكة المسماة بالعروض أو توسعاً من عروض الشطر الأول ، أو لأن الشعر يعرض عليه ويشمل الاسم : علمي الأوزان الشعرية (العروض) والقوافي ومعظم مصطلحاتها مأخوذ من حياة العرب . وأقام العروضيون علمهم على ما تضمه الكلمات من حروف متحركة وساكنة تتوالى في البيت فتؤدي ايقاعاً معيناً ، وصنفوا هذه الحروف الى أسباب وأوتاد وألفوا من اجتماع الأسباب والأوتاد ثمانية (تفعيلات) تقوم عليها جميع الأوزان : فعولن . فاعلن . مفاعيلن . فاعلاتن مستفعلن ، مفعولاتن ، مفاعلتن ، متفاعلن » .

المدات والأصوات من القراء غير منضبطة ، وقد يكون في أحد الحزبين من حروف المد أكثر مما في الآخر ، فلا يمكن مراعاة التسوية في النطق ، ومراعاة مجرد الخط لا فائدة فيه فإن ذلك لا يوجب تسوية زمان القراءة .

وإذا كان تحزيبه بالحروف إنما هو تقريب لا تحديد كان ذلك من جنس تجزئته بالسور هو أيضاً تقريب ، فإن بعض الأسباع قد يكون أكثر من بعض في الحروف وفي ذلك من المصلحة العظيمة بقراءة الكلام المتصل بعضه ببعض ، والافتتاح بما فتح الله به السورة والاختتام بما ختم به ، وتكميل المقصود من كل سورة ما ليسَ في ذلك التحزيب .

وفيه أيضا من زوال المفاسد الذي في ذلك التحزيب ما تقدم التنبيه على بعضها ، فصار راجحا بهذا الاعتبار .

ومن المعلوم أن طول العبادة وقصرها يتنوع بتنوع المصالح ، فتستحب إطالة القيام تارة ، وتخفيفه أخرى في الفرض والنفل بحسب الوجوه الشرعية من غير أن يكون المشروع هو التسوية بين مقادير ذلك في جميع الأيام ، فعلم أن التسوية في مقادير العبادات البدنية في الظاهر لا اعتبار به إذا قارنه مصلحة معتبرة ، ولا يلزم من التساوي في القدر التساوي في الفضل ، بل قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي ﷺ أن :

﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن [1] ، وثبت في الصحيح أن فاتحة الكتاب لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل ، ولا في القرآن مثلها [2] .

---

(1) الحديث أخرجه الامام البخاري في كتاب فضائل القرآن ٣ باب فضل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ٥٠١٣ ـ أخبرنا مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ يرددها فلما أصبح جاء الى رسول الله ـ ﷺ ـ فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقاولها فقال رسول الله ﷺ « والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » .

(2) الحديث أخرجه الترمذي في أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ـ ﷺ ـ باب ما جاء في فضل

وثبت في الصحيح أن آية الكرسي أعظم آية في القرآن (١) وأمثال ذلك .

فإذا قرأ القارىء في اليوم الأول البقرة ، وآل عمران والنساء بكمالها ، وفي اليوم الثاني إلى آخر براءة وفي اليوم الثالث إلى آخر النمل ، كان ذلك أفضل من أن يقرأ في اليوم الأول إلى قوله ﴿ بليغا ﴾ (٢) وفي اليوم الثاني إلى قوله ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحِينَ ﴾ (٣) فعلى هذا إذا قرأه كل شهر كما أمر به النبي ﷺ عبد الله بن عمرو أولاً عملاً على قياس تحزيب الصحابة ، فالسورة التي تكون نحو جزء أو أكثر بنحو نصف أو أقل بيسير يجعلها حزباً ، كآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف .

وأما البقرة فقد يقال بجعلها حزباً وإن كانت بقدر حزبين وثلث ، لكن الأشبه أنه يقسمها حزبين للحاجة ، لأن التحزيب لا بد أن يكون متقارباً ،

= فاتحة الكتاب ٣٠٣٦ عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة - أن رسول الله - ﷺ - خرج على أبي بن كعب فقال رسول الله - ﷺ - يا أبي وهو يصلي - فالتفت أبي فلم يجبه وصلى أبي فخفف ثم انصرف الى رسول الله ﷺ - فقال السلام عليك يا رسول الله - فقال رسول الله ﷺ - وعليك السلام . ما منعك يا أبي أن تجيبني إذ دعوتك ؟ فقال يا رسول الله إني كنت في الصلاة ، قال أفلم تجد فيما أوحى الله إليّ ﴿ **أن استجيبوا لله والرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ؟ ﴾ قال : بلى ولا أعود إن شاء الله . قال اتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور مثلها . .؟ قال : نعم يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ - والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ، ولا في الفرقان مثلها وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته . .
قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وفي الباب عن أنس بن مالك .

(١) أخرج الترمذي في أبواب فضائل القرآن باب ما جاء في سورة البقرة وآية الكرسي ٣٠٣٨ حدثنا محمود بن غيلان أخبرنا حسين الجعفي عن زائدة عن حكيم بن جبير عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة ، وفيها آية هي سيدة آي القرآن ، آية الكرسي .

(٢) الآية : ﴿ **فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً** ﴾ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٧٠ .

بحيث يكون الحزب مثل الأجزاء ومثله مرة ودون النصف وأما إذا كان مرتين وشيئاً فهذا تضعيف وزيادة .

وعلى هذا فإلى الأعراف سبعة أجزاء ، والأنفال جزء ، وبراءة جزء ، فإن هذا أولى من جعلها جزءاً ؛ لأن ذلك يفضي إلى أن يكون نحو الثلث في ثمانية ، والذي رجحناه يقتضي أن يكون نحو الثلث في تسعة ، وهذا أقرب إلى العدل ، وتحزيب الصحابة أوجب أن يكون الحزب الأول أكثر ، ويكون إلى آخر العنكبوت العشر الثاني سورتين سورتين وأما يونس وهود فجزءان أيضاً أو جزء واحد لأنهما أول ذوات « السر » ويكون على هذا الثلث الأول سورة سورة ، والثاني سورتين سورتين ، لكن الأول أقرب إلى أن يكون قريب الثلث الأول في العشر الأول ، فإن الزيادة على الثلث بسورة أقرب من الزيادة بسورتين وأيضاً فيكون عشرة أحزاب سورة سورة .

وهذا أشبه بفعل الصحابة [1] .

ويوسف والرعد جزء ، وكذلك ابراهيم والحجر ، وكذلك النحل وسبحان ، وكذلك الكهف ومريم ، وكذلك طه والأنبياء وكذلك الحج

---

(١) أخرج البخاري في كتاب فضائل القرآن ٣٤ باب في كم يقرأ القرآن وقول الله تعالى ﴿ **فاقرءوا ما تيسر منه** ﴾ .

٥٠٥٢ ـ عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : انكحني أبي امرأة ذات حسب فكان يتعاهد كنته فيسألها عن بعلها فتقول : نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشاً ولم يفتش لنا كنفاً منذ أتيناه ، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي ـ ﷺ ـ فقال : القني به فلقيته بعد فقال : كيف تصوم . . ؟ قلت أصوم كل يوم قال وكيف تختم ؟ قلت : كل ليلة . قال : صم في كل شهر ثلاثة واقرأ القرآن في كل شهر . قال : قلت أطيق أكثر من ذلك قال : صم ثلاثة أيام في الجمعة قال : قلت أطيق أكثر من ذلك قال : أفطر يومين وصم يوماً . قال : قلت أطيق أكثر من ذلك قال : صم أفضل الصوم صوم داود صيام يوم وإفطار يوم واقرأ في كل سبع ليال مرة . فليتني قبلت رخصة رسول الله ـ ﷺ ـ

وفي رواية : أقرأ **القرآن في شهر قلت** : إني أجد قوة . حتى قال : فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك . . ؟

والمؤمنون ، وكذلك النور والفرقان ، وكذلك ذات « طس » الشعراء والنحل والقصص ، وذات « الم » العنكبوت والروم ولقمان والسجدة جزء والأحزاب وسبأ وفاطر جزء و« يس » و« الصافات » و« ص » جزء ، والزمر وغافر ، وحم السجدة جزء والخمس البواقي من آل « حم » جزء .

والثلث الأول أشبه بتشابه أوائل السور والثاني أشبه بمقدار جزء من تجزئة الحروف وهو المرجح ثم « القتال » و« الفتح » و« الحجرات » و« ق » و« الذاريات » جزء .

ثم الأربعة الأجزاء المعروفة .

وهذا تحزيب مناسب متشابه لتحزيب الصحابة رضي الله عنهم ، وهو مقارب لتحزيب الحروف ، وإحدى عشرة سورة حزب حزب .

إذ البقرة كسورتين ، فيكون احدى عشر سورة . وهي نصيب إحدى عشرة ليلة . والله أعلم .

وسئل رحمه الله :

عن جماعة اجتمعوا في ختمة وهم يقرأون لعاصم وأبي عمرو فإذا وصلوا إلى سورة الضحى لم يهللوا ولم يكبروا إلى آخر الختمة ، ففعلهم ذلك هو الأفضل أم لا ؟ .

وهل الحديث الذي ورد في التهليل والتكبير صحيح بالتواتر أم لا ؟ .

فأجاب :

الحمد لله . نعم إذا قرأوا بغير حرف ابن كثير كان تركهم لذلك هو الأفضل ، بل المشروع والمسنون ، فإن هؤلاء الأئمة من القراء لم يكونوا يكبرون لا من أوائل السور ولا من أواخرها .

فإن جاز لقائل أن يقول : إن ابن كثير [1] نقل التكبير عن رسول الله ﷺ جاز لغيره أن يقول: إن هؤلاء نقلوا تركه عن رسول الله ﷺ؛ إذ من الممتنع أن تكون قراءة الجمهور التي نقلها أكثر من قراءة ابن كثير قد أضاعوا فيها ما أمرهم به رسول الله ﷺ فإن أهل التواتر لا يجوز عليهم كتمان ما تتوفر الهمم والدواعي إلى نقله ، فمن جوز على جماهير القراء أن رسول الله ﷺ أقرأهم بتكبير زائد ، فعصوا لأمر رسول الله ﷺوتركوا ما أمرهم به استحق العقوبة البليغة التي تردعه وأمثاله عن مثل ذلك .

وأبلغ من ذلك البسملة ، فإن من القراء من يفصل بها ومنهم من لا يفصل بها ، وهي مكتوبة في المصاحف ، ثم الذين يقرأون بحرف من لا يبسمل لا يبسملون ، ولهذا لا ينكر عليهم ترك البسملة إخوانهم من القراء الذين يبسملون فكيف ينكر ترك التكبير على من يقرأ قراءة الجمهور ؟

وليس التكبير مكتوباً [2] في المصاحف ،وليس هو في القرآن باتفاق المسلمين ، ومن ظن أن التكبير من القرآن فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل .

بخلاف البسملة فإنها من القرآن حيث كتبت في مذهب الشافعي [3] ،

---

(١) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي البصري ثم الدمشقي أبو الفداء . عماد الدين ، حافظ ، مؤرخ ، فقيه ، ولد في قرية من أعمال بصري بالشام عام ٧٠١ هـ وانتقل مع أبيه إلى دمشق سنة ٧٠٦ هـ ورحل في طلب العلم ، وتوفي بدمشق عام ٧٧٤ هـ من كتبه « البداية والنهاية » في التاريخ على نسق الكامل لابن الأثير انتهى فيه الى حوادث ٧٦٧ ، وشرح صحيح البخاري لم يكمله ، وطبقات الشافعية ، وتفسير القرآن الكريم ، وجامع المسانيد ، والباعث الحثيث الى معرفة علوم الحديث » [راجع ذيلا طبقات الحفاظ للحسيني والسيوطي ، والدرر الكامنة ١ : ٣٧٣ والبدر الطالع ١ : ١٥٣ وشذرات الذهب ٦ : ٢٣١ وآداب اللغة ٣ : ١٩٣] .

(٢) في (ب) مثبوتاً بدلاً من (مكتوبا) .

(٣) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

وهو مذهب أحمد المنصوص عنه في غير موضع وهو مذهب أبي حنيفة [١] عند المحققين من أصحابه وغيرهم من الأئمة .

لكن مذهب أبي حنيفة وأحمد وغيرهما أنها من القرآن حيث كتبت البسملة وليست من السورة ، ومذهب مالك ليست من القرآن إلا في سورة النمل [٢] ، وهو قول في مذهب أبي حنيفة وأحمد .

ومع هذا فالنزاع فيها من مسائل الاجتهاد ، فمن قال : هي من القرآن حيث كتبت ، أو قال : ليست هي من القرآن إلا في سورة النمل كان قوله من الأقوال التي ساغ فيها الاجتهاد وأما التكبير فمن قال : إنه من القرآن فإنه ضال باتفاق الأئمة والواجب أن يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل ، فكيف مع هذا ينكر على من تركه ؟ .

ومن جعل تارك التكبير مبتدعاً أو مخالفاً للسنة أو عاصياً فإنه إلى الكفر أقرب منه إلى الإسلام ، والواجب [٣] عقوبته بل إن أصر على ذلك بعد وضوح [٤] الحجة وجب قتله . ولو قدر [٥] أن النبي ﷺ أمر بالتكبير لبعض من أقرأه كان غاية ذلك يدل على جوازه ، أو استحبابه فإنه لو كان واجباً لما أهمله جمهور القراء ، ولم يتفق أئمة المسلمين على عدم وجوبه ، ولم ينقل أحد من أئمة الدين أن التكبير واجب ، وإنما غاية من يقرأ بحرف ابن كثير أن يقول : إنه مستحب ، وهذا خلاف البسملة ، فإن قراءتها واجبة عند من يجعلها من القرآن ومع هذا فالقراء يسوغون ترك قراءتها لمن لم ير الفصل

---

(١) سبق الترجمة له في هذا الجزء .

(٢) يقصد قول الله تعالى في سورة النمل : ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آية رقم ٣٠ .

(٣) سقط من (ب) جملة (والواجب عقوبته) .

(٤) في (أ) بزيادة جملة (وضوح الحجة) .

(٥) سقط من (ب) لفظ (قدر) .

بها ، فكيف لا يسوغ ترك التكبير لمن ليس داخلاً في قراءته ؟!

وأما ما يدعيه بعض القراء من التواتر في جزئيات الأمور فليس هذا موضع تفصيله .

وسئل عمن يقول :

عن الإمام مالك [1] أنه قال : من كتب مصحفاً على غير رسم المصحف العثماني فقد أثم ، أو قال : كفر .

فهل هذا صحيح ؟ وأكثر المصاحف اليوم على غير المصحف العثماني .

فهل يحل لأحد كتابته على غير المصحف العثماني بشرط ألا يبدل لفظاً ، ولا يغير معنى ، أم لا ؟ .

فأجاب :

أما هذا النقل عن مالك في تكفير من فعل ذلك فهو كذب على مالك ، سواء أريد به رسم الخط أو رسم اللفظ ، فإن مالكاً كان يقول عن أهل الشورى إن لكل منهم مصحفاً يخالف رسم مصحف عثمان .

وهم أجل من أن يقال فيهم مثل هذا الكلام .

وهم : علي بن أبي طالب ، والزبير ، وطلحة ، وسعد وعبد الرحمن بن عوف مع عثمان .

---

(١) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري أبو عبد الله إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه تنسب المالكية ، مولده ووفاته في المدينة ٩٣ ـ ١٧٩ هـ كان صلباً في دينه بعيداً عن الأمراء والملوك ، وشي به الى جعفر عم المنصور العباسي فضربه سياطاً انخلعت لها كتفه من كتبه « الموطأ » وله رسالة في الوعظ ، ورسالة في الرد على القدرية ، وتفسير غريب القرآن . [راجع الديباج المذهب ١٧ ـ ٣٠ والوفيات ١ : ٤٣٩ وتهذيب التهذيب ١٠ : ٥] .

وأيضاً : فلو قرأ رجل بحرف من حروفهم التي تخرج عن مصحف عثمان ففيه روايتان عن مالك وأحمد ، وأكثر العلماء يحتجون بما ثبت من ذلك عنهم ، فكيف يكفر فاعل ذلك ؟! .

وأما اتباع رسم الخط بحيث يكتب بالكوفي فلا يجب عند أحد من المسلمين ، وكذلك اتباعه فيما كتبه بالواو والألف هو حسن لفظ رسم خط الصحابة .

وأما تكفير من كتب ألفاظ المصحف بالخط الذي اعتاده فلا أعلم أحداً قال بتكفير من فعل ذلك .

لكن متابعة خطهم أحسن .

هكذا نقل مالك وغيره .

والله أعلم .

وسئل :

عن قوم يقرأون القرآن ويلحنون فيه ، فأنكر عليهم منكر ، فقال قائل منهم : كل لحنة بعشر حسنات ؟ فأجاب :

الحمد لله : إذا قدروا على تصحيح صححوا ، وإن عجزوا عن ذلك فلا بأس بذلك حسب استطاعتهم .

وسئل :

عن رجل يتلو القرآن مخافة النسيان ، ورجاء الثواب فهل يؤجر على قراءته للدراسة ، ومخافة النسيان أم لا ؟ وقد ذكر رجل ممن ينسب الى العلم أن القارىء إذا قرأ للدراسة مخافة النسيان أنه لا يؤجر ، فهل قوله صحيح ، أم لا ؟ . فأجاب :

بل إذا قرأ القرآن لله تعالى فإنه يثاب على ذلك بكل حال ولو قصد بقراءته أنه يقرأه لئلا ينساه ، فإن نسيان القرآن من الذنوب ، فإذا قصد بالقرآن أداء الواجب عليه من دوام حفظه للقرآن ، واجتناب ما نهى عنه من إهماله حتى ينساه فقد قصد طاعة الله ، فكيف لا يثاب ! .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : استذكروا القرآن فلهو أشد تفلتا من صدور الرجال من النعم من عقلها .

وقال ﷺ « عرضت عليَّ سيئات أمتي فرأيت من مساوىء أعمالها الرجل يؤتيه الله آية من القرآن فينام عنها حتى ينساها » .

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه إلا غشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة وحفت بهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

والله أعلم .

فصل في
أسماء القرآن الكريم وصفاته *

القرآن ، الفرقان . الكتاب ، الهدى ، النور ، الشفاء ، البيان ، الموعظة ، الرحمة ، بصائر ، البلاغ ، الكريم ، المجيد ، العزيز ، المبارك ، التنزيل ، المنزل ، الصراط المستقيم ، حبل الله ، الذكر ، الذكرى ، تذكرة ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) ﴿ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ (٢) ﴿ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (٣) و ﴿ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (٤) المهيمن عليه ، ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٥) ، ﴿ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٦) المتشابه المثاني ، الحكيم ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ ﴾ (٧) محكم ، المفصل ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ (٨) ، البرهان ، ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِن رَبِّكُمْ

---

* كل ما ذكره الشيخ ابن تيمية بعد ذلك من صفات وأسماء فهي حق وصدق ودلت عليها آيات الكتاب العزيز واذا كان ذلك كذلك فلا مزايدة لمتزيد ولا مقالة لقائل .
والواجب أن نتبع آيات الكتاب العزيز فهي المنهج والدستور لمن رضي بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد ـ ﷺ ـ نبياً ورسولاً .

(١) سورة الحاقة آية رقم ٤٨ .
(٢) سورة المدثر آية رقم ٥٤ ـ ٥٥
(٣) سورة الأنعام آية رقم ٩٢ .
(٤) سورة يوسف آية رقم ١١١ .
(٥) سورة يوسف آية رقم ١١١ .
(٦) سورة النحل آية رقم ٨٩ .
(٧) سورة لقمان آية رقم ٢ .
(٨) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ﴾ [1] على أحد القولين ، الحق ﴿ قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ مِن رَبِّكُمْ ﴾ [2] عربي مبين ، أحسن الحديث ، أحسن القصص على قول ، كلام الله ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ [3] ، العلم ، ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ ﴾ [4] ، العلي الحكيم ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [5] ، القيم ، ﴿ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [6] ﴿ أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجاً قَيِّماً ﴾ [7] ، وحي في قوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [8] ، حكمة في قوله ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِنَ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ [9] ، وحُكماً في قوله : ﴿ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً ﴾ [10] ونبأ على قول في قوله ﴿ عَنِ النَّبَإِ العَظِيمِ ﴾ [11] ، ونذير على قول ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ ﴾ [12] في حديث أبي موسى شافعاً مشفعاً وشاهداً مصدقاً ، وسماه النبي ﷺ « حجة لك أو عليك » وفي حديث الحارث عن علي « عصمة لمن استمسك به » .

وأما وصفه بأنه يقص وينطق ويحكم ويفتي ويبشر ويهدي فقال :

﴿ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [13] ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم ﴾ [14] ﴿ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ ﴾ [15] أي يفتيكم أيضاً ﴿ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ ﴾ [16].

---

(1) سورة النساء اية رقم ١٧٤ .
(2) سورة يونس آية رقم ١٠٨ .
(3) سورة التوبة آية رقم ٦ .
(4) سورة آل عمران آية رقم ٦١ .
(5) سورة الزخرف آية رقم ٤ .
(6) سورة البينة آية رقم ٢ -٣ .
(7) سورة الكهف آية رقم ١ ـ ٢
(8) سورة النجم آية رقم ٤ .
(9) سورة القمر آية رقم ٤ ـ ٥ .
(10) سورة الرعد آية رقم ٣٧ .
(11) سورة النبأ آية رقم ٢ .
(12) سورة النجم آية رقم ٥٦ .
(13) سورة النمل آية رقم ٧٦ .
(14) سورة الجاثية آية رقم ٢٩ .
(15) سورة النساء آية رقم ١٢٧ .
(16) سورة الإسراء آية رقم ٩ .

فصل

في الآيات الدالة على اتباع القرآن

في الآيات الدالة على اتباع القرآن .

قوله : ﴿ إِهْدِنَا الصِّـرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [1] فإنـه في التفسير المـرفوع عن النبي ﷺ كتاب الله .

---

(١) قال أبو جعفر : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم « هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ، وكذلك في لغة جميع العرب . فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفي :

أمـيـر الـمـؤمـنـيـن عـلـى صـراط إذا اعـوجّ الـمـوارد مـسـتـقـيـم

يريد : على طريق الحق ، ومنه قول الهذلي أبي ذُؤيب :

صـبـحـنـا أرضـهـم بـالـخـيـل حـتـى تـركـنـاهـا أدق مـن الـصـراطِ

فصل

في إياك نعبد وإياك نستعين

وأما حديث فاتحة الكتاب فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ قال الله : حمدني عبدي ، وإذا قال : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال الله : أثنى علي عبدي ، وإذا قال ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال الله : مجدني عبدي . وإذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال : هذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ قال :« هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل » [1] وثبت في صحيح مسلم عن ابن عباس قال : « بينما

---

(١) الحديث رواه مالك في الموطأ ٨٤ ـ ٨٥ عن العلاء بن عبد الرحمن ، بهذا الاسناد « عن محمد بن اسحاق ، قال : حدثني العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب ، عن أبي السائب مولى زُهرة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ وذكره ـ مرفوعاً ، وكفى بمالك حجة في التوثق ، من رفعه لفظاً فوق رفعه حكماً ، وكذلك رواه مسلم ١ : ١٦٦ (٤ : ١٠١ ـ ١٠٤) من شرح النووي من طريق مالك ، ومن طريق سفيان بن عيينة ، ومن طريق ابن جريج ، ومن طريق أبي أويس ـ كلهم عن العلاء بن السائب ، به مرفوعاً ـ وزاد أبو أويس عن العلاء قال : سمعت من أبي ومن أبي السائب وكانا جليسي أبي هريرة . . فذكره مرفوعاً ، ونسبه السيوطي ١ : ٦ لسفيان بن عيينة في تفسيره ، وأبي عبيدة في فضائله ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، والبخاري في جزء القراءة ، وأصحاب السنن الأربعة ، وابن حبان وغيرهم ـ وذكر ابن كثير ١ : ٢٤ ـ ٢٥ بعض طرقه مفصلة .

جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض ، ولم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته »[1] وفي بعض الأحاديث : « إن فاتحة الكتاب أعطيها من كنز تحت العرش »[2] .

---

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب ـ صلاة المسافرين وقصرها ٤٣ باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحث على قراءة الآيتين من آخر البقرة ٢٥٤ ـ ٨٠٦ ـ حدثنا أبو الأحوص ، عن عمار بن رزيق ، عن عبد الله بن عيسى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ وذكره .

(٢) روى الامام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ فاتحة الكتاب ، وآية الكرسي ، وشهد الله أنه لا إله إلا هو ، وقل اللهم مالك الملك » .
هذه الآيات معلقات بالعرش ليس بينهن وبين الله حجاب . أسنده أبو عمرو الداني في كتاب البيان له .
وذكره الامام القرطبي في فضائل وأسماء سورة الفاتحة ١ : ١١١ .

فصل

فاتحة الكتاب

قال الله تعالى : في أم القرآن والسبع المثاني والقرآن العظيم : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وهذه السورة هي أم القرآن ، وهي فاتحة الكتاب ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم ، وهي الشافية وهي الواجبة في الصلوات لا صلاة إلا بها ، وهي الكافية تكفي من غيرها ولا يكفي غيرها عنها .

والصلاة أفضل الأعمال ، وهي مؤلفة من كلم طيب وعمل صالح ؛ أفضل كلمها الطيب وأوجبه القرآن وأفضل عملها الصالح وأوجبه السجود كما جمع بين الأمرين في أول سورة أنزلها على رسوله حيث افتتحها بقوله تعالى : ﴿ إقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (١) وختمها بقوله : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ (٢) فوضعت الصلاة على ذلك أولها القراءة وآخرها السجود .

ولهذا قال سبحانه في صلاة الخوف : ﴿ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ ﴾ (٣) والمراد بالسجود الركعة التي يفعلونها وحدهم بعد مفارقتهم للإمام ، وما قبل القراءة من تكبير واستفتاح واستعاذة ، هي تحريم للصلاة ، ومقدمة لما بعده ، أول ما يبتدىء به كالتقدمة ، وما يفعل بعد السجود من

---

(١) سورة العلق آية رقم ١ .
(٢) سورة العلق آية رقم ١٩ .
(٣) سورة النساء آية رقم ١٠٢ .

قعود ، وتشهد فيه التحية لله ، والسلام على عباده الصالحين والدعـاء والسلام على الحاضرين ، فهو تحليل للصلاة ومعقبة لما قبله ، قال النبي ﷺ « مفتـاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم » (١) .

ولهذا لما تنازع العلماء أيما أفضل كثرة الركوع والسجود أو طـول القيام أو هما سواء ؟ على ثلاثة أقوال عند أحمد وغيره : كان الصحيح أنهما سواء ، القيـام فيه أفضـل الأذكار ، والسجـود أفضل الأعمـال فاعتـدلا ، ولهذا كـانت صـلاة رسول الله ﷺ معتـدلة ، يجعـل الأركان قـريباً من السـواء ، وإذا أطال القيام طولاً كثيراً ـ كما كان يفعل في قيـام الليل وصـلاة الكسوف ـ أطـال معه الركوع والسجود ، وإذا اقتصد فيه اقتصد في الـركوع والسجـود وأم الكتاب ، كمـا أنها القـراءة الواجبـة فهي أفضـل سـورة في القـرآن . قـال النبي ﷺ في الحـديث الصحيح « لم ينـزل في التوراة ولا الإنجيـل ولا الـزبـور ولا القـرآن مثلهمـا ، وهي السبع المثـاني والقرآن العـظيم الذي أوتيتـه » (٢) . وفضائلهـا كثيرة جدا .

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي ٣ باب ما جاء أن مفتاح الصلاة الطهور (أبواب الطهارة) بسنده عن علي عن النبي ـ ﷺ وذكره ـ .
قال أبو عيسى : هذا الحديث أصح شيء في هذا الباب وأحسن ، وعبد الله بن محمد بن عقيل هو صدوق ، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه
قال أبو عيسى : وسمعت محمد بن اسماعيل يقول : كان أحمد بن حنبل واسحاق بن ابراهيم ، والحميدي يحتجون بحديث عبد الله بن محمد بن عقيل . قال محمد : وهو مقارب الحديث .
قال أبو عيسى : وفي الباب عن جابر وأبي سعيد . ورواه الامام أحمد في المسند ٤ : ٣٥١ ، ورواه ابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها ٣ باب مفتاح الصلاة الطهور ٢٧٥ حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن أبيه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

(٢) الحديث أخرجه صاحب الموطأ في كتاب الصلاة ٨ باب ما جاء في أم القرآن ٣٧ ـ عن مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب . أن أبا سعيد مولى عامر بن كريز ، أخبره أن رسول =

وقد جاء مأثوراً عن الحسن البصري رواه ابن ماجه وغيره : أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب ، جمع علمها في الأربعة . وجمع علم الأربعة في القرآن ، وجمع علم القرآن في المفصل ، وجمع المفصل في أم القرآن ، وجمع أم القرآن في هاتين الكلمتين ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وإن علم الكتب المنزلة من السماء اجتمع في هاتين الكلمتين الجامعتين [1] .

ولهذا ثبت في الحديث الصحيح حديث : إن الله تعالى يقول : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين : نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل . فإذا قال ﴿ الحَمْدُ لله ربِّ العَالَمِينَ ﴾ قال الله : حمدني عبدي ، وإذا قال : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال الله أثنى عليَّ عبدي ، وإذا قال ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال الله عز وجل : مجدني عبدي ، وفي رواية : فوض إليَّ عبدي ، وإذا قال ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال : فهذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، فإذا قال : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ قال : « فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل » [2] .

= الله - ﷺ - نادى أبي بن كعب وهو يصلي ، فلما فرغ من صلاته لحقه . فوضع رسول الله - ﷺ - يده على يده ، وهو يريد أن يخرج من باب المسجد فقال : إني لأرجو أن لا تخرج من المسجد حتى تعلم سورة . وذكره وأخرج البخاري مثل هذه القصة عن أبي سعيد المعلى في : ٦٥ كتاب التفسير ١ باب ما جاء في فاتحة الكتاب وأخرجه الترمذي في ٤٦ - كتاب فضائل القرآن (١) باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب ٨٧٥ ، بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .
قال : وفي الباب عن أنس ، وفيه عن أبي سعيد بن المعلى .

(١) زيادة في ب .

(٢) الحديث رواه ابن جرير في تفسيره ٢٢٤ / ١ / ٢٠٠ - حدثني صالح بن مسمار المروزي ، قال : حدثنا زيد بن الحُباب ، قال : حدثنا عنبسة بن سعيد، عن مطرف بن طريف عن سعد ابن اسحاق بن كعب بن عجرة ، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : قال رسول الله - ﷺ - =

فقد ثبت بهذا النص أن هذه السورة منقسمة بين الله وبين عبده وأن هاتين الكلمتين مقتسم السورة ، فـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ مع ما قبله لله ، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ مع ما بعده للعبد وله ما سأل . ولهذا قال من قال من السلف : نصفها ثناء ونصفها مسألة ، وكل واحد من العبادة والاستعانة دعاء . وإذا كان الله قد فرض علينا أن نناجيه وندعوه بهاتين الكلمتين في كل صلاة ، فمعلوم أن ذلك يقتضي أنه فرض علينا أن نعبده وأن نستعينه ؛ إذ إيجاب القول الذي هو إقرار واعتراف ودعاء وسؤال هو إيجاب لمعناه ليس إيجاباً لمجرد لفظ لا معنى له ، فإن هذا لا يجوز أن يقع ؛ بل إيجاب ذلك أبلغ من إيجاب مجرد العبادة والاستعانة ، فإن ذلك قد يحصل أصله بمجرد القلب ، أو القلب والبدن ، بل أوجب دعاء الله عز وجل ومناجاته ، وتكليمه ومخاطبته بذلك ليكون الواجب من ذلك كاملا صورة ومعنى بالقلب وبسائر الجسد .

وقد جمع بين هذين الأصلين الجامعين إيجاباً وغير إيجاب في مواضع ، كقوله في آخر سورة هود : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (١) وقول العبد الصالح شعيب : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٢) وقول ابراهيم والذين معه : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (٣) وقوله سبحانه إذ أمر رسوله أن يقول ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ (٤) .

وذكره ـ وذكره السيوطي ١ : ٦ ونسبه لابن جرير ، وابن أبي حاتم في تفسيريهما ، وذكره ابن كثير ١ : ٢٥ نقلاً عن الطبري .

(١) سورة هود اية رقم ١٢٣ .
(٢) سورة هود آية رقم ٨٨ .
(٣) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .
(٤) سورة الرعد آية رقم ٣٠ .

فأمر نبيه بأن يقول : على الرحمن توكلت وإليه متاب ، كما أمره بهما في قوله ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ والأمر له أمر لأمته وأمره بذلك في أم القرآن وفي غيرها لأمته ليكون فعلهم ذلك طاعة لله وامتثالا لأمره ، ولا يتقدموا بين يدي الله ورسوله ، ولهذا كان عامة ما يفعله نبينا ﷺ والخالصون من أمته من الأدعية والعادات وغيرها إنما هو بأمر من الله ، بخلاف من يفعل ما لم يؤمر به وإن كان حسناً أو عفواً ، وهذا أحد الأسباب الموجبة لفضله وفضل أمته على من سواهم ، وفضل الخالصين من أمته على المشوبين الذين شابوا ما جاء به بغيره ، كالمنحرفين عن الصراط المستقيم .

وإلى هذين الأصلين كان النبي ﷺ يقصد في عباداته وأذكاره ومناجاته ، مثل قوله في الأضحية « اللهم هذا منك ولك » [(١)] فإن قوله : « منك » هو معنى التوكل والاستعانة ، وقوله : « لك » هو معنى العبادة ، ومثل قوله في قيامه من الليل « لك أسلمت ، وبك آمنت وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني ، أنت الحي الذي لا تموت ، والجن والإنس يموتون » [(٢)] إلى أمثال ذلك .

---

(١) الحديث رواه أبو داود ١٢٦٣ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه وفيه : أن النبي ـ ﷺ : ذبح يوم الذبح كبشين أقرنين وأن ما قاله عند ذلك « اللهم منك ولك عن محمد وأمته » ورواه جامع الأصول ٤ : ١٤٨ ـ ١٤٩ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه مسلم ـ في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٢٦ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ـ ١٩٩ ـ عن مالك بن أنس ، عن أبي الزبير ، عن طاوس ، عن ابن عباس ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول : إذا قام الى الصلاة من جوف الليل « اللهم لك الحمد . أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد . أنت قيام السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن أنت الحق ، ووعدك الحق وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق وذكره ورواه الترمذي في كتاب الدعوات ٢٩ باب ما يقول إذا قام من الليل الى الصلاة ٣٤١٨ بسنده عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما وذكره . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .
وقد روي من غير وجه عن ابن عمر عن النبي ـ ﷺ .

إذا تقرر هذا الأصل فالإنسان في هذين الواجبين لا يخلو من أحوال أربعة هي القسمة الممكنة ، إما أن يأتي بهما ، وإما أن يأتي بالعبادة فقط ، وإما أن يأتي بالإستعانة فقط ، وإما أن يتركهما جميعاً .

ولهذا كان الناس في هذه الأقسام الأربعة ، بل أهل الديانات هم أهل هذه الأقسام ، وهم المقصودون هنا بالكلام .

قسم يغلب عليه التأله لله ومتابعة الأمر والنهي والإخلاص لله تعالى ، واتباع الشريعة في الخضوع لأوامره وزواجره وكلماته الكونيات ، لكن يكون منقوصاً من جانب الاستعانة والتوكل فيكون إما عاجزاً وإما مفرطاً ، وهو مغلوب إما مع عدوه الباطن ، وإما مع عدوه الظاهر ، وربما يكثر منه الجزع مما يصيبه ، والحزن لما يفوته ، وهذا حال كثير ممن يعرف شريعة الله وأمره ، ويرى أنه متبع للشريعة وللعبادة الشرعية ، ولا يعرف قضاءه وقدره ، وهو حسن القصد طالب للحق ، لكنه غير عارف بالسبيل الموصلة والطريق المفضية .

وقسم يغلب عليه قصد الاستعانة بالله والتوكل عليه ، وإظهار الفقر والفاقة بين يديه ، والخضوع لقضائه وقدره وكلماته الكونيات ، لكن يكون منقوصاً من جانب العبادة وإخلاص الدين لله ، فلا يكون مقصوده أن يكون الدين كله لله ، وإن كان مقصوده ذلك فلا يكون متبعاً لشريعة الله عز وجل ومنهاجه ، بل قصده نوع سلطان في العالم ، إما سلطان قدرة وتأثير ، وإما سلطان كشف وإخبار ، أو قصده طلب ما يريده ، ودفع ما يكرهه ، بأي طريق كان ، أو مقصوده نوع عبادة وتأله بأي وجه كان همته في الاستعانة والتوكل المعينة له على مقصوده ، فيكون إما جاهلاً ، وإما ظالما تاركاً لبعض ما أمره الله به ، راكباً لبعض ما نهى الله عنه ، وهذه حال كثير ممن يتأله ويتصوف ويتفقر ، ويشهد قدرة الله وقضاءه ، ولا يشهد أمر الله ونهيه ، ويشهد قيام الأكوان بالله وفقرها إليه ، وإقامته لها ولا يشهد ما أمر به

وما نهى عنه وما الذي يحبه الله منه ويرضاه ، وما الذي يكرهه منه ويسخطه .

ولهذا يكثر في هؤلاء من له كشف وتأثير وخرق عادة مع انحلال عن [١] بعض الشريعة ومخالفة لبعض الأمر ، وإذا أوغل الرجل منهم دخل في الإباحية والانحلال ، وربما صعد إلى فساد التوحيد فيخرج إلى الاتحاد والحلول المقيد ، كما قد وقع لكثير من الشيوخ ، ويوجد في كلام صاحب « منازل السائرين » [٢] وغيره ما يفضي إلى ذلك .

وقد يدخل بعضهم في « الاتحاد المطلق والقول بوحدة الوجود » فيعتقد أن الله هو الوجود المطلق ، كما يقول صاحب « الفتوحات المكية » [٣] في أولها :

الرب حق والعبد حق ... يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك ميت ... أو قلت رب أنى يكلف [٤]

---

(١) يراجع فتوى للامام الغزالي في هؤلاء الذين يتحللون من تكاليف الشريعة الإسلامية . وهذه الفتوى ذكرها « تاج الدين السبكي » المتوفى سنة ٧٧١ هـ في كتابه (طبقات الشافعية) وهي موجودة في كتاب « سيرة الغزالي للاستاذ عبد الكريم العثماني » وفي المقدمة التي كتبها الأستاذ الدكتور سليمان دنيا لكتاب « فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة » وذكرها الدكتور عبد الحليم محمود في مقدمة كتاب المنقذ من الضلال ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

(٢) هذا الكتاب للشيخ عبد الله بن محمد بن اسماعيل الأنصاري الهرويُ ت سنة ٤٨١ هـ وهو كتاب في أحوال السلوك . وقد شرحه جماعة منهم الشيخ كمال الدين عبد الرزاق (الكاشي ت سنة ٧٣٠ هـ لغياث الدين محمد بن رشد الدين محمد بن محمد بن طاهر الوزير ، وشرحه شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي المتوفى سنة ٧٥١ هـ وسماه مدارج السالكين ـ وهو شرح مبسوط ، وعلق عليه أبو طاهر محمد بن أحمد القيسي المتوفى سنة ٧٤٧ هـ .

(٣) الفتوحات المكية : في معرفة أسرار المالكية والملكية ـ مجلدات للشيخ محيى الدين محمد ابن علي المعروف بالطائي ت سنة ٦٣٨ هـ واختصرها الشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعراني المتوفى سنة ٩٧٣ وسماه لواقح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المكية ، ثم لخص ذلك التلخيص ثانياً وسماه الكبريت الأحمر من علوم الشيخ الأكبر . الخ . [راجع كشف الظنون جـ ٢ ص ١٢٣٨] .

(٤) هذه الأبيات لمحيي الدين بن عربي الصوفي والفيلسوف وهي تكاد تعبر عما يدعيه من « وحدة الوجود » راجع كتابه الفتوحات المكية ١ : ٢ ط بولاق .

وقسم ثالث معرضون عن عبادة الله وعن الاستعانة به جميعاً . وهم فريقان : أهل دنيا وأهل دين ، فأهل الدين منهم أهل الدين الفاسد الذين يعبدون غير الله ، ويستعينون غير الله بظنهم وهواهم . . ؟ ﴿ **إن يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُم مِن رَبِّهِمُ الهُدَىٰ** ﴾ [1] وأهل الدنيا منهم الذين يطلبون ما يشتهونه من العاجلة بما يعتقدونه من الأسباب .

وأعلم أنه يجب التفريق بين من قد يعرض عن عبادة الله والاستعانة به ، وبين من يعبد غيره ويستعين بسواه .

---

(١) سورة النجم آية رقم ٢٣ .

فصل

في معنى : الحمد لله رب العالمين

قال الله عز وجل في أول السورة : ﴿ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ فبدأ بهذين الاسمين : الله ، والرب ، و« الله » هو الإله المعبود ، فهذا الاسم أحق بالعبادة ، ولهذا يقال : الله أكبر ، الحمدلله ، سبحان الله لا إله إلا الله ، و« الرب » [1] هو المربي الخالق الرازق الناصر الهادي ، وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة .

ولهذا يقال : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ [2] ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [3] ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ [4] ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾ [5] ﴿ رَبَّنَا لَا

---

(١) الرب في كلام العرب منصرف على معان ، فالسيد المطاع فيهم يدعى رباً ومن ذلك قول لبيد ابن ربيعة :

وأهلكم يوماً ربَّ كندة وابنه ... وربَّ معدٍ بين خَبْت وعَرْعَرِ

يعني برب كندة : سيد كنده ومنه قول نابغة بني ذبيان :

تخب إلى النعمان حتى تناله ... فدى لك من ربٍّ طريفي وتالدي

والرجل المصلح للشيء يُدعى رباً ومنه قول الفرزدق بن غالب:

كانوا كسالئة حمقاً إذ حقنت ... سلاءها في أديم غير مربوب

(٢) سورة ابراهيم آية رقم ٤١ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٢٣ .

(٤) سورة القصص آية رقم ١٦ .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٤٧ .

تُؤَاخِذْنَا إن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [1] ، فعامة المسألة والاستعانة المشروعة باسم الرب .

فالاسم الأول يتضمن غاية العبد ومصيره ومنتهاه ، وما خلق له وما فيه صلاحه وكماله ، وهو عبادة الله ، والاسم الثاني يتضمن خلق العبد ومبتداه ، وهو أنه يربه ويتولاه ، مع أن الثاني يدخل في الأول دخول الربوبية في الإلهية والربوبية تستلزم الألوهية أيضاً . والاسم « الرحمن » يتضمن كمال التعلقين ، وبوصف الحالين فيه تتم سعادته في دنياه وأخراه .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [2] فذكر هنا الأسماء الثلاثة : ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ و﴿ رَبِّي ﴾ و ﴿ الإله ﴾ وقال : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ كما ذكر الأسماء الثلاثة في أم القرآن ؛ لكن بدأ هناك باسم الله ؛ ولهذا بدأ في السورة بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فقدم الاسم وما يتعلق به من العبادة : لأن تلك السورة فاتحة الكتاب وأم القرآن ، فقدم فيها المقصود الذي هو العلة الغائية ، فإنها علة فاعلية للعلة الغائية وقد بسطت هذا المعنى في مواضع ؛ في أول « التفسير » وفي « قاعدة المحبة والإرادة » وفي غير ذلك .

---

(١) سورة البقرة اية رقم ٢٨٦ .
(٢) سورة الرعد آية رقم ٣٠ .

فصل
في (توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية)

ولما كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم إلى الرب قبل علمهم بحاجتهم وفقرهم إلى الإله المعبود ، وقصدهم لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة ، كان إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته ، وكان الدعاء له والاستعانة به والتوكل عليه فيهم أكثر من العبادة له ، والإنابة إليه .

ولهذا إنما بعث الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، الذي هو المقصود المستلزم للإقرار بالربوبية ، وقد أخبر عنهم ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله** ﴾ [1] ، وإنهم إذا مسهم الضر ضل من يدعون إلا إياه وقال : ﴿ **وَإِذَا غَشِيَهُم مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ [2] فأخبر أنهم مقرون بربوبيته ، وأنهم مخلصون له الدين إذا مسهم الضر في دعائهم واستعانتهم ، ثم يعرضون عن عبادته في حال حصول أغراضهم .

وكثير من المتكلمين إنما يقررون الوحدانية من جهة الربوبية ، وأما الرسل فهم دعوا إليها من جهة الألوهية ، وكذلك كثير من المتصوفة المتعبدة وأرباب الأحوال إنما توجههم إلى الله من جهة ربوبيته ، لما يمدهم به في

---

(١) سورة الزخرف آية رقم ٨٧ وقد جاءت الآية في المطبوعة محرفة حيث ذكرت (لئن) بدون الواو .

(٢) سورة لقمان آية رقم ٣٢ .

الباطن من الأحوال التي بهـا يتصرفـون وهؤلاء من جنس الملوك ، وقد ذمّ الله عز وجل في القرآن هذا الصنف كثيراً ، فتدبر هذا فإنه تتكشف بـه أحوال قـوم يتكلمـون في الحقائق ، ويعـملون عليها ، وهم لعمـري في نوع من الحقـائق الكونية القدرية الربوبية لا في الحقائق الدينية الشـرعية الإلهيـة ، وقد تكلمت على هذا المعنى في مواضع متعددة [1] وهو أصل عظيم يجب الاعتناء به والله سبحانه أعلم [2] .

---

(١) راجع ما كتبه الامام ابن تيمية في كتاب (توحيد الربوبية) مجموع فتاوى الاسلام احمد بن تيمية المجلد الثاني : وكتاب شرح العقيدة الطحاوية الجزء الأول بتحقيقنا (توحيد الألوهية والربوبية) .

(٢) راجع ما كتبه ابن تيمية في هذا الموضوع . في الرسالة التدمرية والفر¨ ن بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

فصل

(الإنسان ليس له من نفسه إلا العدم)

وذلك أن الإنسان بل وجميع المخلوقات عباد الله تعالى فقراء إليه مماليك له ، وهو ربهم ومليكهم له ، وهو ربهم ومليكهم وإلههم ، لا إله إلا هو ، فالمخلوق ليس له من نفسه شيء أصلا ، بل نفسه وصفاته وأفعاله وما ينتفع به أو يستحقه وغير ذلك إنما هو من خلق الله ، والله عز وجل رب ذلك كله ومليكه ، وبارئه ، وخالقه ، ومصوره .

وإذا قلنا ليس له من نفسه إلا العدم ، فالعدم[1] ليس هو شيئاً يفتقر إلى فاعل موجود ، بل العدم ليس بشيء ، وبقاؤه مشروط بعدم فعل الفاعل ، لا أن عدم الفاعل يوجبه ويقتضيه كما يوجب الفاعل المفعول الموجود ، بل قد يضاف عدم المعلول إلى عدم العلة ، وبينهما فرق ، وذلك أن المفعول الموجود إنما خلقه وأبدعه الفاعل ، وليس المعدوم أبدعه عدم الفاعل ، فإنه يفضي إلى التسلسل والدور[2] ؛ ولأنه ليس اقتضاء أحد العدمين للآخر بأولى

---

(١) العدم : فقدان الشيء ما تقتضيه طبيعته من الكمالات الثابتة لنوعه وطبيعته ، وهو عدم اضافي لا عدم مطلق ، ويطلق عند المنطقيين على وقوع النسبة بين محمول وموضوع ليس من شأنه أن يكون له ذلك المحمول ، ولا أن يؤدي انتفاؤه عنه الى نقص في ماهيته .
والعدمي : هو المنسوب الى العدم ، ويطلق على كل حد يدل فقدان الشيء لإحدى الصفات التي تقتضيها طبيعته كالعمى للانسان ، وكل شيء مصيره الى الزوال .
والقضية العدمية : هي التي محمولها أخس المتقابلين .

(٢) الدور في اللغة : عود الشيء الى ما كان عليه ، والدور في المنطق علاقة بين حدين يمكن تعريف كل منهما بالآخر ، أو علاقة بين قضيتين يمكن استنتاج كل منهما من الأخرى ، أو =

من العكس ، فإنه ليس أحد العدمين مميزاً لحقيقة استوجب بها أن يكون فاعلا ، وإن كان يعقل أن عدم المقتضي أولى بعدم الأثر من العكس ، فهذا لأنه لما كان وجود المقتضى هو المفيد لوجود المقتضى صار العقل يضيف عدمه إلى عدمه إضافة لزومية ، لأن عدم الشيء إما أن يكون لعدم المقتضى أو لوجود المانع . وبعد قيام المقتضى لا يتصور أن يكون العدم إلا لأجل هاتين الصورتين أو الحالتين ؛ فلما كان الشيء الذي انعقد سبب وجوده يعوقه [ويمنعه] المانع المنافي وهو أمر موجود ، وتارة لا يكون سببه قد انعقد صار عدمه تارة ينسب إلى عدم مقتضيه ، وتارة إلى وجود مانعه ومنافيه .

وهذا معنى قول المسلمين : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ؛ إذ مشيئته هو الموجبة وحدها لا غيرها ، فيلزم من انتفائها انتفاؤه لا يكون شيء حتى تكون مشيئته ، لا يكون شيء بدونها بحال ، فليس لنا سبب يقتضي وجود شيء حتى تكون مشيئته مانعة من وجوده ، بل مشيئته هي السبب الكامل ، فمع وجودها لا مانع ، ومع عدمها لا مقتضى ﴿ **مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ** ﴾ [1] ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ** ﴾ [2] ﴿ **قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ؟ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ، قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ [3] .

وإذا عرف أن العبد ليس له من نفسه خير أصلاً ، بل ما بنا من نعمة فمن الله ، وإذا مسَّنا الضر فإليه نجأر ، والخير كله بيديه ، كما قال : ﴿ **مَا**

= علاقة بين شرطين يتوقف ثبوت أحدهما على ثبوت الآخر .

فالدور إذن هو توقف كل واحد من الشيئين على الآخر .

(١) سورة فاطر آية رقم ٢ .

(٢) سورة يونس آية رقم ١٠٧ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ٣٨ .

أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ ﴾ (١) وقال : ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (٢) .

وقال النبي ﷺ في سيد الاستغفار الذي في صحيح البخاري : « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليَّ ، وأَبوء بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » (٣) . وقال في دعاء الاستفتاح الذي في صحيح مسلم :

« لَبَّيْك وسَعديْك ، والخير بيديك ، والشر ليس إليك ، تباركت ربنا وتعاليت » (٤) .

وذلك أن الشر إما أن يكون موجوداً أو معدوماً ، فالمعدوم سواء كان عدم ذات أو عدم صفة من صفات كمالها أو فعل من أفعالها ، مثل عدم

---

(١) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٦٥ .

(٣) الحديث أخرجه الامام البخاري في ٨٠ كتاب الدعوات ١٦ - باب ما يقول إذا أصبح ٦٣٢٣ - حدثنا عبد الله بن بريدة عن بشير بن كعب عن شداد بن أوس ، عن النبي - ﷺ - قال : وذكره وفيه زيادة [إذا قال حين يمسي دخل الجنة أو كان من أهل الجنة - وإذا قال حين يصبح فمات من يومه مثله] .

(٤) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام مسلم في ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٢٦ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ٢٠١ (٧٧١) حدثنا يوسف الماجشون ، حدثني أبي عن عبد الرحمن الأعرج ، عن عبيد الله بن أبي رافع عن علي بن أبي طالب ، عن رسول الله - ﷺ - أنه كان إذا قام الى الصلاة قال : وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت . وذكره .

الحياة أو العلم ، أو السمع أو البصر ، أو الكلام أو العقل أو العمل الصالح على تنوع أصنافه ، مثل معرفة الله ومحبته وعبادته والتوكل عليه، والإنابة إليه ورجائه وخشيته ، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وغير ذلك من الأمور المحمودة الباطنة والظاهرة ، من الأقوال والأفعال ، فإن هذه الأمور كلها خيرات وحسنات ، وعدمها شر وسيئات : لكن هذا العدم ليس بشيء أصلا ، حتى يكون له باريء وفاعل فيضاف الى الله ، وإنما هو من لوازم النفس التي هي حقيقة الإنسان قبل أن تخلق وبعد أن خلقت ـ وقد خلقت ضعيفة ناقصة ـ فيها النقص والضعف والعجز فإن هذه الأمور عدمية ، فأضيف إلى النفس من باب إضافة عدم المعلول إلى عدم علته وعدم مقتضيه ، وقد تكون من باب إضافته إلى وجود منافيه من وجه آخر سنبينه إن شاء الله تعالى . و« نكتة الأمر » أن هذا الشر والسيئات العدمية ، ليست موجودة حتى يكون الله خالقها ، فإن الله خالق كل شيء .

والمعدومات تنسب تارة إلى عدم فاعلها ، وتارة إلى وجود مانعها فلا تنسب إليه هذه الشرور العدمية على الوجهين .

أما « الأول » فلأنه الحق المبين فلا يقال عدمت لعدم فاعلها ومقتضيها . وأما « الثاني » ـ وهو وجود المانع ـ فلأن المانع إنما يحتاج إليه إذا وجد المقتضى ، ولو شاء فعلها لما منعه مانع ، وهو ـ سبحانه ـ لا يمنع نفسه ما شاء فعله : بل هو فعال لما يريد ؛ ولكن الله قد يخلق هذا سبباً ومقتضياً ومانعاً . فإن جعل السبب تاماً لم يمنعه شيء وإن لم يجعله تاماً منعه المانع لضعف السبب وعدم إعانة الله له ، فلا يعدم أمر إلا لأنه لم يشأه ، كما لا يوجد أمر إلا لأنه يشاؤه ، وإنما تضاف هذه السيئات العدمية إلى العبد لعدم السبب منه تارة ، ولوجود المانع منه أخرى . أما عدم السبب فظاهر ، فإنه ليس منه قوة ولا حول ولا خير ولا سبب خير أصالة ، ولو كان منه شيء لكان سبباً فأضيف إليه لعدم السبب ؛ ولأنه قد صدرت منه أفعال كان سبباً لها بإعانة

الله له ، فما لم يصدر منه كان لعدم السبب .

وأما وجود المانع المضاد له المنافي فلأن نفسه قد تضيق وتضعف وتعجز أن تجمع بين أفعال ممكنة في نفسها ، متنافية في حقه ، فإذا اشتغل بسمع شيء أو بصره ، أو الكلام في شيء أو النظر فيه أو إرادته ، أو اشتغلت جوارحه بعمل كثير اشتغلت عن عمل آخر ، وإن كان ذلك خيراً لضيقه وعجزه ؛ فصار قيام إحدى الصفات والأفعال به مانعاً وصادّاً عن آخر .

والضيق والعجز يعود إلى عدم قدرته . فعاد إلى العدم الذي هو منه ، والعدم المحضُ ليس بشيء حتى يضاف إلى الله تعالى ، وأما إن كان الشيء موجوداً كالألم وسبب الألم فينبغي أن يعرف أن الشر الموجود ليس شراً على الإطلاق ، ولا شراً محضاً ، وإنما هو شر في حق من تألم به ، وقد تكون مصائب قوم عند قوم فوائد .

ولهذا جاء في الحديث الذي رويناه مسلسلاً « آمنت بالقدر خيره وشره ، وحلوه ومره »[١] وفي الحديث الذي رواه أبو داود : لو أنفقت ملء الأرض ذهباً لما قبله منك حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك »[٢] فالخير والشر هما بحسب العبد

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١٠ باب في القدر ـ ٨٧ ـ حدثنا يحيى بن عيسى الخزار عن عبد الأعلى بن أبي المساور ، عن الشعبي ، قال : لما قدم عدي بن حاتم الكوفة أتيناه في نفر من فقهاء الكوفة فقلنا له حدثنا ما سمعت من رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : أتيت النبي ـ ﷺ ـ فقال : يا عدي بن حاتم أسلم تسلم ـ قلت : وما الاسلام . . ؟ فقال : تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وتؤمن بالأقدار كلها الخ .
في الزوائد : هذا إسناد ضعيف .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب السنة باب في القدر ٤٦٩٩ حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا سفيان ، عن أبي سنان ، عن وهب بن خالد الحمصي ، عن ابن الديلمي ، قال : أتيت أبي ابن كعب فقلت له وقع في نفسي شيء من القدر فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبي فقال : لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم :

المضاف إليه كالحلو والمر سواء ، وذلك أن من لم يتألم بالشيء ليس في حقه شراً ، ومن تنعم به فهو في حقه خير ، كما كان النبي ﷺ يعلم من قص عليه أخوه رؤ يا أن يقول : « خيراً تلقاه وشراً توقاه ، خيراً لنا وشرّاً لأعدائنا » فإنه إذا أصاب العبد شر سر قلب عدوه ، فهو خير لهذا وشر لهذا : ومن لم يكن له ولياً ولا عدواً فليس في حقه لا خيراً ولا شراً ، وليس في مخلوقات الله ما لم يؤلم الخلق كلهم دائماً ، ولا ما لم يؤلم جمهورهم دائماً : بل مخلوقاته إما منعمة لهم أو لجمهورهم في أغلب الأوقات ، كالشمس والعافية ، فلم يكن في الموجودات التي خلقها الله ما هو شر مطلقاً عاماً .

فعلم أن الشر المخلوق الموجود شر مقيد خاص ، وفيه وجه آخر هو به خير وحسن ، وهو أغلب وجهيه ، كما قال تعالى : ﴿ **أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ** ﴾ [(1)] وقال تعالى : ﴿ **صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ [(2)] وقال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالحَقِّ** ﴾ [(3)] وقال : ﴿ **وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً** ﴾ [(4)] .

وقد علم المسلمون أن الله لم يخلق شيئاً ما إلا لحكمة ؛ فتلك الحكمة وجه حسنه وخيره ، ولا يكون في المخلوقات شر محض لا خير فيه ولا فائدة فيه بوجه من الوجوه : وبهذا يظهر معنى قوله : « والشر ليس إليك » وكون الشر لم يضف إلى الله وحده ؛ بل إما بطريق العموم أو يضاف إلى السبب أو يحذف فاعله .

= كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم وذكره . وفيه قال : ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك . قال : ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال : مثل ذلك قال : ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي - ﷺ - مثل ذلك .

(١) سورة السجدة آية رقم ٧ وتكملة الآية ﴿ **وبدأ خلق الإنسان من طين** ﴾

(٢) سورة النمل آية رقم ٨٨ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٨٥ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٩١ وتكملة الآية ﴿ **سبحانك فقنا عذاب النار** ﴾ .

فهذا الشر الموجود الخاص المقيد سببه : إما عدم وإما وجود ؛ فالعدم مثل عدم شرط أو جزء سبب ، إذ لا يكون سببه عدماً محضاً ، فإن العدم المحض لا يكون سبباً تاماً لوجوده : ولكن يكون سبب الخير واللذة قد انعقد ، ولا يحصل الشرط فيقع الألم ؛ وذلك مثل عدم فعل الواجبات الذي هو سبب الذم والعقاب ، ومثل عدم العلم الذي هو سبب ألم الجهل وعدم السمع والبصر والنطق الذي هو سبب الألم بالعمى والصمم والبكم وعدم الصحة والقوة ، الذي هو سبب الألم والمرض ، والضعف . فهذه المواضع ونحوها يكون الشر أيضاً مضافاً إلى العدم المضاف إلى العبد حتى يتحقق قول الخليل : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (١) فإن المرض وإن كان الماً موجوداً فسببه ضعف القوة ، وانتفاء الصحة الموجودة ، وذلك عدم هو من الإنسان المعدوم بنفسه ، ولا يتحقق قول الحق ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ ﴾ (٢) وقوله : ﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٣) ونحو ذلك فيما كان سببه عدم فعل الواجب وكذلك قول الصحابي : وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان .

يبين ذلك أن المحرمات جميعها من الكفر والفسوق والعصيان إنما يفعلها العبد لجهله أو لحاجته ، فإنه إذا كان عالما بمضرتها وهو غني عنها امتنع أن يفعلها ، والجهل أصله عدم ، والحاجة أصلها العدم .

فأصل وقوع السيئات منه عدم العلم والغنى ، ولهذا يقول في القرآن ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ (٤) ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ (٥) ؟ ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا

---

(١) سورة الشعراء آية رقم ٨٠ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٦٥ .

(٤) سورة هود آية رقم ٢٠ .

(٥) هذا جزء من آية من سورة يس رقم ٦٢ وهي ﴿ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾ .

آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾[1] إلى نحو هذه المعاني .

وأما الموجود الذي هو سبب الشر الموجود الذي هو خاص كالآلام ، مثل الأفعال المحرمة من الكفر الذي هو تكذيب أو استكبار ، والفسوق الذي هو فعل المحرمات ونحو ذلك ، فإن ذلك سبب الذم والعقاب ، وكذلك تناول الأغذية الضارة ، وكذلك الحركات الشديدة المورثة للألم ، فهذا الوجود لا يكون وجوداً تاماً محضاً : إذ الوجود التام المحض لا يورث إلا خيراً ، كما قلنا إن العدم المحض لا يقتضي وجوداً ؛ بل يكون وجوداً ناقصاً إما في السبب وإما في المحل ، كما يكون سبب التكذيب عدم معرفة الحق والإقرار به ، وسبب عدم هذا العلم والقول عدم أسبابه ، من النظر التام ، والاستماع التام لآيات الحق وأعلامه .

وسبب عدم النظر والاستماع : إما عدم المقتضى فيكون عدماً محضاً ، وإما وجود مانع من الكبر أو الحسد في النفس ﴿ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[2] وهو تصور باطل ، وسببه عدم غنى النفس بالحق فتعتاض عنه بالخيال الباطل .

و« الحسد »[3] أيضاً سببه عدم النعمة التي يصير بها مثل المحسود أو أفضل منه ؛ فإن ذلك يوجب كراهة الحاسد لأن يكافئه المحسود ، أو يتفضل عليه . وكذلك الفسوق كالقتل والزنا وسائر القبائح ، إنما سببها حاجة النفس إلى الاشتفاء بالقتل والالتذاذ بالزنا ، وإلا فمن حصل غرضه بلا قتل أو نال

---

(١) سورة الصافات آية رقم ٦٩ ـ ٧٠ .

(٢) سورة الحديد آية رقم ٢٣ .

(٣) روى ابن ماجه في كتاب الزهد ٢٢ باب الحسد ٤٢٠٨ حدثنا اسماعيل بن خالد ، عن قيس ابن أبي حازم ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « لا حسد إلا في اثنتين : رجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها » .

اللذة بلا زنا لا يفعل ذلك ، والحاجة مصدرها العدم ، وهذا يبين - إذا تدبره الإنسان - أن الشر الموجود إذا أضيف إلى عدم أو وجود فلا بدَّ أن يكون وجوداً ناقصاً ، فتارة يضاف إلى عدم كمال السبب أو فوات الشرط ، وتارة يضاف إلى وجود ، ويعبر عنه تارة بالسبب الناقص والمحل الناقص ، وسبب ذلك إما عدم شرط أو وجود مانع ، والمانع لا يكون مانعاً إلا لضعف المقتضى ، وكل ما ذكرته واضح بين ، إلا هذا الموضع ففيه غموض يتبين عند التأمل وله طرفان :

« أحدهما » أن الموجود لا يكون سببه عدماً محضاً .

والثاني « أن الموجود لا يكون سبباً للعدم المحض ، وهذا معلوم بالبديهة أن الكائنات الموجودة لا تصدر إلا عن حق موجود .

ولهذا كان معلوماً بالفطرة أنه لا بد لكل مصنوع من صانع كما قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ ﴾ [1] يقول : أخُلقوا من غير خالق أم هم خلقوا أنفسهم ؟ .

ومن المتكلمين من استدل على هذا المطلوب بالقياس [2] ، وضرب

---

(١) سورة الطور آية رقم ٣٥ ووجودهم هكذا من غير شيء ينكره منطق الفطرة ابتداء ، ولا يحتاج الى جدل كثير أو قليل ، أم يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدّعوه ولا يدعيه مخلوق ، وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة ، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن وهي أنهم جميعاً من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والانشاء فلا يجوز أن يشاركه أحد في الربوبية والعبادة ، وهو منطق واضح بسيط .

(٢) القياس : التقدير يقال قاس الشيء إذا قدره ، ويستعمل أيضاً في التشبيه أي في تشبيه الشيء بالشيء يقال : هذا قياس ذاك ، إذا كان بينهما تشابه .
والقياس اللغوي : رد الشيء الى نظيره ، والقياس الفقهي : حمل فرع على أصله لعلة مشتركة بينهما .
والقياس المنطقي : قول مؤلف من أقوال إذا وضعت لزم عنها بذاتها لا بالعرض قول آخر غيرها اضطراراً » .

المثال ، والاستدلال عليه ممكن ، ودلائله كثيرة ، والفطرة عند صحتها أشد إقراراً به ، وهو لها أبداً ، وهي لها أشد اضطراراً من المثال الذي يقاس به .
وقد اختلف أهل الأصول في العلة الشرعية ، هل يجوز تعليل الحكم الوجودي بالوصف العدمي فيها مع قولهم : إن العدمي يعلل بالعدمي ؟ فمنهم من قال : يعلل به ، ومنهم من أنكر ذلك ، ومنهم من فصل بين ما لا يجوز أن يكون علة للوجود في قياس العلة ، ويجوز أن تكون علته له في قياس الدلالة يجوز أن يكون العدم فيه علة وجزءاً من علة ؛ لأن عدم الوصف قد يكون دليلاً على وصف وجودي يقتضي الحكم .

وأما « قياس العلة » فلا يكون العدم فيه علة تامة : لكن يكون جزءاً من العلة التامة ، وشرطاً للعلة المقتضية التي ليست بتامة ، وقلنا : جزء من العلة التامة ، وهو معنى كونه شرطاً في اقتضاء العلة الوجودية وهذا نزاع لفظي ، فإذا حققت المعاني ارتفع ، فهذا في بيان أحد الطرفين وهو أن الموجود لا يكون سببه عدماً محضاً .

وأما « الطرف الثاني » وهو أن الموجود لا يكون سبباً لوجود يستلزم عدماً [1] فلأن العدم المحض لا يفتقر إلى سبب موجود ، بل يكفي فيه عدم السبب الموجود ؛ ولأن السبب الموجود إذا أثر فلا بد أن يؤثر شيئاً ، والعدم المحض ليس بشيء ، فالأثر الذي هو عدم محض بمنزلة عدم الأثر ؛ بل إذا أثر الإعدام فالإعدام أمر وجودي فيه عدم ، فإن جعل الموجود معدوماً

---

(١) العدم : ضد الوجود ، وهو مطلق أو إضافي ، فالعدم المطلق هو الذي لا يضاف الى شيء ، والعدم الاضافي أو المقيد ، هو المضاف الى شيء كقولنا : عدم الأمن ، وعدم الاستقرار ، وعدم التأثير .
والعدمي : هو المنسوب الى العدم ، ويطلق على كل حد يدل على فقدان الشيء لاحدى الصفات التي تقتضيها طبيعته كالعمى للانسان ، وكل شيء مصيره الى الزوال ، كالسماء المظلة ، والأرض ، والمال ، والجاه ، والملك فهو عدمي . قال تعالى : ﴿ **كل من عليها فان** ﴾ .

والمعدوم موجوداً أمر معقول ، أما جعل المعدوم معدوماً فلا يعقل إلا بمعنى الإبقاء على العدم ، والإبقاء على العدم يكفي فيه عدم الفاعل ، والفرق معلوم بين عدم الفاعل وعدم الموجب في عدم العلة ، وبين فاعل العدم وموجب العدم ، وعلة العدم . والعدم لا يفتقر إلى الثاني ، بل يكفي فيه الأول فتبين بذلك الطرفان ، وهو أن العدم المحض الذي ليس فيه شوب وجود لا يكون وجودا ما : لا سبباً ولا مسبباً ولا فاعلاً ولا مفعولاً أصلاً فالوجود المحض التام الذي ليس فيه شوب عدم لا يكون سبباً لعدم أصلاً ولا مسبباً عنه ولا فاعلاً له ولا مفعولاً ، أما كونه ليس مسبباً عنه ولا مفعولاً له فظاهر ، وأما كونه ليس سبباً له فإن كان سبباً لعدم محض فالعدم المحض لا يفتقر إلى سبب [1] موجود ، وإن كان لعدم فيه وجود فذاك الوجود لا بد له من سبب ولو كان سببه تاماً وهو قابل لما دخل فيه عدم ؛ فإنه إذا كان السبب تاماً والمحل قابلاً وجب وجود المسبب فحيث كان فيه عدم فلعدم ما في السبب أو في المحل فلا يكون وجوداً محضاً .

فظهر أن السبب حيث تخلف حكمه إن كان لفوات شرط فهو عدم ، وإن كان لوجود مانع فإنما صار مانعاً لضعف السبب ، وهو أيضاً عدم قوته وكماله ، فظهر أن الوجود ليس سبب العدم المحض ، وظهر بذلك القسمة الرباعية ، وهي أن الوجود المحض لا يكون إلا خيراً .

يبين ذلك أن كل شر في العالم لا يخرج عن قسمين إما ألم [2] وإما

(١) السبب : الحبل ، وما يتوصل به الى المقصود ، والجمع أسباب ، وأسباب السماء مراقيها ونواحيها ، أو أبوابها .

والفرق بين السبب والشرط أن السبب هو ما يكون الشيء محتاجاً إليه إما في ماهيته أو في وجوده ، على حين أن الشرط هو ما يتوقف عليه وجود الشيء كالوضوء للصلاة .

والسبب عند الأصوليين ، ما كان طريقاً للوصول الى الحكم من غير تأثير فيه ولا توقف الحكم عليه .

والسببية : هي العلاقة بين السبب والمسبب .

(٢) الألم : مصدر ألم يألم ، كعلم يعلم ، وهو مقابل للـذة ، والألم واللذة هما من الأحوال =

سبب الألم ، وسبب الألم مثل الأفعال السيئة المقتضية للعذاب ، والألم الموجود لا يكون إلا لنوع عدم ، فكما يكون سببه تفرق الاتصال ، وتفرق الاتصال هو عدم التأليف والاتصال الذي بينهما ، وهو الشر والفساد .

وأما سبب الألم فقد قررت في « قاعدة كبيرة » أن أصل الذنوب هو عدم الواجبات لا فعل المحرمات ، وأن فعل المحرمات إنما وقع لعدم الواجبات ، فصار أصل الذنوب عدم الواجبات ، وأصل الألم عدم الصحة ؛ ولهذا كان النبي ﷺ يعلمهم في خطبة الحاجة أن يقولوا : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا »[1] فيستعيذ من شر النفس الذي نشأ عنها من ذنوبها وخطاياها ، ويستعيذ من سيئات الأعمال التي هي عقوباتها وآلامها ؛ فإن قوله : « ومن سيئات أعمالنا » قد يراد به السيئات في الأعمال وقد يراد به العقوبات ؛ فإن لفظ السيئات في كتاب الله يراد به ما يسوء الإنسان من الشر ، وقد يراد به الأعمال السيئة ، قال تعالى : ﴿ إن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ،

= النفسية الأولية فلا يعرّفان بل تذكر خواصهما وشروطهما دفعاً للالتباس اللفظي .
وللألم نوعان جسماني ونفساني ، فالألم الجسماني ينشأ عن احساسات جسمانية ذات مصدر محدود ، كاحتراق اليد ، وضرب الضرس ووجع العين .
والألم النفساني ينشأ عن تأثير الميول والأفكار والاعتقادات والآراء .

(١) خطبة الحاجة : رواه الترمذي في كتاب النكاح باب ما جاء في خطبة النكاح ١١٠٥ عن الأعمش عن أبي اسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : علمنا رسول الله ـ ﷺ ـ التشهد في الصلاة والتشهد في الحاجة . وهو إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، فمن يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » ويقرأ ثلاث آيات .
قال عبثر ففسره لنا سفيان الثوري : **﴿ يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾** . **﴿ واتقوا الله الذين تساءلون به والأرحام ﴾** الى آخر الآية . و**﴿ اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ﴾** إلى آخر الآية . وورواه ابن ماجه في كتاب النكاح ١٩ باب خطبة النكاح ١٨٩٢ بسنده عن عبد الله بن مسعود .

وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ (٢) .

ومعلوم أن شر النفس هو الأعمال السيئة فتكون سيئات الأعمال هي الشر والعقوبات الحاصلة بها فيكون مستعيذاً من نوعي السيئات : الأعمال السيئة وعقوباتها ، كما في الاستعاذة المأمور بها في الصلاة :

« أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » (٣) فأمرنا بالاستعاذة من العذاب عذاب الآخرة وعذاب البرزخ ، ومن سبب العذاب ، ومن فتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال ، وذكر الفتنة الخاصة بعد الفتنة العامة فتنة المسيح الدجال فإنها أعظم الفتن كما في الحديث الصحيح « ما من خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من فتنة المسيح الدجال » (٤) .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٢٠ .

(٢) سورة الشورى آية رقم ٤٨ .

(٣) أخرج الامام مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٢٥) باب ما يستعاذ منه في الصلاة بسنده أن عائشة زوج النبي - ﷺ - أخبرته أن النبي - ﷺ - كان يدعو في الصلاة « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات . اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم » . قالت : فقال له قائل : ما أكثر ما تستعيذ من المغرم يا رسول الله . فقال : إن الرجل إذا غرِم ، حدث فكذب . ووعد فأخلف » .

(٤) هذا جزء من حديث طويل رواه ابن ماجه في كتاب الفتن ٣٣ باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم ، وخروج يأجوج ومأجوج ٤٠٧٧ بسنده عن أبي أمامة الباهلي قال : خطبنا رسول الله - ﷺ - فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن الدجال وحذرناه فكان من قوله أن قال : إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال وإن الله لم يبعث نبياً إلا حذر أمته الدجال . . وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم الخ .

فصل

العبد وكل مخلوق فقير الى الله

إذا ظهر أن العبد وكل مخلوق فقير إلى الله محتاج إليه ليس فقيرا إلى سواه فليس هو مستغنيا بنفسه ولا بغير ربه ، فإن ذلك الغير فقير أيضا محتاج إلى الله ، ومن المأثور عن أبي يزيد [١] ـ رحمه الله ـ أنه قال : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق .

وعن الشيخ أبي عبد الله القرشي أنه قال : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون . وهذا تقريب وإلا فهو كاستغاثة العدم بالعدم ؛ فإن المستغاث به إن لم يخلق الحق فيه قوة وحولا وإلا فليس له من نفسه شيء ، قال سبحانه ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [٢] وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [٣] وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلَّا بِإذنِ الله ﴾ [٤] .

---

(١) هو طيفور بن عيسى البسطامي ، أبو يزيد ويقال با يزيد : زاهد مشهور له أخبار كثيرة . قال المناوي : وقد أفردت ترجمته بتصانيف حافلة وفي المستشرقين من يرى أنه كان يقول بوحدة الوجود ، وأنه ربما كان أول قائل بمذهب الفناء ويعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية توفي عام ٢٦١ هـ . [راجع ميزان الاعتدال ١ : ٤٨١ ووفيات الأعيان ١ : ٢٤٠] .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٥ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٢٨ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٠٢ .

واسم العبد يتناول معنيين :

« أحدهما » بمعنى العابد كرها كما قال : ﴿ إن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾ [1] .

وقال : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ [2] .

وقال : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [3] ﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ [4]

وقال : ﴿ وَلله يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ [5]

و« الثاني » بمعنى العابد طوعاً وهو الذي يعبده ويستعينه ، وهذا هو المذكور في قوله :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً ﴾ [6] وقوله :
﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ [7] وقوله :
﴿ إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [8] وقوله :
﴿ إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ ﴾ [9] وقوله :
﴿ يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [10] وقوله :
﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [11] وقوله :
﴿ فَأَوْحَى إلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [12] وقوله :

---

(١) سورة مريم آية رقم ٩٣ .
(٢) سورة آل عمران آية رقم ٨٣ .
(٣) سورة البقرة آية رقم ١١٧ وسورة الأنعام آية رقم ١٠١ .
(٤) سورة البقرة آية رقم ١١٦ وسورة الروم آية رقم ٢٦ .
(٥) سورة الرعد آية رقم ١٥ .
(٦) سورة الفرقان آية رقم ٦٣ .
(٧) سورة الإنسان آية رقم ٦ .
(٨) سورة الحجر آية رقم ٤٢ .
(٩) سورة ص آية رقم٨٣ .
(١٠) سورة الزخرف آية رقم ٦٨ .
(١١) سورة ص آية رقم ٤٥ .
(١٢) سورة النجم آية رقم ١٠ .

﴿ نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [1] وقوله :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [2] وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ [3]

وهذه العبودية قد يخلو الإنسان منها تارة ، وأما الأولى فوصف لازم . إذا أريد بها جريان القدر علية وتصريف الخالق له ، قال تعالى :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ، وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكُرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [4] ؟

وعامة السلف على أن المراد بالاستسلام استسلامهم له بالخضوع والذل ، لا مجرد تصريف الرب لهم ، كما في قوله :

﴿ وَللهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ﴾ [5] ،

وهذا الخضوع والذل هو أيضاً لازم لكل عبد لا بدّ له من ذلك . وإن كان قد يعرض له أحياناً الإعراض عن ربه والاستكبار ، فلا بدَّ له عند التحقيق من الخضوع والذل له : لكن المؤمن يسلم له طوعاً فيحبه ويطيع أمره ، والكافر إنما يخضع له عند رغبته ورهبته ، فإذا زال عنه ذلك أعرض عن ربه ، كما قال :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ [6] دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا

---

(١) سورة ص آية رقم ٤٤ .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ١ .

(٣) سورة الجن آية رقم ١٩ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٨٣ .

(٥) سورة الرعد آية رقم ١٥ .

(٦) الضر : ورد في القرآن واللغة على وجوه: ١ ـ بمعنى البلاء والشدة ﴿ والصابرين في البأساء والضراء ﴾ البقرة آية ١٧٧ .
=

عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَمْ يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ ﴾ (١) وقال :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ في البَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إلاَّ إيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إلَى البَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإنسَانُ كَفُوراً ﴾ (٢) .

وفقر المخلوق وعبوديته أمر ذاتي له لا وجود له بدون ذلك ، والحاجة ضرورية لكل المصنوعات المخلوقات ، وبذلك هي أنها لخالقها وفاطرها إذ لا قيام لها بدونه ، وإنما يفترق الناس في شهود هذا الفقر والاضطرار وعزويه عن قلوبهم .

و« أيضاً » فالعبد يفتقر إلى الله من جهة أنه معبوده الذي يحبه حب إجلال وتعظيم فهو غاية مطلوبة ومراده ومنتهى همته ، ولا صلاح له إلا بهذا ، وأصل الحركات الحب ، والذي يستحق المحبة لذاته هو الله ، فكل من أحب مع الله شيئاً فهو مشرك ، وحبه فساد : وإنما الحب الصالح النافع حب الله والحب لله ، والإنسان فقير إلى الله من جهة عبادته له ومن جهة استعانته به للاستسلام والانقياد لمن أنت إليه فقير وهو ربك وإلهك . وهذا العلم والعمل أمر فطري ضروري : فإن النفوس تعلم فقرها إلى خالقها ، وتذِل لمن أفتقرت إليه ، وغناه من الصمدية (٣) التي انفرد بها ، فإنه ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ

---

(٢) بمعنى الفقر والفاقة : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ﴾ [الأنعام آية ١٧] ﴿ إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ﴾ أي ما قدر من الفقر .

(٣) بمعنى القحط والجدب وضيق المعيشة ﴿ مستهم البأساء والضراء ﴾ [سورة البقرة ٢١٤] ﴿ من بعد ضراء مستهم ﴾ يونس آية ٢١ .

(٤) بمعنى اختلاف الرياح والأمواج وخوف الهلاك ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ﴾ [سورة الاسراء آية ٦٧] .

(١) سورة يونس الآية رقم ١٢

(٢) سورة الاسراء آية رقم ٦٧

(٣) في الصمد أربعة أقوال : أحدها : أنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج رواه ابن عباس عن رسول الله - ﷺ -

الثاني : أنه الذي لا جوف له قاله ابن عباس ، والحسن ومجاهد وابن جبير وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي .

وَالأَرْضِ ﴾ (1) .

وهو شهود الربوبية بالاستعانة والتوكل والدعاء والسؤال ، ثم هذا لا يكفيها حتى تعلم ما يصلحها من العلم والعمل ، وذلك هو عبادته والإنابة إليه ، فإن العبد إنما خلق لعبادة ربه فصلاحه وكماله ولذته وفرحه وسروره في أن يعبد ربه وينيب إليه ، وذلك قدر زائد على مسألته والافتقار إليه فإن جميع الكائنات حادثة بمشيئته ، قائمة بقدرته وكلمته ، محتاجة إليه ، فقيرة إليه ، مسلمة له طوعاً وكرهاً ، فإذا شهد العبد ذلك وأسلم له متوكلاً عليه مستعيناً به إما بحاله أو بقاله ، بخلاف المستكبر عنه المعرض عن مسألته .

ثم هذا المستعين به السائل له إما أن يسأل ما هو مأمور به ، أو ما هو منهى عنه ، أو ما هو مباح له ؛ فـ « الأول » حال المؤمنين السعداء الذين حالهم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (2) و« الثاني » حال الكفار والفساق والعصاة الذين فيهم إيمان به وإن كانوا كفاراً كما قال :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُشْرِكُونَ ﴾ (3) فهم مؤمنون بربوبيته ، مشركون في عبادته ، كما قال النبي ﷺ لحصين الخزاعي :

« يا حصين ، كم تعبد ؟ قال : سبعة آلهة : ستة في الأرض وواحداً في السماء ، قال : فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك ؟ قال : الذي في السماء ، قال : أسلم حتى أعلمك كلمة ينفعك الله تعالى بها ، فأسلم ، فقال : قل :

= الثالث : أنه الدائم .

الرابع : الباقي بعد فناء الخلق حكاهما الخطابي وقال : أصح الوجوه الأول ، لأن الاشتقاق يشهد له ، فإن أصل الصمد : القصد . يقال : أصمد صمد فلان ، أي أقصد قصده . فالصمد : السيد الذي يصمد إليه في الأمور ، ويقصد في الحوائج .

(1) سورة الرحمن آية رقم ٢٩ .

(2) سورة الفاتحة آية رقم ٥ .

(3) سورة يوسف آية رقم ١٠٦ .

اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي » (١) رواه أحمد وغيره .

ولهذا قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٢) .

أخبر سبحانه أنه قريب من عباده يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، فهذا اخبار عن ربوبيته لهم ، وإعطائه سؤلهم ، وإجابة دعائهم ، فإنهم إذا دعوه فقد آمنوا بربوبيته لهم ، وإن كانوا مع ذلك كفاراً من وجه آخر ، وفساقاً أو عصاة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي البَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى البَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً ﴾ (٣) وقال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) ونظائره في القرآن كثيرة ثم أمرهم بأمرين فقال ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٥)

فـ « الأول » أن يطيعوه فيما أمرهم به من العبادة والاستعانة ، و « الثاني » الإيمان بربوبيته وألوهيته ، وأنه ربهم وإلههم . ولهذا قيل : إجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد ، وعن كمال الطاعة ؛ لأنه عقب آية الدعاء

---

(١) ورواه أيضاً الترمذي في كتاب الدعوات ٧٠ باب (٣٤٨٣ ـ حدثنا أحمد بن منيع ، حدثنا أبو معاوية عن شبيب بن شيبة ، عن الحسن البصري عن عمران بن حصين قال : قال النبي ـ ﷺ ـ وذكره . قال الترمذي : هذا حديث غريب . وقد روي هذا الحديث عن عمران بن حصين من غير هذا الوجه .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٨٦ .

(٣) سورة الإسراء آية رقم ٦٧ .

(٤) سورة يونس آية رقم ١٢ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٨٦ .

بقوله ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ .

والطاعة والعبادة هي مصلحة العبد التي فيها سعادته ونجاته ، وأما إجابة دعائه وإعطاء سؤاله فقد يكون منفعة وقد يكون مضرة ، قال تعالى : ﴿ وَيَدْعُو الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالخَيْرِ ، وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ (٢) .

وقال تعالى عن المشركين : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الحَقَّ مِن عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِن السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣) وقال : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الفَتْحُ ، وَإِن تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (٤) . وقال : ﴿ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ (٦) الآية .

وقال : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ : تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ الله عَلَى الكَاذِبِينَ ﴾ (٧) .

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ١١ .
(٢) سورة يونس آية رقم ١١ .
(٣) سورة الأنفال آية رقم ٣٢ .
(٤) سورة الأنفال آية رقم ١٩ .
(٥) سورة الأعراف آية رقم ٥٥ .
(٦) سورة الأعراف آية رقم ١٧٥ ـ ١٧٦ .
(٧) سورة آل عمران آية رقم ٦١ .

وقال النبي ﷺ لما دخل على أهل جابر فقال :

« لا تـدْعـوا عـلى أَنْفسِكُم إلا بخَـيْر ؛ فـإن المـلائكـة يُؤمِنـون عـلى مـا تقولون »[1] .

---

(1) هـذا جزء من حـديث طـويـل رواه الامـام مسلم في كتـاب الجنـائـز ٤ بـاب في اغمـاض الميت والدعاء له إذا حُضر ، ٧ (٩٢٠) حـدثنا أبـو اسحاق الفـزاري عن خالـد الحذاء عن أبي قـلابة عن قبيصـة بن ذؤيب عن أم سلمة قـالت : دخل رسـول الله - ﷺ - عـلى أبي سلمـة وقـد شق بصره فأغمضه ثم قال : إن الروح إذا قبض تبعه البصـر فضج نـاس من أهله فقال : لا تـدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكـة يؤمنون عـلى ما تقـولون » ثم قـال : اللهم اغفر لأبي سلمـة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين ، واغفر لنا ولـه يا رب العـالمين وافسـح له في قبره ، ونور له فيه » .

فصل

(العبد فقير إلى الله فيما يصلحه ويقصده)

فالعبد كما أنه فقير إلى الله دائما في إعانته وإجابة دعوته وإعطاء سؤاله وقضاء حوائجه فهو فقير إليه في أن يعلم ما يصلحه وما هو الذي يقصده ويريده وهذا هو الأمر والنهي والشريعة ، وإلا فإذا قضيت حاجته التي طلبها وأرادها ولم تكن مصلحة له كان ذلك ضرراً عليه ، وإن كان في الحال له فيه لذة ومنفعة فالاعتبار بالمنفعة الخالصة أو الراجحة وهذا قد عرفه الله عباده برسله وكتبه: علموهم، وزكوهم ، وامروهم بما ينفعهم ، ونهوهم عما يضرهم ، وبينوا لهم أن مطلوبهم ومقصودهم ومعبودهم يجب أن يكون هو الله وحده لا شريك له ؛ كما أنه هو ربهم وخالقهم ، وأنهم إن تركوا عبادته أو أشركوا به [1] غيره خسروا خسرانا مبينا ، وضلوا ضلالاً بعيداً ، وكل ما أوتوه من قوة ومعرفة وجاه ومال وغير ذلك ـ وإن كانوا فيه فقراء إلى الله مستعينين به عليه مقرين بربوبيته ـ فإنه ضرر عليهم ، ولهم بئس المصير وسوء الدار . وهذا هو الذي تعلق به الأمر الديني الشرعي والإرادة الدينية الشرعية ، كما تعلق بالأول الأمر الكوني القدري والإرادة الكونية القدرية .

---

(١) قال الشاعر :

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين فاترات ... على أحداقها ذهب سبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

والله سبحانه قد أنعم على المؤمنين بالإعانة والهداية ، فإنه بين لهم هداهم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وأعانهم على اتباع ذلك علماً وعملاً كما مَنَّ عليهم وعلى سائر الخلق بأن خلقهم ورزقهم وعافاهم ، ومَنّ على أكثر الخلق بأن عرفهم ربوبيته لهم وحاجتهم إليه ، وأعطاهم سؤله ، وأجاب دعاءهم ، قال تعالى ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ كُلَ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (١) فكل أهل السموات والأرض يسألونه فصارت الدرجات أربعة .

« قوم » لم يعبدوه ولم يستعينوه ، وقد خلقهم ورزقهم وعافاهم ، و« قوم » استعانوه فأعانهم ولم يعبدوه .

و« قوم » طلبوا عبادته وطاعته ولم يستعينوه ولم يتوكلوا عليه .

و« الصف الرابع » الذين عبدوه واستعانوه فأعانهم على عبادته وطاعته ، وهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقد بين سبحانه ما خص به المؤمنين في قوله .

﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الرحمن آية رقم ٢٩ .

(٢) سورة الحجرات آية رقم ٧ .

الذي يستوقف النظر هنا هو تذكيرهم بأن الله هو الذي أراد بهم هذا الخير وهو الذي خلص قلوبهم من ذلك الشر : الكفر ، والفسوق ، والعصيان وهو الذي جعلهم بهذا راشدين فضلاً منه ونعمة وأن ذلك كله كان عن علم منه وحكمة .

وإن الإنسان ليعجل وهو لا يدري ما وراء خطواته ، وإن الإنسان ليقترح لنفسه ولغيره ، وهو لا يعرف ما الخير وما الشر فيما يقترح « ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا » . ولو استسلم لله ودخل في السلم كافة ، ورضي اختيار الله له واطمأن إلى أن اختيار الله أفضل من اختياره ، وأرحم له وأعود عليه بالخير لاستراح وسكن ولأمضى هذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب في طمأنينة ورضى .

والحمـد لله رب العالمين وصلى الله على أفضـل المرسلين محمـد وآله وصحبه أجمعين .

فصل

(في حاجة العبد الى هداية الله)

والعبد مضطر دائماً إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم ، فهو مضطر إلى مقصود هذا الدعاء : فإنه لا نجاة من العذاب ولا وصول الى السعادة إلا بهذه الهداية ، فمن فاته فهو إما من المغضوب عليهم ، وإما من الضالين وهذا الهدى لا يحصل إلا بهدى الله ، وهذه الآية مما يبين فساد مذهب القدرية [1] .

وأما سؤال من يقول فقد هداهم فلا حاجة بهم إلى السؤال ، وجواب من أجابه بأن المطلوب دوامها كلام من لم يعرف حقيقة الأسباب ، وما أمر الله به ؛ فإن ﴿ الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ ﴾ أن يفعل العبد في كل وقت ما أمر به في ذلك الوقت من علم وعمل ، ولا يفعل ما نهى عنه ، وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أمر به في ذلك الوقت وما نهى عنه ، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور ، وكراهة جازمة لترك المحظور ، فهذا العلم المفصل والإرادة المفصلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد .

---

(١) أول من تكلم في القدر معبد بن خالد الجهني البصري ، قال أبو حاتم « قدم المدينة فأفسد فيها ناساً » وقال الدارقطني « حديثه صالح ومذهبه رديء » ، وقال محمد بن شعيب عن الأوزاعي « أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له « سوسن » كان نصرانياً فأسلم ثم تنصر أخذ عنه معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد . [راجع العبر ١ : ٩٢ وتهذيب التهذيب ١٠ : ٢٢٥] .

بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله في قلبه من العلوم والإرادات ما يهتدي به في ذلك الصراط المستقيم .

نعم : حصل له هدى مجمل بأن القرآن حق ، والرسل حق ، ودين الإسلام حق ، وذلك حق ، ولكن هذا المجمل لا يغنيه إن لم يحصل له هدى مفصل في كل ما يأتيه ويذره من الجزئيات التي يحار فيها أكثر عقول الخلق ويغلب الهوى والشهوات أكثر عقولهم لغلبة الشهوات والشبهات عليهم . والإنسان خلق ظلوما جهولاً (١) ، فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر ، فيحتاج دائماً إلى علم مفصل يزول به جهله ، وعدل في محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه وإعطائه ومنعه وأكله وشربه ونومه ويقظته ، فكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم ينافي جهله ، وعدل ينافي ظلمه ، فإن لم يمنّ الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل وإلا كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم ، وقد قال تعالى لنبيه ﷺ بعد صلح الحديبية وبيعة الرضوان ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَيَهْدِيكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾ (٢) فإذا كان هذه حاله في آخر حياته أو قريباً منها فكيف حال غيره . و﴿ الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ ﴾ قد فسر بالقرآن (٣) ، وبالإسلام (٤) ، وطريق العبودية ، وكل هذا حق ، فهو موصوف بهذا وبغيره ،

---

(١) قال تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا ﴾ [سورة الأحزاب آية ٧٢] .
أخذ الإنسان على عاتقه حمل الأمانة ، وتعهد بحملها وحده ، وهو على ما هو عليه من الضعف وضغط الشهوات والميول والنزعات ، وقصور العلم ، وقصر العمر ، وحواجز الزمان والمكان ، دون المعرفة الكاملة ورؤ ية ما وراء الحواجز والآماد .
وإنها لمخاطرة أن يأخذ على عاتقه هذه التبعة الثقيلة ، ومن ثم كان ظلوماً لنفسه جهولاً لطاقته ، هذا بالقياس الى ضخامة ما زج بنفسه لحمله .

(٢) سورة الفتح الآيات ١ ـ ٢ .

(٣) في الصراط أربعة أقوال : أحدها · أنه كتاب الله ، رواه علي عن النبي - ﷺ -

(٤) الثاني : أنه دين الإسلام ، قاله ابن مسعود وابن عباس ، والحسن وأبو العالية في آخرين .

فـ « القرآن » مشتمل على مهمات وأمور دقيقة ، ونـواهٍ وأخبـار وقصص وغير ذلك إن لم يهد الله العبد إليها فهو جاهل بها ضال عنها ، وكذلك « الإسلام » وما اشتمل عليه من المكارم والطاعات والخصال المحمودة ، وكذلك « العبادة وما اشتملت عليه » .

فحـاجة العبـد إلى سؤال هذه الهـداية ضـرورية في سعـادتـه ونجـاتـه وفلاحه ، بخلاف حاجته إلى الرزق والنصر فإن الله يرزقه ، فـإذا انقطع رزقـه مات ، والموت لا بد منه ، فإذا كان من أهل الهدى به كان سعيداً قبل الموت وبعده ، وكان الموت موصلاً إلى السعادة الأبدية ، وكذلك النصـر إذا قدر أنـه غلب حتى قتـل فإنـه يموت شهيـداً وكـان القتـل من تمـام النعمـة ، فتبين أن الحاجة إلى الهدى أعظم من الحاجة إلى النصـر والرزق ؛ بـل لا نسبة بينهمـا لأنـه إذا هدي كـان من المتقين ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَـهُ مَخْرَجـاً وَيَرْزُقْـهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [1] وكـان ممن ينصـر الله ورسـولـه ومن نصـر الله نصـره الله [2] ، وكـان من جند الله ، وهـم الغـالبون : ولهـذا كان هـذا الـدعـاء هـو المفـروض و« أيضاً » فـإنه يتضمن الـرزق والنصـر ، لأنـه إذا هـدي ، ثم أمـر وهدى غيره بقوله وفعله ورؤيتـه فالهـدى [3] التام أعـظم ما يحصـل به الـرزق

= الثالث : أنه الطريق الهادي الى دين الله ، رواه أبو صالح عن ابن عباس وبه قال مجاهد .
الرابع : أنه طريق الجنة نقل عن ابن عباس أيضاً .

(١) سورة الطلاق آية رقم ٢ ، ٣ .

(٢) قال تعالى : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ .

(٣) الهدى : بضم الهاء وفتح الدال : الرشاد والدلالة يذكر ويؤنث هداه هُدى .
قال ابن عطية : الهداية في اللغة : الإرشـاد لكنها تتصـرف على وجـوه يعبر عنهـا المفسرون بغـير لفظ الإرشـاد وكلها إذا تؤملت رجعت اليـه انتهى كلامـه وهو صحيـح ، ولم يذكـر أهـل اللغـة فيهـا إلّا أنها بمعنى الإرشاد والأصـل عدم الاشتـراك . وهدايـة الله تعـالى لـلإنسـان عـلى أربعـة أضرب :
الأول : الهـداية التي عم بهـا كل مكلف من العقـل والفطنـة والمعارف الضـرورية قـال تعـالى : =

والنصر فتبين أن هذا الدعاء جامع لكـل مطلوب ، وهـذا مما يبين لـك أن غير الفاتحة لا يقوم مقامهـا ، وأن فضلها على غيـرها من الكـلام أعظم من فضـل الركوع والسجود على سائر أفعال الخضوع ، فإذا تعينت الأفعال فهذا المقـول أولى والله أعلم .

وصلى الله على نبيه محمد وسلم تسليماً كثيراً .

= ﴿ **ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾ .

الثاني : الهداية التي جعلت للناس بدعائه إياهم عـلى ألسنة الأنبيـاء وإنزال القـرآن ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا** ﴾ .

الثـالث : التوفيق الـذي يختص به من اهتـدى وهـو المعنى بقـولـه : ﴿ **والـذين اهتـدوا زدنـاهم هدى** ﴾ .

الرابع : الهداية في الآخـرة الى الجنة وهـو المعنى بقولـه : ﴿ **الحمد لله رب العـالمين** ﴾ ﴿ **والحمـد لله الذي هدانا لهذا** ﴾ سورة الأعراف آية ٤٣ .

فهرست الجزء الثاني

من

كتاب التفسير الكبير

الموضوع	الصفحة
فصل في أسباب ضلال المتكلمين وأتباعهم	٥
فصل الخوارج أول دعاة للفرقة في الإسلام	٨
الجزء الثاني من مقدمة التفسير للمؤلف	٣٧
فصل إدعاء بعض الطوائف أن للباطن باطناً إلى سبعة أبطن	٣٩
فصل علم الباطن الذي يبطن عن أكثر الناس علمه	٤٦
فصل تحقيق ما يقال أن النبي خص كل قوم بما يصلح لهم	٦٣
الإكليل في المتشابه والتأويل	٨٨
فصل في أنواع القلوب	٨٨
فصل إختلاف العلماء في أن أسماء الله وصفاته في المتشابه أم لا .. ؟ ..	١١٥
فصل القرآن آية صدق النبي	١٣٩
فصل في إظهار معجزاته	١٤٤
فصل في معجزات القرآن	١٥٠
فصل في معنى الصراط المستقيم	١٧١
فصل في أقسام القرآن	١٧٤
فصل إختلاف السلف في التفسير قليل	١٩٦
فصل الإختلاف في التفسير وأسبابه : النوع الأول سببه النقل	٢٠٩
فصل النوع الثاني سببه طرف الإستدلال	٢٢١

الموضوع ـــــــــــــــ الصفحة

فصل أحسن طرق التفسير ٢٣١

فصل تفسير القرآن بأقوال التابعين ٢٣٧

فصل ٢٤٥

فصل ٢٤٩

فصل في أسماء القرآن الكريم وصفاته ٢٩٤

فصل في الآيات الدالة على اتباع القرآن ٢٩٦

فصل في إياك نعبد وإياك نستعين ٢٩٧

فصل فاتحة الكتاب ٢٩٩

فصل في معنى : الحمد لله رب العالمين ٣٠٧

فصل في توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ٣٠٩

فصل الإنسان ليس له من نفسه إلا العدم ٣١١

فصل العبد وكل مخلوق فقير إلى الله ٣٢٤

فصل العبد فقير إلى الله فيما يصلحه ويقصده ٣٣٢

فصل في حاجة العبد إلى هداية الله ٣٣٥

الفهرست ٣٣٩